مارون عبود



بحث في النهضة الأدبية الحديثة
ورجلها الأول احمد فارس الشدياق

منشورات دار المكشوف

الطبعة الاولى ، بيروت – لبنان ، اذار ١٩٥٠

اخي القارىء ،

ربما ذكرك قولنا « صقر لبنان » بقولهم صقر قريش ، وهو كذلك . فكما في السياسة كذلك في الادب .

فرّ عبد الرحمن من الشام ، فشيد مملكة طريفة نسميها اليوم « الفردوس المفقود » . وفرّ احمد فارس الشدياق من لبنان ، فاحيا دولة ادبية ما زال رأسها سالماً .

ليس للبنان فرد صقر . قد اهتدى بهذا العَلَم صقور ونسور . وكان ما كان ...

عين كفاع ، صيف ١٩٤٩ .

مارون عبود

صُوَرُ عَصْرِ الشِّدْيَاقْ

الصورة المدنية

كان لبنان ، منذ كان :

كرة وضعت لصوالجةٍ فتلقّفها رجلٌ رجلُ

فما لبنان غير صخرة حطتها الطبيعة على طريق الشعوب المتوثبة الى الفتح ، المتهافتة على الثروة التي هي قوام الملك وملاك الدولة. فاذا مررت في معبر نهر الكلب فأمِلْ نظرك قليلاً الى تلك الصخور القائمة كالجدران المنصوبة : انها صحف سجلت فيها كل امة تاريخ مرورها من هناك . ولكل أجَل كتاب ... ويبقى وجه ربك ذي الجلال ...

كان على كل عابر ، ملكاً كان او قائداً ، ان يتسلق تلك الصخرة ، وان يحتال لمروره بكل وسيلة ، إما واعداً واما متوعداً . الغاية هي المرور ، فالوصول الى عدوه عبر لبنان .

ثم رجعت تلك الدول ادراجها ، وبقيت الصخرة مشمخرة حيث هي ، صابرة على قرع معاول الاقدار التي لم تأخذ من صلابة رجالها المتمردين إلا نزراً يسيراً . وهذا النزر اليسير كانت تستعيده الصخرة ، بعد حين ، من عقيدتها الصلبة ، وايمانها الحي بان الظلم عابر سبيل ، والحق باقٍ حيث هو لا يتزحزح .

كانت الحرية ، في كل طور من اطوار الزمن ، غرض الجبليّ ومثله الاعلى ، يعيش بين شماريخ قممه عيشة حجلانه ، تتكاثر عليها

الصيادون ، وتثيرها كلابهم من مكامنها ، وتصلى نار بنادقهم الحامية ، وتنقض عليها بيزانهم وصقورهم ، فيقتل منها ما يقتل ، ويعطب ما يعطب ، ولكنها تعود الى وكناتها ومدارجها مطمئنة ، ثم لا تبرح منطقتها .

وكان الحكم اقطاعياً يقطّع الكلا ، ويقتطع الاكباد . امـــا الرعية فصبرت على هذا وذاك ، تعض عـــلى جرحها ، وتفعل متى أجيعت بقول الشنفرى :

وأطوي على الخمص الحوايا كما انطوت
خيوطة ماري تُغـار وتُفتَلُ

صبر الشعب على آلامه المريرة ، وجراحات نفسه الداميـــة . كانت الرعية في هذه النكبات جميعها تتمرمر وتتوجع ، ولكنها لا تقنط ولا تستسلم . لم يخل الوطن ، في اشد ظلمات تاريخه كثافة ، من متمردين ينغصون عـــلى المستبدين احلامهم بالسيادة الغاشمة ، ويقضون عليهم مضاجعهم الوثيرة . ثم تختلف ذئاب الحكم وضباعه فيستريح الشعب هنيهة ويستعيد قواه ، مؤمناً بان كل حال يزول ، وبان في السماء ربّاً طويل الروح شديد العقاب ... ثم لا ينسى : ان الصبر مفتاح الفرج .

وقد طفح كيل هذا التعذيب في هذا الطور الذي نحاول تصويره الآن للقارىء العزيز . لا اعني غير عصر الشهابيين الجبارين الامير يوسف وابن اخيه الامير بشير الكبير ، لان « صقر لبنان » وجد في هذا العصر . درج هذان الاميران على خطة الطغاة جبابرة الدهور ، فكانوا يطيرون الرؤوس عن هاماتها كأنها فقاقيع صابون يتلهى بها الصبيان ويقهقهون عند انفلاقها .

ولو لم يكن الحكم مطروحاً بالمزاد عند « جزار » عكا وباشا صيدا ، ولولا طمع النفوس الذي هيّأ لهذه السلعة شارين يؤلّبون الناس حولهم لتأييدهم ، لما كان الشعب يتنفس الصعداء بين آونة واخرى ، ولكان استشرى الظلم والبغي ، وخال الناس ان ربّ السماء طرش ولم يعد يسمع صراخ الذين خلقهم على صورته ومثاله ...

وقد وصف تلك المآسي الفاجعة أحدُ احفاد ابطال الحرية المناضلين ، ابن الجبل العريق ، جبران خليل جبران ، فانطلق احد ابطال « ارواحه المتمردة » ، خليل الكافر ، بصلاة حارة . ان هذا البطل الجبراني لهو صورة اللبناني المتمرد ، التائق الى الحرية ، وناشدها في كل دور من ادوار تاريخه . فاذا تأمل القارىء هذه الصلاة الجامحة رأى احدى صور عهد الاقطاع الرهيب بارزة امامه .

قال بطل جبران :

من اعماق هذه الاعماق نناديك ايتها « الحرية » فاسمعينا .

من جوانب هذه الظلمة نرفع اكفنا نحوك فانظرينا .

على هذه الثلوج نسجد امامك فارحمينا .

امام عرشك الرهيب نقف الان ناشرين على اجسادنا اثواب ابائنا الملطخة بدمائهم ، عافرين شعورنا في تراب القبور الممزوج ببقاياهم ، حاملين السيوف التي اغمدت باكبادهم ، ساحبين القيود التي ابادت اقدامهم ، صارخين الصراخ الذي جرح حناجرهم ، نائحين النواح الذي ملأ ظلمة سجونهم ، مصلين الصلاة التي انبثقت من اوجاع قلوبهم .

فاصغي ايتها الحرية واسمعينا .

في زوايا الاكواخ القائمة في ظل ظلال الفقر والهوان ، تقرع امامك الصدور ، وفي خلايا البيوت الجالسة في ظلمة الجهل والغباوة تطرح لديك القلوب .

وفي قراني المنازل المحجوبة بضباب الجور والاستبداد تحن اليك الارواح .

فانظري ايتها الحرية وارحمينا .

في المدارس والمكاتب تناديك الشبيبة اليائسة ، وفي الكنائس والجوامع يستميلك

« الكتاب » المتروك ، وفي المحاكم والمجالس تستغيث بك « الشريعة » المهملة .

فاشفقي ايتها الحرية وخلصينا .

في حقولنا المجدبة يحفر الفلاح الارض باظافره ، ويزرعها حبات قلبه ، ويسقيها دموعه، ولا يستغل غير الاشواك ، ولا من يعلمه .

وفي سهولنا الجرداء يسير البدوي عارياً حافياً جائعاً ولا من يتراأف عليه .

فتكلمي ايتها الحرية وعلمينا .

نعاجنا ترتعي الاشواك والحسك بدلا من الزهور والاعشاب ، وعجولنا تقضم اصول الاشجار بدلا من الذرة ، وخيولنا تلتهم الهشيم بدلا من الشعير .

فهلمي ايتها الحرية وانقذينا .

منذ البدء وظلام الليل يخيم على ارواحنا فتى يجيء الفجر ؟ من الحبوس الى الحبوس تنتقل اجسادنا ، والاجيال تمر بنا ساخرة ، فالى متى نحتمل سخرية الاجيال ؟

ومن القيود الى القيود تسير ركابنا فلا القيود تفنى ، ولا نحن تنقرض فالى متى نحيا ؟

ثم يأتي بطل جبران على ذكر جميع مراحل العبودية التي شهد لبنان ويلاتها فيقول :

من عبودية المصريين ، الى سبي بابل ، الى قساوة الفرس ، الى خدمة الاغريقيين ، الى استبداد الرومان ، الى مظالم المغول ، الى مطامع الافرنج ، فالى اين نحن سائرون ، ومتى نبلغ جبهة العقبة ؟

من مقابض فرعون ، الى مخالب نبوختنصر ، الى اظافر الاسكندر ، الى اسياف هيرودوس ، الى براثن نيرون ، الى انياب الشيطان ، فالى يد من نحن ذاهبون الان ؟

على ظهورنا نقلوا الطين والحجارة لبناء الاسوار والبروج لتعزيز حمامم ، فحتى متى نبني القصور والصروح ولا نسكن غير الاكواخ والكهوف؟ والى متى نملأ الاهراء والخزائن ولا نأكل غير الثوم والكراث،ونحوك الحرير والصوف ولا نلبس غيرالمسوح والاطمار؟

بخبثهم واحتيالهم قد فرقوا بين العشيرة والعشيرة ، وابعدوا الطائفة عن الطائفة ، وبغضوا القبيلة بالقبيلة،فحتى متى تتبدد كالرمال امام هذه الزوبعة القاسية، ونتصارع كالاشبال الجائعة بقرب هذه الجيفة المنتنة ؟

لحفظ عروشهم وطمأنينة قلوبهم قد سلحوا الدرزي لمقاتلة العربي ، وحمسوا الشيعي لمصارعة السني ، ونشطوا الكردي لذبح البدوي ، وشجعوا الاحمدي لمنازعة المسيحي ، فحتى متى يصرع الاخ اخاه على صدر الام ، والى متى يتوعد الجار جاره بجانب قبر الحبيبة، والى مَ يتباعد الصليب عن الهلال امام عين الله ؟

اصغي ايتها الحرية واسمعينا ، التفتي يا امّ ساكني الارض وانظرينا ، فنحن لسنا ابناء ضرّتك .

تكلمي بلسان فرد واحد منا ، فمن شرارة واحدة يشتعل القش اليابس . ايقظي بحفيف اجنحتك روح رجل من رجالنا ، فمن سحابة واحدة ينشق البرق ، وينير بلحظة خلايا الاودية وقمم الجبال . بددي بعزمك هذه الغيوم السوداء ، وانزلي كالصاعقة ، واهدمي كالمنجنيق قوائم العروش المرفوعة على العظام والجماجم ، المصفحة بذهب الجزية والرشوة ، المغمورة بالدماء والدموع .

اسمعينا ايتها الحرية ،
ارحمينا يا ابنة اثينا ،
انقذينا يا اخت رومة ،
خلصينا يا رفيقة موسى ،
اسعفينا يا حبيبة محمد ،
علمينا يا عروسة يسوع ،
قوي قلوبنا لتحيا ، او شددي سواعد اعدائنا علينا فنفنى وننقرض ونرتاح .

لقد استعنا بنابغتنا جبران على وصف عصر الاقطاع الرهيب . وستكون هذه خطتنا في كتبنا التي نخص بها الرؤوس الاربعة : الشدياق ، وجبران ، وفرح انطون ، والريحاني . اما الرؤوس الثلاثة ، تتمة « سبعة رؤوس » التي وعدنا بها القارىء في كتابنا « الرؤوس »، فقد رأينا ان ندعها الآن . فاذا اتسعت رقعة الاجل تكلمنا عن اولئك الثلاثة العظام : ابن المقفع ، والجاحظ ، والبديع ، وإلا فحسبهم ما كتب عنهم .

لقد اشبع غيرنا هؤلاء الرؤوس الثلاثة تحليلا وتشريحاً ، ولعلهم لا يخسرون شيئاً اذا لم يسعفنا الاجل في تحقيق ما ننوي . اما هؤلاء الاربعة، وخصوصاً الشدياق، وفرح انطون، فما لهما احد غيري، وان كنت لا احد ...

اجاد جبران تصوير عصر « الشيخ عباس » القائم بلسان بطله

خليل الكافر ، ولكن القارىء الطمّاع يتطلب ، ولا شك ، تحديداً ادق ، وكلاماً اوضح .

ان عهد الاقطاع ابشع وصمة في جبهة تاريخ الانسانية . وقد وجد في لبنان كما وجد في جميع اقطار المسكونة ، ولكن لبنان سبق غيره الى النضال المستمر ، وظل يعمل حتى القى ذاك النير عن رقبته . فتوزعت فيه الثروة توزيعاً صحيحاً عادلاً ما ظفرت بمثله جاراته بعد . وان بقي هناك بضع بقع سوداء ... فستزول ، باذن الله ، في وقت قريب .

ماذا تريد ان احدثك عن هذا العصر ، عصر الشدياق ؟ انني ادع اميراً شهابياً يحدثك عن مظالم بني عمه قال :

« خرجت المغاربة الكامنون في الحوانيت على طريق كنيسة التلة (كنيستله بلسان اهل دير القمر) وقبضوا على الامير فندي وادخلوه البهو الذي كان مفتوحاً للبناء ، وعند وصوله الى قدام اخيه المير يوسف قتله ...

« وعند الصباح جمع الامير يوسف من كان في دير القمر من بني عمه وأخبرهم بما كان . وكتب الى بقية الامراء واعيان البلاد واخبرهم بواقعة الحال دفعاً للملامة عنه بقتل اخيه ... وكان الخبر قد شاع في البلاد والجميع انكروا ذلك على الامير يوسف وكرهوه لان ذلك لم تكن سبقت به العادة بين بني الشهاب . ولما رأى الامير يوسف كراهة البلاد له ، نهض ليلاً من دير القمر الى عكا ، ولم يتبعه احد من البلاد سوى خدمه والشيخ كليب نكد واولاده[1] . »

[1] تاريخ المير حيدر ، طبعة مغبغب ، ص ٨٣٨ – ٨٣٩ .

اما قطع الالسنة وسمل العيون فكان امراً هيّناً على الامير. جزّ الامير يوسف السنة اعيان كثيرين نذكر منهم الشيخ محمد القاضي الذي ظل يتكلم بعد ان قطع الامير لسانه. ونهج الامير بشير نهج عمه المير يوسف، فسعى بهذا الشيخ، محمد القاضي، وبغيره من «مناصب» البلاد فأذاقهم الموت. اما رائعة ملحمة تاريخه وشرها فهو مقتل ابناء باز، والتنكيل بابناء عمه الامير يوسف الذي اكل الحصرم بقتله اخاه، كما مر، فضرس هو ثم ابناؤه... اسمع كلام المير حيدر، وقد اختصصناه بذلك لما بينه وبين الشدياق «صقر لبنان» من علاقات ستضحكك ان شاء الله. كتب المير حيدر:

مصرع البازين – ذكرنا فيما تقدم من تاريخ الشوف ما كان من امر جرجس باز ابي شاكر، وكيف قام بخدمة الامراء اولاد الامير يوسف الشهابي، حتى اقامهم على ولاية البلاد في ايام احمد باشا الجزّار. ثم شاطرهم الحكم الامير بشير ابن الامير قاسم عمر الشهابي فاقتصروا على ولاية بلاد جبيل وما يليها. كانوا قاصرين في السن والرأي وكان جرجس باز مديراً لهم، بصفة خادم في القول، وبصفة مخدوم في العمل، لانهم كانوا تحت امره في كل ما يفعلون، وكانوا لا يصدرون امراً الا باذنه، حتى في ملابسهم، وتنزهاتهم، وغلمانهم، وخيلهم، وسلاحهم، ونفقاتهم. ولم يكن في ايديهم امر ولا نهي، حتى ولا خاتم يختمون به ما يكتب باسمائهم من رقاع الديوان، لان اختامهم كانت بيد جرجس باز، يكتب ويختم كما يشاء بغير اذن منهم ولا علم لهم. فكان لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون.

وكان هذا الرجل صادقاً، كريم النفس واليد، سهل الاخلاق، طيب الحديث، يأخذ لقاؤه بقلوب الناس فيميلون اليه... وكان متلافاً طروباً، يحب الملاهي والغناء، فلا يخلو محله من منشد الا نادراً... وكان فيه تيه واقدام، الخ.

كان اخوه عبد الاحد يقرب منه في هذه الصفات، الا انه لم يكن يجاريه في النباهة. وكان مسرفاً كثير البذخ في الملابس حتى كان يستبدل في اليوم خمس حلل كاملة من العمامة فما يليها. وطابت لهما الايام زماناً طويلا وعظمت منزلتهما، وكان لهما دولة زاهرة نضيرة، ومال اليهما كثير من عمد البلاد، فاستطالا، ولم يكن للامير بشير عندهما حرمة. وكان كثير من الامور يجري على غير رضاه، ولا يتمكن من دفعها، فكان يضمر السوء لهما.

الى ان يقول :

وهناك (اي في غزير) عند المير حسن عدوهما جرى حديث البازين بين الامير بشير واخيه الامير حسن ، فشكا الامير بشير لاخيه سوء تصرفها وجورهما فاتفقا على قتلها . وعقد اتفاق بين الامير بشير واخيه حسن والشيخ بشير (جنبلاط) وغيرهما من ارباب الكلام .

كان جرجس باز في دير القمر ، وكان اخوه عبد الاحد مع الامراء اولاد المير يوسف في جبيل ، فاتفق الامير بشير وحاشيته على ان المشايخ يسيرون الى جبيل فيقتلون عبد الاحد ، والامير بشير يقتل اخاه جرجس في دير القمر ، وجعلوا لذلك يوماً معلوماً (٥ ايار سنة ١٨٠٧ الموافق ٨ ربيع اول سنة ١٢٢٢) .

وسار الامير حسن بالمشايخ اليزبكية الى مدينة جبيل...هجموا على عبد الاحد فاطلق الرصاص على خطار المصفي فقتله ، وجرح الشيخ ناصر الدين العماد في يده ، واحاطت به الجماعة فألقى بنفسه من نافذة ، فادركوه وقتلوه ، ونهبوا كل ما وجدوه في داره وكان مقداراً عظيماً.وقبضوا على عرب الشلفون،والياس اده، والبعض من حاشية اولاد الامير يوسف . ونهبوا اسواق المدينة وبيوتها وغنموا الخيل والسلاح . وقبض الامير حسن في القلعة (قلعة جبيل) على اولاد الامير يوسف وهم : حسين ، وسعدالدين ، وسليم .

وفي ذلك اليوم نفسه دعا الامير بشير جرجس باز ليحضر اليه لاجل التفكر في بعض المهام ، فحضر وجلس عنده ساعة، ثم خرج الامير من مجلسه واغلق الباب، وامر الشرط بني زين الدين فدخلوا عليه وقتلوه . وفي الحال ارسل فقبض على يوسف بن ناصيف آغا الترك ، وامر بقتله ايضاً لانه كان من ارباب دولة جرجس باز . وضبط دار جرجس باز .

وكان لا يثق بان اخاه يتمكن من الدخول الى مدينة جبيل ، فركب من ساعته ومعه الشيخ بشير جنبلاط ... وبعد وصوله امر بتوجيه اولاد عمه الامير يوسف الى درعون وامر بسمل اعينهم - كياً بقضيب من حديد - فاستراح من ذلك النزاع ، وطابت له الايام .

وفي ٢٣ ايار رجع الى دير القمر فارتجت منه البلاد ، وخلا باله من كل معارض ومنازل ، وتأسفت الناس على ابي عساف جرجس باز لانه كان مقبولا بلطفه وكرمه، قاضياً للحاجات .

وجار الامير بشير بعد ذلك على اولاد الامير يوسف فضبط املاكهم ، واقام لهم نفقة يسيرة يعيشون بها كالصعاليك ، ومنعهم من ان يتزوجوا خوفاً من اعقابهم ، فلن

يأذن لهم بالزواج الى حين ١ .

قلت : سمح لهم حين وثق ان اولادهم لا يدركون عهده الاحمر فينازعوه البطش بالناس .

واولاد المير يوسف هم الذين اشتروا دار « الشدياق » في عشقوت سنة ١٨٠٩ واستوطنوها .

وقال الامير حيدر : وكان احدهم سعد (ابناء المير يوسف) خاطباً ابنة الامير حيدر احمد، ففسخ الامير بشير عقد الخطبة ، وزف البنت الى ابنه الامير امين ٢.

واحب ان ادون لك مشهداً آخر من هذه المأساة ، مأساة عصر الشدياق الاحمر . قال المير حيدر ان بال الامير بشير خلا من كل معارض ومنازل . ولكن لا ، فها هو قرن « عامية انطلياس ولحفد » يذر ليقدم لسعادة المير ضحية جديدة . فاسمع ما يقول مؤرخ « المقاطعة الكسروانية » عن هذه العامية :

« طلب عبد الله باشا من الامير بشير مالاً غير اعتيادي مقبوضاً حالاً ، فاعتذر الامير ان الرعية مضنوكة من ظلم الجزّار وجوره . فحنق الباشا ، ووجه العساكر الى حدود البلاط لطرد الامير منها ، وتحصيل المطلوب جبراً . فأذعن الامير واقترض من التجار مبلغاً ، وطلب من النصارى الاموال الاميرية قبل اوانها فضلاً عن زيادتها . فهاج نصارى المتن وأبوا دفع المطلوب ، وكتبوا الى الكسروانيين يستنهضونهم . واجتمع الفريقان في انطلياس ، واقاموا لكل قرية وكيلاً ، وكتبوا صك معاهدة على عدم

١ تاريخ المير حيدر ، ص ٩٠٦ — ٩٠٩ .

٢ تاريخ المير حيدر ، ص ٩٠٩ .

الدفع .

«قيل ان هذا الصك هو انشاء المطران يوسف اسطفان ، فأخذ الامير بشير ينتهز فرصة تمكنه من القبض عليـه ، فاختبأ المطران مدة في بلاد كسروان . »

قلتُ : عندنا في عين كفاع ، في دير مهجور يعرف بدير مار عبدا الحرش .

« ولما استصعب رضا الامير عزم المطران على مهاجرة لبنان ، وفعل ، فهرب ، فلحق به الشيخ يعقوب بن سمعان البيطار ، فأدركه عند نهر البارد واعاده ، واثقاً بوعد الامير بشير بالعفو عنه .

« ثم توجها الى دير القمر للوقوف على خاطر الامـير ، وذهب بمعيتهما الشيخ زعيتر بن راشد الخازن آملاً باصلاح حاله ايضاً .

«وقيل انـه عند وصولهم قدمت القهوة الى المطران والشيـخ زعيتر ممزوجة بالسم ، فمات الشيخ في دير القمر ودفن هناك . اما المطران فمات بعد قليل ، في ٢٠ تشرين الثاني ١٨٢٢[١] . »

هذا ما كان يرتكب في سبيل « خلعة » الولاية على لبنان ، والاحتفاظ بها . فما هي تلك الخلعة التي كان يبيعها باشوات صيدا ممن يغلي ثمنها ؟ ولهذا كان على الطامعين بهـا ان يدفعوا ثمنها من عرق جبين الشعب ، حتى صح بنا قول المثل اللبناني : من ذنبـه خناقه .

لست اكلف نفسي وصفها لك ، وحسبي ان ادون بعض فقرات من مرسوم عبد الله باشا الى الامير بشير فتعرف ما هي . فبعـد

١ المقاطعة الكسروانية ، ص ٢٤١ - ٢٥٠ .

ان كتب الامير بشير صك تعهد للباشا بدفع مبلغ الف درهم خلال شهرين ، كتب له الباشا هذا الرقيم :

« صدر مرسومنا المطاع ، الواجب القبول والاتباع ، الى افتخار الامراء الكرام ، مرجع الكبراء الفخام ، ذي القدر والاحترام ، الامير بشير الشهابي دام مجده الى الدوام ،

« والى الامراء ، والمقدمين ، والمشايخ ، ومشايخ العقل ، والعقال ، والمباشرين ، والوجوه ، وسائر الرعايا في جبل الشوف وكسروان بوجه العموم ، ليعلموا :

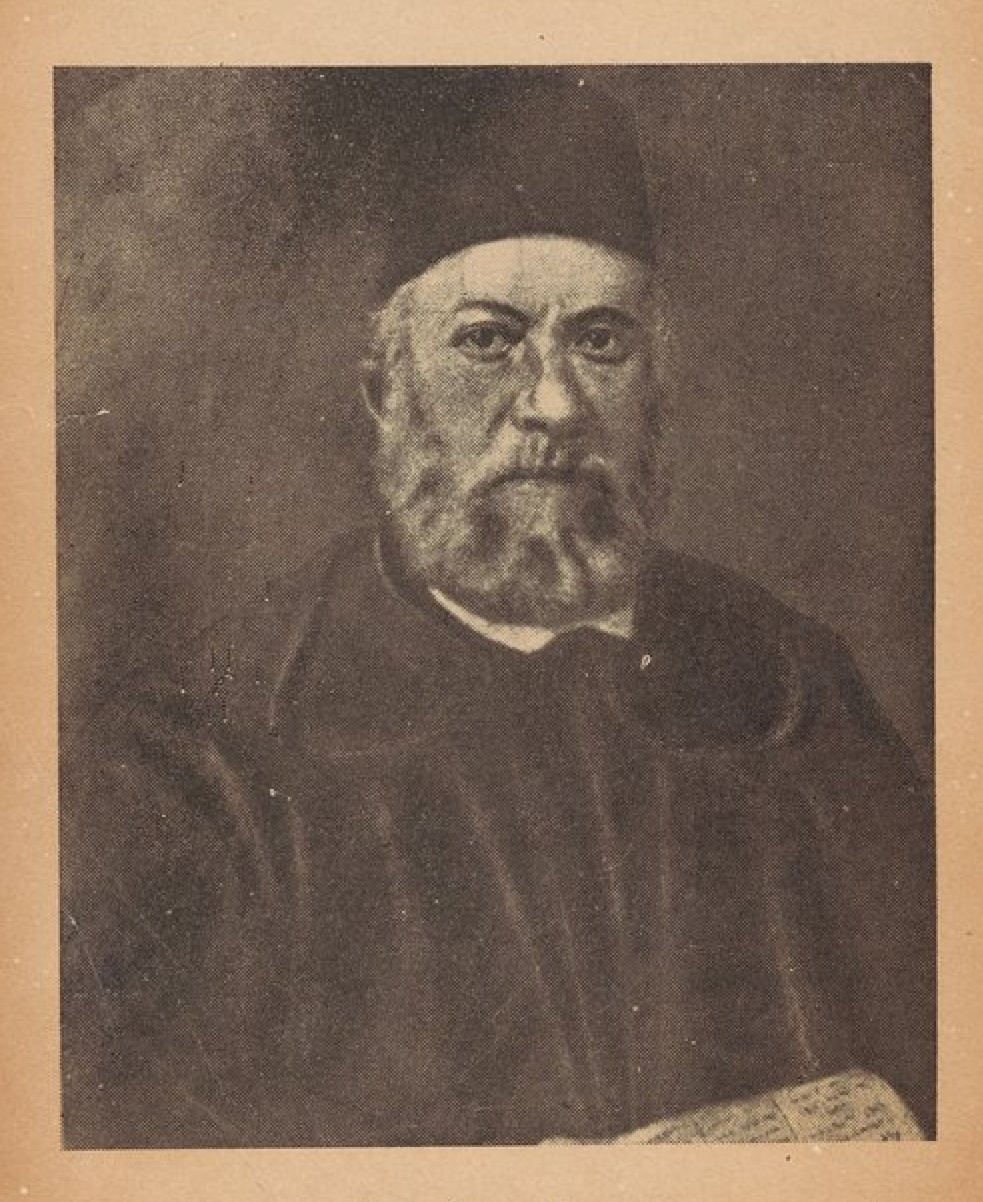
« انه لا يخفى عليكم صفو خاطرنا على الامير بشير المشار اليه ، ورضانا عليه بالمودة القديمة لاجل حسن قيامه بالخدمات الصادقة المرضية لدينا . وقد اصدرنا اليكم ، قبل هذا ، مرسوماً من ديواننا اشعاراً بذلك . والآن تأكيداً لاشهار تمام رضانا وميلنا القلبي اليه ، قد امرنا بتوجيه خلعة الرضا من لدننا اليه ، وهي :

« جلد سمور من ملابسنا ، وعلبة مجوهرة ، عن يد قدوة الاماثل والاقران خزندارنا حالاً شاهين آغا ، زيد قدره ...

« فكونوا في طاعته وتحت اوامره . فليكن معلوماً عندكم جميعاً توجيه رضانا وصفو خاطرنا على الامير الموما اليه ، وان شاء الله لا ترون منا إلا كل ما يسرّ خاطركم ويقرّ نواظركم الخ[١] . »

وكان الامير يلبس هذه الخلعة (كل سنة ، طبعاً بعد دفع المبلغ المرقوم ...) في احتفال يقيم البلاد ويقعدها ، ويقول شعراؤه في ذلك ما يلبسون ، وهكذا دواليك ، فلا تنتهي الخلع ما دامت

١ تاريخ المير حيدر ، ص ٩٥٣ .



احمد فارس الشدياق

يد الامير طائلة وغير مكثور عليه ، ولا من يغلي ثمنها ويزيد فيها ، فتتم له الصفقة ويهنئه بها شعراؤه ، ولا يقصرون .

واذا شئت نموذجاً من ذلك الشعر فدونك شيئاً مما قاله شاعر الامير بطرس كرامه في خلعة عام ١٨١٣ :

والبشر عم وقد زهت　　بالعز كل الناحيـة
وهدية التمليك قد　　وافت بنص هادية
وسما الهنـاء بخلعة　　لثبات حكم وافيـة

ثم يقول في « خلعة » عام ١٨١٤ :

بسم السرور فسرت الاحياء　　وسمت بسامي سعدك العلياء
وتزينت « بخلاع » عزك رتبة　　انت الهناء لها وانت منـاء
بسمت ثغور النصر لما اقبلت　　تُهـدِي اليك الحلة الحسناء
فتدللي يا تحفة العليـاء في　　روض البشير فقبلتـك اباء

ومما يقول ، من قصيدة طويلة ، في « الخلعة » التي جاءت بعدها :

لله لبنان اذ شرّفت قمّتـه　　باخمصيك فأضحى مورد الامم
ما زرت ربعاً ولا امسيت في بلد　　إلا وأصبح خصباً موضع القدم
لو زرت بحراً غدا عذباً لشاربه　　وفاز راكبه بالامن والسَلَمِ

ثم يتخطى الى وصف عكاء فيقول في وزيرها مانح « الخلعة » :

سمت بخير وزير قد سما « اصفاً »　　اذ هو سليمان هذا العصر بالحكم
والبستك ايادي عزّه خلعـاً　　قد شرفت بنوال اللثم كل كمي
ومذ اتيت بتقرير الولاية قـد　　احيا السرور قلوب الخلق كلهم [١]

هذا ما كان يُتغنى به في بتدين ليلة بهجة العيد السعيد ، عيد

١ تاريخ المير حيدر ، ص ٩٣٦ - ٩٣٧ .

خلعة « جلد سمور من ملبوسنا » حتى اذا ما انتشر النهار طار عسكر « الهوارى » الى القرى والضياع ، وعلا صراخ الايتام والارامل والمساكين : الامير يريد ان يسدد حساب ثمن « الخلعة » السنية ، فيفرض الضرائب السخنة على الرعية ، بينما كان شاعره يقول فيه ما قال ، وما شكر السوق الا من ربح ...

وكثيراً ما كان يرتدي الامير الخلعة مساء ويخلعها صباحاً . فبينا هو الآمر الناهي اذا بالعساكر تداهمه لتزحزحه عن مكانه ، وتطرده من البلاد التي نام على انه الآمر المطاع فيها ، فاذا به الشريد الطريد .

تلك كانت حال امراء لبنان ، ما عدا فخر الدين وبشير بيت الدين ، فانهما في آخر عهدهما قد استأثوا بالخلعة سنين . اما الشعب فكان يئن ويطن ، يدبر المؤامرات في الخلوات . فاذا بالرؤوس طاحت وصبغت الارض بالدماء ، وانتشرت الجباة في طول البلاد وعرضها تجمع الاموال للغالب ليسدد ما يطلبه منه الباشا ، والويل له ان استمهل . وقد يمهل الامير اذا رهن عند الباشا اولاده ، او احد مدبريه كما كان يرهن سعد الخوري وبطرس كرامه وغيرهما . وقد تذهب هذه الرهائن ضحايا بريئة اذا عجز المير عن جمع المال وتأديته .

وكثيراً ما يحدث ذلك ، حين تثور الرعية على الراعي ، وينهض للامر امير جديد ميسور اكثر منه ، فيركب التخت ويطرد صاحبه الذي قد يعود في الغد اذا استرضى الباشا . وكثيراً ما كان يتفق رجال الحزب المعارض ويدفع كل منهم مبلغاً من المال ليشتري « الخلعة » لامير ما .

كانت النفوس ارخص متاع في هـــذا العصر . يرخي الامير لخصمه العنان حتى يجمع ما يجمع من اموال العباد ، حتى اذا رآه قد سمن واستدارت اليته ، نحره وصفى امواله ودمه ، واستولى على عقاره وشرد اولاده – كما سترى في ترجمة الشدياق – هذا اذا لم يقتلهم . لم يكن الاخ يرحم اخاه ، والزعيم لا يخلص لزعيم آخر . ذئاب غرثى كل واحد منهـا يحدث نفسه بصاحبه ، والويل للسليم الطوية ، فانه يؤخذ عـلى غرة . عصر ارهابي شريعته قوة وغدر ، وسنته نهب وقتل . لا يعطى الشعب إلا ما يعطى الخروف المعلوف ليسمن .

قلت يعطى ، استغفر الله ، فهناك اخذ لا عطاء ، يطوّل له فيرعى حتى اذا حان وقت الذبح بسمل الامير وذبح . وبدعوى الخيانة والتآمر ، كان يمتلك الامير دور العباد ، وعقاراتهم ويشرد اهلهـا . ثم يرضى « الراعي » فيعود القطيع الى مرعاه آمناً الى حين .

سلسلة من الاستبداد يجررها الحكم المطلق وراءه ، تمتد حلقتها الاولى من اسطمبول ، لتتصل بالحلقة الثانية في صيدا او عكا . اما الحلقة الثالثـة ففي دير القمر وبتدين . وهي الكلاّبة المنطبقة على رقاب الشعب اللبناني ، والشعب اللبناني لم يتعود الانقياد والخنوع ، فكان يحاول كل ساعة تحطيم اغلاله والقضاء على جبار الاقطاعيين وخاتمهم الامير بشير الثاني . ولـكي نقدم صورة تؤيد ما زعمنـا لك عن حال الولاية ، فلندع التاريخ يتكلم .

قال مؤرخ المقاطعة الكسروانية المار ذكره :

وسنة ١٧٩٠ تعصب اهل البلاد على الامير بشير شهاب الوالي وطردوه من دير القمر ونصبوا عوضه الامير قعدان والامير حيدر . فارسل الجزار العساكر لمحاربة اهل

البلاد ، فاشتدت الحرب بينهم في مواقع عديـــدة ، افضت الى اضرار وفيرة ، واهوال ومخاوف مهولة ، واهراق دماء كثيرة ، ونهب وسلب، وحريق قرى، لان هذه الحركة استدامت (دامت) سنة وخمسة اشهر . وقتل من اهل البلاد نحو الف وثلاثمائة قتيل ، ومن عسكر الجزار نحو الفين وخمسماية قتيل ، واخيراً كانت النصرة للعساكر اللبنانية ، وكانت نهاية هذه الحركة سنة ١٧٩١ .

وفي سنة ١٧٩٤ احتدم الجزار غيظاً على الامير بشير فاستحضره الى عكا مع اخيـه الامير حسن وسجنهما وانعم بخلعة الولاية على اولاد الامير يوسف .

وسنة ١٧٩٥ رضي احمد باشا الجزار على الامير بشير واخيه الامير حسن بدفعة زائدة عما دفعه اولاد الامير يوسف ، وارهن الامير حسن عنـده في عكا ابنه الامير ابراهيم ، فاطلعهما (اي الاميرين بشير وحسن) الجزار من الحبس ، وخلع عليهما خلعة الرضا ، وخلع على الامير خلعة الولاية على البلاد واصحبه بعسكر لطرد اولاد يوسف ١.

قد رأيت ، قبل ان اكتب هذا الفصل ، ان ازور دير القمر وبتدين عاصمتي الحكام الاقطاعيين ، لاستعيد نظراتي القديمة وأجدد ما محت الايام من طلول الذكريات ... فدير القمر كتاب لبنان الاقطاعي المدوّن بالازميل والشاقوف ، والبيك والدردبيك ، فحيث تطوف في تلك المدينة تنهض اطلاء اشباح ذلك العهد الرهيب من كل مجثم : فهنا قتل الامير بني فلان الستة ، واحداً إثر واحد . دخلوا السراي وما خرجوا .

هنا قتل « المنصب » الفلاني ، دخل آمناً مطمئناً ، فافترسه الاسد الجالس سعيداً ، تجلله خلعة الجزّار او غيره من باشوات صيدا او عكا . قد تقشعر مثلي ، ان كنت ممن قرأوا تاريخ احكام هذا العهد ، وقد تلمس رأسك لتفتقده بعد خروجك من السراي ، مثلاً .. وقد تتصور المجاعة متى اشرفت على « الخرج » . واذا وقفت حيث كانت « المصبنة » تتذكر كيف يقوض الدولة جشع الحكام

١ المقاطعة الكسروانية ، ص ٢١٣ .

وطمعهم . ان « المصبنة » هي التي دهورت الامير من اعالي شماريخ بتدين الى جزيرة مالطة . فشروط الثائرين عليه عام ١٨٤٠ كانت هذه :

١ً – دفع مال واحد :

٢ً – عزل بطرس كرامه .

٣ً – وضع اثنين من كل طائفة في ديوانه .

٤ – رفع السخرة بنقل الفحم المعدني (فحم الحجر) من قرنايل .

٥ً – ابقاء السلاح للبنانيين .

٦ً – اطلاق حرية شراء الصابون .

كان الامير محتكراً الصابون ، والويل لمن يغتسل بغير صابون سعادته ... ولا تنس « مطحنته ، » فقد ضج الشعب من جور الطحّان ، فغيّره لهم مرات وظلت الحال على ما كانت عليه . فقال احدهم في ذلك الزمان هذه الكلمة المأثورة : ما النتيجة اذا غيّرنا « القاروط » وما غيّرنا الكيلة ؟ فاوصى الامير بتغيير المكيال ، ولكن حين لم يبق على خمير الشعب طحين ، وطفح كيل الشعب فثار .

لقد جرتنا « المصبنة » الى هذا الاستطراد لانها في دير القمر . فلنعد الآن الى ما توحيه الينا تلك الآثار عن هؤلاء الجبابرة الذين حكموا البلاد بالارهاب ، وازاحوا عن دربهم اخوانهم واولادهم وابناء عمومتهم ، واكثر « مناصب » البلاد الذين كانوا يشكلون خطراً على « التخت » .

كان الامير فخر الدين يقاتل ، ولكنه قلما اغتال او غدر .

روى لي احد مشايخ دير القمر اخبار فخر الدين مع اعدائه آل سيفا الاكراد، وكيف اقسم الامير فخر الدين وبرّ بقسمه، قال:

بعد وقعات تصالح فخر الدين مع آل سيفا وصاهرهم، ولكن المصاهرة ما نقت القلوب، والسياسة لا تراعي في المنام خليلًا. سمعت بنت فخرالدين، زوجة حسين باشا. سيفا، استهزاءً بقدّ ابيها فقالت زجلًا، كلفت بنقله احد ابناء الشوف العابرين بعكار، فنقله الى ابيها، قالت:

عيّروني بقصرك، قلت عود التبر
والعنق عنق الغزال بالطول شايل شبر
قولوا لاهل الذكا، قولوا لاهل الفكر
ان القلم يجمع الدنيـــا وطـولو فتر

ولما بلغ ذلك فخر الدين قال زجلًا ايضاً:

نحنـا زغـار بعـيون العدو كبـــار
انتم خشب حور ونحن للخشب منشار
وحق طيبه وزمزم والنبي المختـــار
مـــا بعمّر الدير الا من حجر عكار

ثم هاجم بني سيفا رداً على إغارتهم على الشوف، فحاصر قلعة الحصن، وهدمها، وجلب الحجارة من قلاع عكار، وهي الحجارة الصفـراء في « الخرج » وفي جميع بنايات بني معن. وقد دلني عليها صديقي الاستاذ كرم البستاني حين زرنا تلك القصور جميعها حتى بيتي المعلم بطرس كرامه ونقولا الترك.

وانتقلت ثاني يوم الى العاصمة الثانية، الى بتدين المير. لقد عرف اللبنانيون سلالة الامير بشير بامراء بتدين، وفي ذلك يقول

طنوس الشدياق خاتماً تاريخه الرصين :

وفيها ، اي سنة ١٨٥٤ ، صدر امر الدولة برجوع حفدة الامير بشير عمر الى لبنان ، وكانت مدة غياب امراء بتدين اربع عشرة سنة وثمانية اشهر وعشرين يوماً [١] .

كانت بتدين المير بيت الدين والدنيا ، فعندما بسط الامير بشير سلطانه على الجبل واستقل بالولاية مشت السلطتان ، المدنية والدينية ، جنباً الى جنب . امير اقطاعي جبار عنيد ، وبطرك جسور مهاب من سلالة اقطاعية اشتهرت بالسيف ، وحمت ذمار البطريركية في « يانوح » حقبة من الزمن ، وكلا السيدين الوالي الشهابي والبطرك الحبيشي من مواليد كسروان ، بل غزير ، قصبة المقاطعة الكسروانية . كلاهما اقطاعي دكتاتوري الطبع ، فلا عجب اذا دعم احدهما الاخر .

ان مهارة « سعادة المير » في الصيد أوحت اليه تخطيط عاصمة امارته الجديدة في تلك النقطة الاستراتيجية . كانت دير القمر مقر من انتزع منهم البشير امارة لبنان . ولكن دير القمر قد تؤتى على غرة ، والحرب خدعة ، فلا يرى سيدها مهاجميه الا حين دخولهم اليها . « فالدير » قلعة طبيعية قائمة على كتف جبل فوق وادٍ عميق ، تعلوها قمم تصلح متاريس للمعتصم بها فيقذف منها عدوه بما يتيسر له من وسائل الدفاع ذلك الزمان .

كانت وكر « مناصب » البلاد الذين يشاغبون دائماً ويدسّون ، وقد طال النزاع بينهم وبين المير وأسلافه حتى حطّط سعادته

١ تاريخ اعيان لبنان ، ص ٧٢٠ .

بتدين فجاءت كداموس الصياد . ومن محاسنها « الاستراتيجية » انها على شفير الهاوية . فهي كالمرقب ترى منها مرابض الاعداء وجموعهم الزاحفة ، ولا تؤتى على غرة الا اذا غفل صاحبها ، وهل يغفل من كان في داره من الاعوان المقيمين ببابه زهاء ثلاثة الآف رجل ، ومن الخيل مئات ، ومن الاعتدة ما لا يحصى ؟ كما ان موقعها في السطة من القلادة والنقطة من الدائرة كما قال تاجر المقامة المضيرية عن داره ... تقوم من حولها مرابض مناصب البلاد ، الذين كانوا دائماً يتربصون بالامير الدوائر ، يكيد لهم ويكيدون له حتى افنى ببطشه ودهائه وكيده الكثيرين منهم ، ولم يرحم حتى انصاره واعوانه ودائنيه حين كان يشد الباشا الزيار ، ويتهدده بالطرد ان لم يدفع المبلغ المرقوم .

فهذا الجزار يقتل المير يوسف ارضاء لخاطر ابن اخيه الامير بشير . ثم يسعى بشير الديه فيريحه من خصمه الكبير الشيخ بشير وغيره من مناصب البلاد الذين كانوا سيفاً مصلتاً فوق رأس المير يخشى على دولته منهم كل ساعة .

كانت بتدين مزرعة صغيرة لا شأن لها ، حتى اشتراها الامير بمال زوجه الارملة . ارسله عمه « ليصفّي » مالها ، فاستولى عليها وعلى مالها .

وشاء الامير فاستحالت اكواخ بتدين قصوراً . جاءت صورة مصغرة عن قصور الف ليلة وليلة . غادر الامير مسقط رأسه غزير لا يحمل ثروة غير همته وعصاميته وبعض حوائج لا قيمة لها ، ترافقه في هذه الهجرة البائسة خادمة ورثها عن ابيه وكانت

له كالمربية ، حتى اذا جلس على سرير إمارة لبنان ، ملك ما شاء من عقار ، وجمع ما اراد من مال ، فبنى قصره الشهير ، ثم شيد لبنيه قصوراً شاهقة ، ولم تعدم بنته « سعدى » قصراً منيفاً يعرف حتى اليوم « بالمقصف » .

ورأى الامير ان حمامات قصوره التي لا تضاهيها حمامات قصور الشرق محتاجة الى ماء غزير ، فجر اليها مياه نهر الصفا . وصفا الزمان للامير الحلاب الذي لم يرحم رعيته ، فحرّم وحلل الاموال ، وحتن واهدر الدماء .

وهكذا دانت البلاد لسراي بتدين زهاء ربع قرن . شعب يشقى وامير يسعد ببلاط ملوكي لم تنقصه الشعراء الذين يمدحون متجاهلين آلام الرعية . كان زائر بتدين لا يطمئن الى العافية إلا بعد رجوعه بايام وشهور ، وخصوصاً اذا كان ممن نال حظوة في عيني سعادته ، وسقاه من قهوته تلك ... ان لله جنوداً من العسل ...

ان بتدين اخلد صفحات تاريخ لبنان الحديث ، لولا تلك البقع الحمراء التي تشوه ، في نظري ، تلك الابهة وذلك الجلال . دخلتها مؤخراً بعد ما عاد الى القصر بهاؤه ورواؤه . وعندما قفزت المياه من النافورة وشمخت الى العلاء منتصبة كعمود من البلور ، تذكرت مجد العباسيين وبركة المتوكل ، وشتان ما بينهما في ارتفاع الماء في الفضاء . قد رأيت من عظمة قصر الامير ما كبح من جماح قلمي ، فالرجل بنى وترك . ظن انه يبني ويترك لاولاده ، فاذا بمال الشعب يعود الى الشعب ، وصح قول المثل : الحق يصرخ نحو صاحبه . لقد ترك هذه الآثار الباقية ، وترك الى جانبها قصصاً

كالاساطير تدل على عدل اهوج ، واستبداد رامح جامح ...

قال دليلي : هنا كان يجلس الامير للمظالم . فعرتني قشعريرة . ولما انقضى حلم اليقظة وزال الكابوس ، قلت في نفسي : ولا ظالم إلا سيبلى باظلم . فلو سمع الامير صوت شعبه وأصغى اليه لاستراح من شناء مالطه وبؤسه في اسلامبول ، ولكنه الطمع الذي ضرّ وما نفع .

وجدت لي الذكرى الشيخ رستم بن مرعب الخازن الذي قتل كاهناً خطأً ، فقطع الامير يمينه ، فتخيلت الدم يتدفق على البلاط ، ورأيت بعين المخيلة رجال الامير ، يحاولون كيها بالزيت الحار ، وهو يأبى عليهم ذلك ، مفضلاً الموت على الرجوع الى كسروان بيد واحدة ، فمات [١] .

وعندما هبطت الى الحمامات الغريبة العجيبة قلت في نفسي : اي ادران تغسل هذه الحمامات ؟ اتغسل يا ترى تلك الدماء التي صبغت « غنبازه » الابيض الذي وصفه لامرتين ؟

صور وذكريات ، وعالم من الاشباح كان يظهر لي ويتراكض امامي هنا وهناك في ابهاء القصر ، وفي كل بناء عليه طابع عهد الامير الرهيب .

ولو لم استرح قليلاً في غرفة الامير موريس شهاب ، احد احفاد هؤلاء الامراء ، لما ارتفع ذلك الكابوس عن صدري ، ولما قابلت الرئيس الداهية . قلت في نفسي : سبحان من يغير ولا يتغير . كانت بيت الدين مفزعة رهيبة منذ قرن ، فبشير شهاب وحاجبه

١ المقاطعة الكسروانية ، ص ٢١٥ .

ثقيل يبغض ويخشى ، وبشاره الخوري طلق المحيا يحب ويونس . لقد ذهب زمن الاستبداد وجاء عصر الشورى ، وشتان مـــا بين العهدين ، عهد بشير وبشاره !

صان الله لبنان !

كان حكم المالطي طور احتضار حكم الاقطاع في لبنان ، فظل الجبل يناضل حتى القى ذلك النير . وليس ما نحن فيه الآن الا خلاصة جهاد قرن .

صان الله استقلال لبنان !

انني امسك القلم الآن ، فليس هنا مجال وصف ما رأيت ولمست ، وما اوحت اليّ زيارة بتدين اثناء وجود سيد لبنـان الدستوري على عرش اميره العظيم ، فذاك لا محل له هنا .

قد يقول القارىء الكريم : وما علاقة بتدين بالموضوع ؟ وما شأن البطرك في كتاب يكتب عن احمد فارس الشدياق ؟

قلت : أما سمّينا الرجل صقر لبنان ؟ أسميناه هكذا عبثـاً ؟ فالشدياق طريد هذا العهد السعيد . ولولا هاتان السلطتان الجبارتان لما فر تلك الفرة التي كانت كلهـا خيراً وبركة على اللغة العربية وادبها .

امهل عليّ قليلاً ، فالعجلة من الشيطان . ان لقصر بتدين يداً على النهضة الادبية . وحسب الامير حسنة ان بطانته كانت خير قماش في السوق . لم تكن الحـال في عهده كما هي اليوم في جميع دول الشرق . لم يبعـد الامير رجال الفكر والقلم عن حضرته ، بل كانوا جميعاً يحيطون به احاطة الهالة بالقمر .

كان خيرهم عنده وادناهم منه اكثرهم علماً وادباً . لقـد آثر

الرجل ذوي قرباه واخصاءه وابتلع ثروة البلاد ليصون كرسيه ، ولكنه كان حصيفاً فقرّب منه نوابغ عصره فسد افواهاً كثيرة ، واظهر انه يقدر العلماء ويحبهم وان كان لا يحب الا نفسه ... فكان من الراجين .

الصورة الدينية

نشأت الطائفة المارونية نشأة قومية ، باسم الدين ، شأن جميع الملل والنحل في سالف العصر والاوان . فكان مارون الذي ينتسبون اليه زعيماً . وقد رأيت بعيني صورة له قديمة بكنيسة ضيعتنا كتب تحتها : الانبا مارون زعيم الطائفة المارونية . والبطرك الماروني الاول ، يوحنا مارون ، كان قائداً او محارباً ، ومعنى البطرك القائد .

اقول هذا متوسلاً بذلك الى تعليل ما اشتهر به الموارنة من خضوع وطاعة وانقياد لرؤسائهم الدينيين . ولكن هذه السلطة الدينية اضمحلت تقريباً في القرون الوسطى ، ولم يعد للبطرك ذاك الحول والطول كما سترى . فالبطاركة الاول – من البطرك الرابع حتى الحادي والعشرين – كان مقرهم في دير سيدة يانوح . كانوا يعيشون عيشة تقشف ونسك، لا يعنيهم من شؤون الطائفة اكثر مما يعني اعيانها من تدبير الشؤون المدنية . وكان هؤلاء الزعماء يحمون هؤلاء الرؤساء الدينيين ويناضلون دونهم . ثم انتقل الكرسي البطريركي من يانوح الى ميفوق وجوارها حين جلا عنها الشيخ حبيش – جدّ الحبيشيين – واقام في غزير .

وبداعي هذه الحماية التي لم يكن منها بد لاستقرار البطريرك وسهره على ابنائه الروحيين ، امسى لهؤلاء الاعيان – وخصوصاً

الحبيشيين حماة البطريركية في يانوح – حق المشورة في تثبيت البطريرك الماروني. فكان الحبر الاعظم بابا رومه لا يثبته، اي يعترف به بطريركاً على انطاكية، مـا لم يوثق انتخابه اعيان الطائفة – الحبيشيين ثم الخازنيين فيما بعد.

لست ألقي الكلام على عواهنه، فهناك وثائق ثابتة تؤيد هذا الزعم. فقد طلب البطرك جرجس بن عميره من الكرسي الرسولي ان يثبته بدون موافقة المشايخ المذكورين فلم تجبه رومه الى رغبته، وعاد سفيره خائباً، فاضطر الى استرضاء المشايخ الخوازنة والحبيشيين.

ومات البطرك عميره الاهدني وخلفه البطرك يوسف حليب العاقوري الذي ابطأ عليه درع التثبيت ايضاً، فكتب الى الشيخ طربيه حبيش مستعيناً به، وهذه هي رسالته بحروفها :

الـبركة الالهية تشمل جناب حضرة ولدنا الشيخ طربيه حبيش ادام الله تعالى شريف وجودكم للدوام.

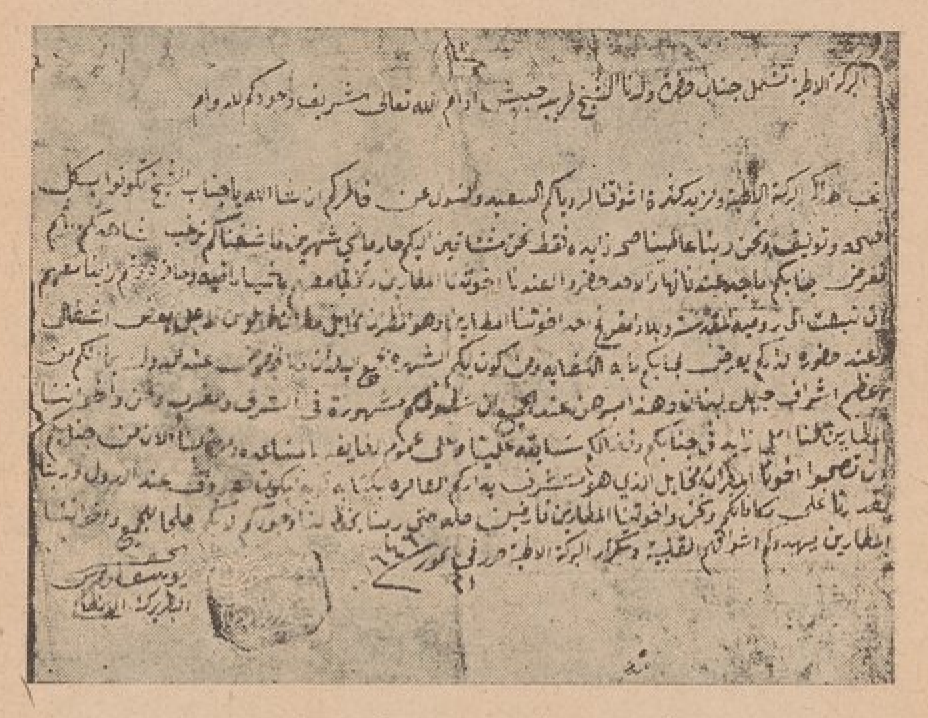
غب اهداكم البركة الالهية ومزيد كثرة اشواقنا لرؤياكم السعيد، والسوال عـن خاطركم ان شاء الله يا جناب الشيخ تكونوا بكل صحة وتوفيق. ونحن ربنا عاطينا صحة زايدة. فقط نحن مشتاقين اليكم. صار ماضي شهرين ما شفناكم نرغب مشاهدتـكم. ثم نعرض لجنابكم ما جد عندنا. نهار الاحد حضروا لعندنا اخوتنا المطارين وتخاطبنا معهم باشياء ماضية وحاضرة وتم رأينا معهم ان نبعث الى رومية المقدسة وبـلاد الفرنج احد اخوتنا المطارين وهو المطران مخايل مطران طرابلوس لاجـل بعض اشغال وعند حضوره لداركم يعرض لجنابكم ما به الكفاية. ومن كون لكم الشهرة بجميع البلدان وبالخصوص عند الدول بما انكم من اعظم اشراف جبل لبنان وهذا مبرهن عند الجميع ان سطوطكم (سطوتكم) مشهورة في الشرق والغرب ونحن واخوتنا المطارين لنا امـل زايد في جنابكم وفضالكم سابقة علينا وعلى عموم الطايفة بالمساعدة ومرغوبنا الان من جنابكم ان تصحبوا اخونا المطران مخايل الذي هو متشرف بداركم العامرة بكتابه قوية ليكون

معروف عند الدول وربنا يقدرنا على مكافاتكم ونحن واخوتنا المطارين فارضين صله (صلاة) حتى ربنا يحفظ لنا وجودكم لانكم ملجا الجميع واخوتنا المطارين يهدوكم اشواقهم القلبية وتكرار البركة الالهية ، حرر في ٢١ تموز سنة ١٦٤٦ * .

الحقير

يوسف بطرس

البطرك الانطاكي



* مجلة المشرق ، السنة ٢٩ ، العدد ١١ ، سنة ١٩٣١ ، ص ٨٣٢ .

درس الاب توتل اليسوعي هذه الرسالة وعلق عليها محاولا فك الغازها ، وقد قال عن قدميتها : « وليس من سبيل الى الشك في صحة نسبة هذا الاثر الى زمانه ومكانه ومؤلفه ، ولون الورق وسمكه وحبره وانشاء الرسالة لشاهد على قدمها . طول البطاقة ٢١ سنتمتراً ونصف ، وعرضها ١٤ سنتيمتراً ونصف .»

والرسالة محفوظة عند الشيخ فؤاد حبيش صاحب « دار المكشوف » بين اوراق الاسرة الحبيشية التي قدر له جمعها ، وعنها اخذنا الصورة الفوتوغرافية المنشورة بالزنك على هذه الصفحة .

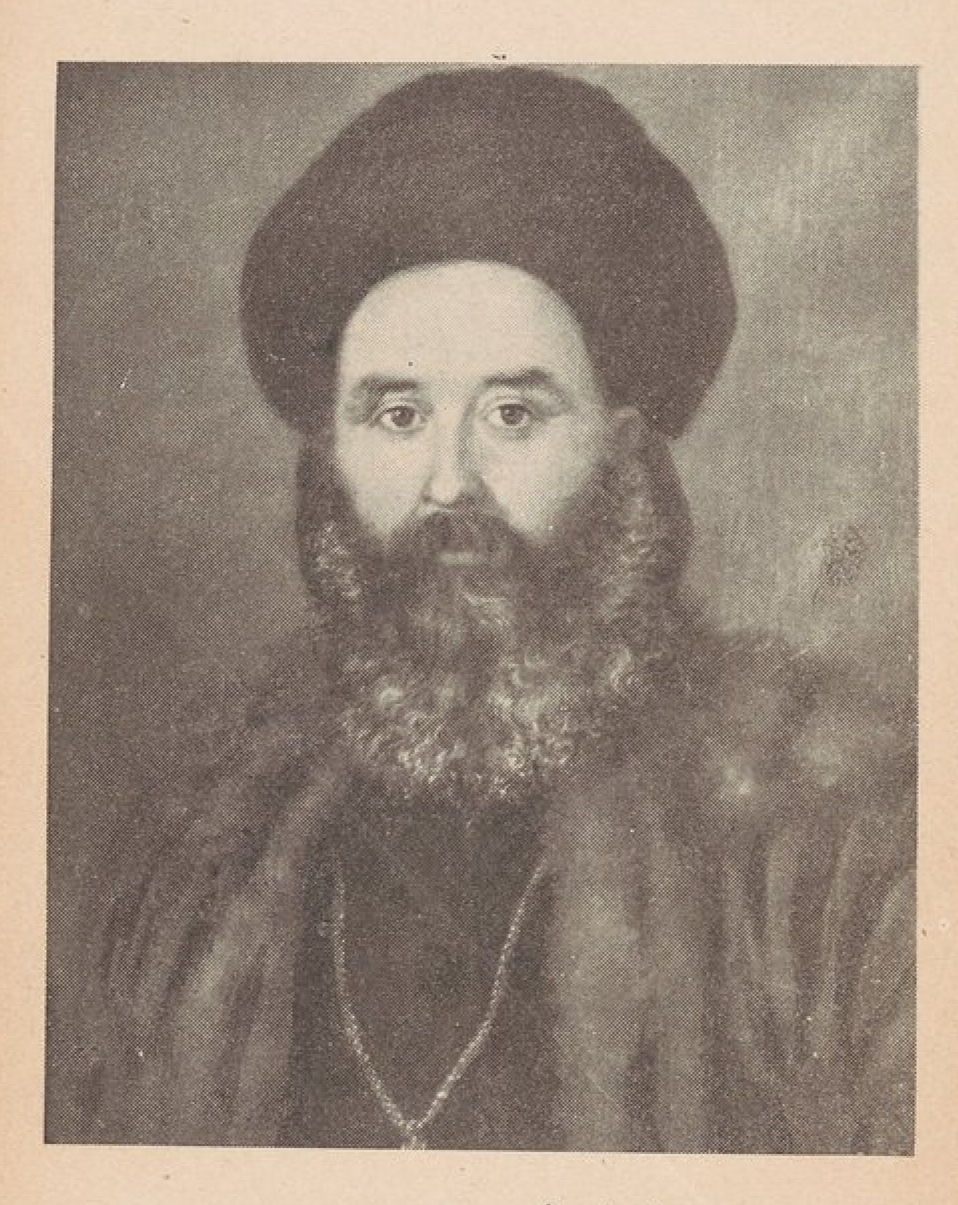
وبعد انقضاء اربعة وعشرين عاماً يحدث ما يؤيد قولنا : قال مؤلف « المقاطعة الكسروانية » :

« وسنة ١٦٧٠ توفي البطريرك جرجس السبعلي ، وبعد وفاته اجتمع مطارين الطائفة واعيانها في دير سيدة قنوبين وانتخبوا عوضه المطران اسطفان الدويهي . فاغتاظ الشيخ ابو نوفل الخازن من انتخابه الذي تم في قنوبين من غير حضوره ومشورته ، فاظهر عدم رضاه بانتخابه ورفض الرضوخ لرئاسته والاقرار بها . فارتبك البطريرك المذكور ومطارينه من مضادة الشيخ المرقوم لهم . فالتزم البطريرك ان يحضر من قنوبين الى كسروان عند الشيخ المنوه عنه قاصداً استجلاب رضاه . ولما شاهد الشيخ تواضع البطريرك العميق وذكاء عقله وعلامات قداسته ادى له رسوم الطاعة وبالغ في اكرامه [1]. »

ويظل هذا النفوذ العلماني في اطراد مستمر حتى نرى رومة تخاطب الزعماء والحكام وتكلفهم مهمات كنسية تتعلق بادارة البطرك والاساقفة . واخيراً امتدت يد الاقطاعية الى سيامة الاساقفة وانتخاب البطاركة . وظل الامر كذلك حتى زمن البطريرك يوسف اسطفان الذي توفي سنة ١٧٩٣ في هذا العهد الذي يعنينا امره .

كان يناويء هذا البطريرك خصمٌ من سلالة اقطاعية هو المطران مخايل الخازن . ولما كان هذا البطريرك من غير الاقطاعيين فقد تعصب له اساقفة من غير الاقطاعيين . فالتجأت رومة الى السلطة المدنية الاقطاعية لتنفذ اوامرها التي تخلع بها البطرك

١ المقاطعة الكسروانية ، ص ٩٤ .



البطريرك يوسف حبيش

يوسف اسطفان وتقيم مقامه نائباً بطريركياً هو المطران مخايل الخازن المذكور. ومن رسالة رئيس مجمع نشر الايمان المقدس يتبين هذا الالتجاء، وهذا ما جاء فيها :

« ولكن سيادتك (الخطاب موجه الى المطران رافائيل الحاقلاني) ترى ايضاً انها لمباشرة العمل لا تحتاج الى رفيق. فاقدم اذاً، دون ان تنتظر اشارة أي كان، على التعجيل بانفاذ المسألة، على اننا ننبيء سيادتك باننا في رقعة اخرى نعلم بذلك الامراء الحاكمين وبطانتهم، بل ايضاً اعلام اعيان هذه الطائفة الشريفة المشاهير أي السادة الحبيشيين والخازنيين، فالرجاء من حكمة سيادتك انك تحقق من وجه الكمال والسرعة الثقة التي لنا فيك لاجل انفاذ هذه المسألة. »

ولكن الامور لم تجر جرياً عادياً، فالتجىء الى الحاكم، فأصدر الامير يوسف مرسومين : الاول يوجب فيه انفاذ اوامر رومية بقبول نيابة المطران الخازني، والثاني يأمر المطارنة بحضور مجمع ميفوق. لا مجال لنشر المرسومين كاملين، فمن شاء الاطلاع عليهما فليرجع الى تاريخ البطرك يوسف اسطفان للاب بولس عبود، ولكننا نأخذ منهما ما يعني عملنا هذا، ويرينا اسلوب التخاطب بين رجال الدنيا والدين في ذلك الزمان، مؤيدين بذلك درسنا. وهذه هي رسالة المير يوسف الى القاصد الرسولي :

الى حضرة عزيزنا ومحبنا الاكرم البادري بطرس القاصد الرسولي المكرم سلمه الله تعالى.

اولا مزيد الاشواق الى رؤياكم في كل خير وعافية، وبعد مضت هذه المدة ولم نرى من محبتكم كتاب ينبئنا عن صحة سيادتكم انشاء الله يكون المانع خير. نخبركم بان حضر اوامر من رومية ومكتوب لنا في تأييد الاوامر السابقة وقطع ومنع من غير مراجعة

ولا مشاورة. وحاتمين على حضرة عزيزنا البطرك يوسف ان يحضر ليرد جواباً عن نفسه، وحاتمين ايضاً على حضرة عزيزنا المطران مخايل الخازن بان يكون وكيلا ويقيم مقـــام البطرك الى حين رجوعه ليرجع اوامر ثانية . من حيث ذلك يلزم الاوامر تمشي عـــلى صحتها حرفاً بحرف وكل من يعارض لا يلوم الا نفسه ، وحضوركم بقا لازم لهذا الطرف ليكون كل شيء في مباشرتكم بحسب مأموريتكم . ولا يصير لكم عاقة من الحضور ، وان شاء الله ما تشاهدوا الا كل شيء يسر خاطركم، ويد الجميع قاصرة عنكم ، فلا تفتكروا بشيء، لان اوامر جناب عالي القدر والشان الجليل المحترم البابا بيوس المكرم لام نفوذها والعمل بموجبها من غير ان ينقص من منطوقها حرف واحد ، ولا يصير عاقة نوكد على محبتكم بذلك والدعاء .

يوسف ب

واذا شئت ان تعرف اللهجة التي خاطب بها الامير اصحاب السيادة المطارنة ، فدونك هذه الفقرة :

ان من خالف ادنى امر من اوامر المجمع لومه عـلى نفسه ، ولم يقدر يعطي جواب ويندم حيث لا ينفع الندم بل يلزم الاتباع لها والسلوك بموجبهـا حرفاً حرفاً لا ينقص منها ولا جزء واحد ، وكذلك كلمن تعارض الوكيل عرفناه خاطرنا يفهمنا عنه حتى نؤدب الناس فيه يكن معلومكم الحذر من الخلاف .

يوسف م

وفي دعوتهم الى مجمع ميفوق كتب اليهم يقول :

واياكم احد منكم يخـل او يخطر في باله المعارضة يكون منفي من خاطرنا ويجري عليه قصاص بالغ ... ونحن عرفنا خاطرنا لحضرة عزيزنا المذكور القاصد ان يمشي حسب مأموريته ، وكل من اعترضه لومه على نفسه .

وعقد المجمع وتم كما امر سعادة المـير يوسف ، وذيل السادة المطارنة تاريخ انعقاده بهذه العبارة :

وفي ولاية سعادة افندينا الامير يوسف شهاب حاكم بلادنا الاكرم ادام الله عزه ونصره.

ميفوق ٢٨ تموز سنة ١٧٨٠ .

اما البطرك يوسف اسطفان المكفوفة يده فالتجأ ، بعد حين ، الى الشيخ سعد الخوري يشكو من تصرف الوكيل البطريركي المطران الخازني ، واليك بعض ما كتبه الى الشيخ :

بعد الترجمة ما خافي علم حضرتكم ان الكنيسة المقدسة من حين وقفت حضرة اخونا النائب المحترم على الطائفة قد صرفته بربع مداخيل البطركية فقط وابقت لنا الثلاث ارباع وسعادته (اي المير يوسف) ادام الله بقاه حتم ان ينعطا لنا ثلاث ارباع حسب اوامر المجمع وحضرتكم كفلتم لنا ذلك، وافهمتمونا اننا نقيم وكيل وانكم معونتــه ، وحضرته (اي الوكيل المطران الخازني) من ذاك الحين للان ما اعطانا شيء ولا شفنا شي .

ثم يقول بعد ان يشكو الفاقة في منفاه :

فوق هذا جميعه الدير في برية (دير الكرمل بحيفا) وكل شيء غالي ، والان قصرت يدنا وداق (ضاق) بنا الحال والمجال وما بقا لنا امل الا بغيرتكم وحسن دياناتكم ان تحصلوا لنا ثلاث ارباع المداخيل لان هذا حقنا... مرادنا يا ولدنا حباً في مخلصنا تجعلوا نظركم علينا في تحصيل الثلاثة ارباع من غير نقص، وما كنا نظن في خوته (المطران الخازني) يقصر معنا ويقسا في حقنا هل قدر لان صارت تحل علينا الصدقة، وهذا هو حق الله وشيء متوجب لنا . ما عادت الدعوة تحتمل طولة ولا محادفة بوجه من الوجوه . المرجو يا حضرة ولدنا لا يصير اهمال ، ولنا اتكال على الله وعلى غيرتكم انكم ما بتهملونا هل قدر ، نسأل الله ان يوفق احوالكم ويجبركم في حضرة ولدنا الشيخ غندور ، والبركة تشملكم واياه ثانياً وثالثاً .

حرر في ٢٥ ايار سنة ١٧٨٢ . الداعي لجنابكم

البطرك يوسف اسطفان

ويئس البطرك في منفاه فعاد من الكرمل ، فعلم برجوعــه خصومه الاساقفة ، فظنوا ان الشيــخ سعد يؤيده ، فكتبوا اليه كتاباً يفهم مضمونه من جواب الشيخ هذا ، وهاك بعضه :

بلغكم ان سيدنا البطرك متوجه لهذه النواحي وقلتم هذه بتصير قلقلة وبلبلة للطائفـة وموسعين الشرح بهذا المعنا . حضرة ساداتنا ، ما هي عظيمه قد ما انتم شايفينها ، نحن ما معنا خبر الا نهار هذا الثلاثه وصل اخونا بو عسكر لهذا الطرف وسألناه ما هو سبب مجي سيدنا ؟ حكا لنا السيره ان ما معه خبر بها من الابتداء حتى واجهه في عكا وسأله ما هو

الموجب للتوجه . كان جوابه للدير ليبرى حالي لان المكاتيب الذي اجتني من سعد طيرت عقلي ، وما كان يقنع بكتابة ولا يصدق في يامين، ولا كان يعفا عني ، التزمت ان احضر او اتبرر او اقتل . ما عدت اريد عيشي ان برزني برجع وبرتاح وان قتلني برتاح . حضرة ساداتنا ، هذه لا يكون لكم منها فكرة بعناية النادري (القاصد) ونفر (نظر) افندينا اوامر رومية تجرا على ايقاعها ... يا حضرة ساداتنا لا يكون لكم فكرة ، ولا تتريبوا في هذا كلياً ، واي من حكا من الطايفه سعادته بيكسر راسه ... ولا تنسونا من دعاكم ودمتم ».[1]

سعد الخوري

قال ناشر هذه الرسالة الاب بولس عبود : «لم اشأ ان ابدل حرفاً منها ، وان ملأتها الاغلاط صوناً لاصلها .» وانا اقول انني نقلت هذا كله لان مبناه يعني درسي كمعناه ، فسوف تسمع صراخ «الفارياق» وتعنيفه بني امه على هذه «الركاكة» . امهل عليّ قليلاً .

اما الشيخ سعد ، وان كتب ما تقدم الى الاساقفة ، فلم يتوانَ عن نصرة هذا البطرك الصلب الرأي . فقد توسل الى بابا رومة بما له من نفوذ وصيت حميد ، فاعاده الى مقامه كما يتضح من رسالة البابا بيوس السادس الى الشيخ سعد ، وقد ختمت بما يأتي :

«انه جزاء لطاعة البطرك ، واجابة لالتماس جمهور الاساقفة ورغائب الطائفة ، وتوصاة الامير يوسف الجليل والسامي الاقتدار ، وتوسلكم ؛ قد رد البطرك الى كرسيه وحقوقه»[2].

وبعد ان عاد الى هذا البطرك سلطانه عقد مجمعاً (مجمع عين شقيف) تحت اشراف غندور الخوري بالنيابة عن والده سعد الذي اولاه البابا حق تنفيذ الاوامر الرسولية وتأييد هذا المجمع .

١ الاحوال المحجوبة للاب بولس عبود ، ص ٤٥٩ .

٢ الجامع المفصل للدبس ، ص ٤٥١ .

وفي هذا المجمع الذي عقده هذا البطرك « الشعبي » رجع رجال الاقطاع عن عادات تمس السلطة الدينية . واليك ما جاء في (المحضر) الجلسة العاشرة لتعلم مقدار نفوذ الاقطاعيين ، وتضاؤل السلطة الدينية ، في ذلك العهد . ففي هذه الوثيقة يتنازل اقطاعيو الطائفة عما كانوا يمارسونه من استبداد فيقولون :

« كذلك قد عدلنا عن عاداتنا السابقة التي كنا نألفها في شأن رسامة المطارنة وتخصيصهم ببعض اسر أو اديار ، ولم يبق لنا حق بكل ما ذكر . واذا احد منا خالف نص هذه الوثيقة ونكث بالوعود التي حوتها ، فتعرض حجتنا على سعادة افندينا الذي يكون حاكماً وقتئذ ليقتص من المخالف . وقد قبل جمهورنا التأديبات والعقوبات التي تقضي بها الاحكام الكنائسية بحسب ديانتنا . » حرر في ٨ ايلول سنة ١٨٨٦ .

وقد وقع هذه الوثيقة المشايخ الخازنيون والحبيشيون وبيت الخوري صالح وبيت الظاهر وبيت الدحداح ومشايخ العاقوره ، ومشايخ جبة بشري وغيرهم من اعيان الملة[١] .

واخذ نجم البطركية في الصعود حين قلمت اظفار الاعيان . اما نفوذ البطركية الطاغي فكان في ضحى ولاية الامير بشير ، اي في عز دولته ، لما ارتقى الى الكرسي البطريركي بطرك من الاقطاعيين هو يوسف حبيش ، فحكم لبنان دينياً كما حكمه البشير مدنياً . كانا يتساندان ويتعاضدان في الشدائد ، فمن عصى صاحب الغبطة ادبه ابو سعدى ، وادبُ ابي سعدى مخوف . كان هذا

١ الجامع المفصل للدبس ، ص ٤٩٦ .

البطريرك جازماً جريئاً يتعقب كل من خالفه ولا يسكت عن العاصي ، بل يطرحه بلا شفقة في جب الاسد (الامير بشير) .

قد يقول واحد : وما تهمني كل هذه القصص والاخبار المحلية ؟ فنجيبه ان لها علاقة وثيقة بالشدياق ، فاصبر علينا واسمع — او اقرأ الفصل الذي تحب ولا تتعنت .

قال مؤلف المقاطعة الكسروانية في اخبار سنة ١٨٢٥ :

اذا كان من برهة قد حضر الى بيروت مرسلون بيبليشيون اي انجيليون (البروتستان) قصد الانذار في لبنان في شيعتهم ومعتقدهم الفاسد،فتصدى البطرك يوسف حبيش لمقاومتهم باشد غيرة ، وابرز ضدهم منشورين بهما ينبه ويحرض ويحتم على ابناء طائفته ليكونوا محترصين من غشهم وخداعهم . ففي المنشور الاول يحتم الحتم الجازم بكلمة الرب العزيز سلطانها على الجميع بان لا احد يقتني كتبهم أو يبيعها او يشتريها او يهبها او يطالع بها او يقرأ ، ولا باية علة وسبب كان . ثم يمنع الاشتراك معهم بالصلاة والتعلم في مدارسهم او مطالعة مؤلفاتهم وان الذي يخالف ذلك جميعه بجسارة، او يمنع نفوذ هذا المنشور، فان كان اكليركياً فليكن ممنوعاً بذات الفعل من التصرف بدرجته ، وان كان علمانياً فليكن ساقطاً تحت طائلة « الحرم » المحفوظ حله لسلطان البطريركي .

وفي المنشور الثاني يحتم على جميع ابناء الطائفة ان يتجنبوا البروتستان (التجنب التام في التصرفات والمعاطاة كافة سواء كانت بامور الديانة ومتعلقاتها ام بامور عالمية ، اي انه لا يصير مع هؤلاء الاشخاص لا بيع ولا شراء ولا قرض ولا استقراض ، ولا تعلم في مدارسهم حتى المفتوحة منها لتعلم القراءة البسيطة ، ولا احد يعلم بها اي علم كان ، وباي لغة كانت ويمنع « الاستخدام » عندهم — لا تنس كلمة استخدام ! — والتردد عليهم . ومن تجاسر وخالف هذا الحتم « يربط » ان كان اكليريكياً ، وان كان علمانياً يسقط في « الحرم الكبير[١] » — الحرم الكبير وما ادراك ما الحرم الكبير . يحرم على

١ المقاطعة الكسروانية ، ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .

الابن مخالطة ابيه ، والمرأة زوجها ، وهلم جرا .

وقام مطران في عهد هذا البطريك (المطران بطرس كرم رئيس اساقفة بيروت) ، فألف كتاباً فند فيه مزاعم البروتستان . فنهض لمجادلته والرد عليه شاب كان كاتباً في ديوان ذلك المطران . هذا الشاب من بيت الشدياق ، وهو اسعد الشدياق اخو احمد فارس واحب اخوته اليه . فاستدعاه البطرك الحبيشي الى قنوبين وظل هناك حتى قضى ، (ستقرأ بعض التفصيل لهذا الحدث الخطير في ترجمة الشدياق) ، فقامت قيامة اخيه فارس (احمد) وفرّ من لبنان ، ثم اوحت اليه هذه الفاجعة كتابة الفارياق ، وخواطر منثورة في جميع ما كتب .

قد نستغرب نحن اليوم ما فعله الحبيشي في سبيل مقاومة البروتستان ، في ذلك الزمان ، ولكننا اذا رجعنا الى الوراء نحو ثلاثمائة سنة ، رأينا البطريك يوسف حليب العاقوري ، الذي تقدم ذكره ، يفعل اعظم من هذا :

في الخامس من كانون الاول سنة ١٦٤٤ عقد هذا البطريك مجمعاً عرف باسم مجمع حراش (نسبة الى دير حراش في كسروان) ، ورشق بالحرم الكنائسي الكهنة الاجانب من لاتين وشرقيين الذين يقدمون على سماع اعترافات الموارنة ومناولتهم القربان المقدس من غير تفويض البطريك ، وحرم ايضاً الموارنة الذين يقبلون هذين السرين (الاعتراف والمناولة) من ايدي هؤلاء الكهنة .

ورفعت رومة صوتها محتجة على البطريك ، وارسل مجمع انتشار الايمان رسالة امر فيها ان ينذر بطريك الموارنة انه ما

كان له ولا عليه ان يتعدى حق الكرسي الرسولي ، ويرشق بالحرم الموارنة عند اخذهم الاسرار من مرسلي ذلك الكرسي[1] . والتقليد يروي لنا ان الموارنة لم يناهضوا البروتستان فقط ، بل قابلوا قبلهم الاباء اليسوعيين بمثل هذا الكره والمقاطعة ، وحالوا دون اقامتهم في بلاد جبيل – ابرشية البطريرك .

فلا بدع اذاً فيما فعله الحبيشي ، وهذا شرّ نتج عنه خير هو الفارياق الذي هو اول اثر ادبي لبناني يحل بحق محلاً رفيعاً بين كتب الادب العالمية .

اما الحبيشي فظل كما كان حاكماً في طائفته دينياً ، يسأله الامير العون في الازم . وقد تخلص هذا البطرك الجبار من الاقطاعية العلمانية فصار هو دكتاتوراً دينياً ، اذا صح التعبير . وبعد الحبيشي آلت البطركية الى اقطاعي آخر هو البطرك يوسف الخازن ، فلم يحدث حادث جلل في عهده ، بخلاف الذي خلفه – البطرك مسعد ، ابن عمة الشدياق وكاتب سر الحبيشي ونجيه الملازم له . فهذا البطرك قد تخلص من جميع حقوق العلمانيين وابى ان يلبسه الجبة شيخ من بني الخازن كما جرت العادة . وعلى عهد هذا البطريرك كانت ثورة اهالي كسروان على الاقطاع والتخلص منه . ثم تلت ذلك حوادث سنة الستين الدامية ، ثم نظام لبنان الطائفي ، فعظم شأن رؤساء الطوائف في لبنان واشتد انين كتّابه الاحرار وفي طليعتهم الشدياق .

لا سلطة إلا من الله ، هذا هو شعار رؤساء الدين . به يستقبلون

١ مجلة المشرق ، السنة ٢٩ ، ص ٨٣٨ – ٨٣٩ .

كل حكومة . وعـلى الحكومة ان تدعم سلطانهم ، وتستجيب طلباتهم . وقد يتعكر جو المحبة بين السلطتين ، فيؤدي ذلك الى اضطراب وقتي يزول بزوال صاحب الكرسي .

ان الطائفية صنّارة في بحر سياسة لبنـان فتصطاد الحيتان والدلافين ، يحق لنا ان نسميها « مرض العصر » في القرن التاسع عشر وما يليه ، فعاش شعب لبنان يشكو استبداد السلطتين معاً . يخفض صوته حين يشتد الغرام بين رجال الدين والدنيا ، ويعلو اذا تنافر العاشقان ... ولهذا ترى احرار ادباء لبنان يضجون بهـذه الشكوى ، ولا ترى من هذا إلا شيئاً يكاد لا يلمس عنـد ادباء الاقطار العربية الاخرى .

الصورة الادبية

جاءت نوبة صورة العصر الادبيـة . ولست اشك انك متوقد الذهن قد ادركت ، الآن ، لماذا نقلت لك تلك النتف من مراسيم المير يوسف ، ورسائل البطرك يوسف اسطفان ، والشيخ سعـد الخوري وغيرها . ما فعلت ذلك إلا لاحيطك علماً ببلاغـة الكتابة وفصاحتها ، قبل الشدياق ...

ان لغة الدواوين في هذا العصر كانت من ذاك الطراز ، وظلت كذلك حتى عهد المتصرفية . اني اذكر ، كما يذكر غيري ممن وقعوا على قصاصة من ذاك الانشاء « الديواني » ، تلك العبارة التي كان يكتبها المحقق العدلي ، ومـا المحقق العدلي إلا احد افراد الجنـد المعروف عندهم « بالضابطي » : الضارب فرّ هاربـاً ولم عاد صار اجراء القاء القبض عليه .

لست ازعم ان مراسيم المير يوسف ورسالة البطرك ومكتوب سعد صورة كاملة عن انشاء العصر . فقد رجعت الى كتب عندي ، كتب بعضها او طبع بالخط الكرشوني ، المعروف ايضاً بالماروني ، وهو اول خط استعمله اللبناني حين استعرب ، واستبدل بالعربية لغته السريانية . رجعت الى هذه الكتب ، واصغرها سناً قد بلغ من العمر عتياً ، فعمره يزيـد على مئتي سنة . وهو مطبوع بالحرف العربي ، وقد تكون ولدته امه (المطبعة) على رأس اخيـه

الكرشوني . ولكي ندقق ، ولو مرة في العمر ، في مثل هذا الموضوع نقول لك : انه اصغر من اخيه الكرشوني بثلاث سنين ، فبطاقة هويته التي اكلتها السنون تنبئنا انه من مواليد عام ١٧٤٠ . ان انشاء هذين الكتابين جاحظي - اذا قسناه بمراسيم المير يوسف وسميّه البطرك . واليك فقرة من الكتاب العربي ، وعنوانه : كتاب الارشاد لمنفعة سائر الملل والعباد :

« وقد استخرج من اللغة الطليانية الى هذه اللغة العربية فالمرجو من كل من يطالعه او يسمعه ان يدعو لمؤلفه ومترجمه ومعربه ، ولكل من له تعب به ، بالرحمة والغفران ، يوم العرض على السيد المسيح الديان . ثم ان يسحب ذيل العذر على ما نقص من اعرابه في اتمامه ، لانه (اي المعرّب) ليس من خيالة هذا الميدان ولا له بحل هكذا قطعة يدان ، فلا تنسوه من صلواتكم . »

وهذه فقرة ثانية من كلمة عنوانها « تنبيه » :

« اعلم اننا قبل ان نشرع عما قاصدينه في هذا الكتاب يجب ان نخبر المطالعين والسامعين ، باننا ، ولو اطلنا الشرح باسهاب كلي لكي يفهم جيداً مبدأ الشريعة وحسن نظامها ... بما انه واجب ان ترتشد به جميع الشعوب . فمع ذلك نقول انه ليس بضروري لهم علم كلما نشرحه لكمال الزام الشريعة ولنيل المجد الابدي ، بل يكفي لكل منهم ان يعرف على مقدار زكاوة عقله . »

اما الكتاب الكرشوني المجاز طبعه من رومة عام ١٧٣٧ فيقول معربه ، وهو مجهول مني كصاحب الكتاب الاول :

« مثل هذا الكتاب الجليل المقدار ، والمفيد الاذكار ، وترجموه الى كافة اللغات لاجل افادته الروحية لانه كتاب منكتب

مستطاب ، ومرشد الى الخير والصواب (انتبه الى السجع) . وقد انطبع الآن هذا الكتاب المفيـــد بالخطوط السريانية (اي الحرف الكرشوني) ليلازموا قراءته وينتفعوا من تأملاته الجاهلون القراءة العربية ، فيقتدون بذلك باثار السيد المسيح . »

واليك ايضاً كلمة اخرى من لغة الكتاب المسمى عند الموارنة العتاق « البـرَكسيس » اي اعمال الرسل . وهو اعتق عمراً من الكتابين السابقين . وقد طبع باللغتين السريانية والعربية . امـا العربية فبالحرف الكرشوني او الماروني :

« فلما نظروا الكهنة لكثرة الجموع امتلوا حسداً ، وجعلوا يناصبون ما يقال في بولص (القديس بولس) ويجدّفون ، فقال لهم بولص وبرنابة علانية : لكم ينبغي اولاً ان تقال كلمة ، ولكن من اجل انكم تدفعوها عنكم وجزمتم عــلى نفوسكم لا تستاهلون حياة الابد ، فهوذا نرجع الى الامم . لان هكذا اوصانا الرب كما هو مكتوب : اني وضعتك نوراً للشعوب لتكون الحياة الى اقصى الارض . »

وعلى ذكر الحرف « الكرشوني » فليسمح لي اصحاب مذهب البحث العلمي الذين يريدون ان يجعلوا انفسهم كحصان العربة ، ويسيروا الدرب الدرب – ليسمح لنـا هؤلاء الذين تعجبهم الطرق المعبدة ان نفكهك ايها القارىء العزيز ، فقد سئمنا التاريخ وكلوحة وجهه ، وطرق هذه الابحاث وجفافها .

ان للكرشوني مآثر غرّاء في تلطيف جو « الطقوس الكنسية » الطويلة النفس . فهو يقطع تلك الصلوات التي قد تتجاوز الساعات بنكتة تجدد نشاط المؤمن بعد سأم وضجر . وهذه المُلَح الكرشونية

انواع : منها ما هو حارّ لاذع كاوٍ ، وهذا نعفيك من ذكره لانه حامض حريف لا يكوي فقط بل يحرق الاذن واللسان والشفاه ، ولا يليق بنا ان نذكره خطيّاً . ولاجل هذه النوادر الحرّيفة يقول العوام عندنا للحديث الذي يستحى به : كرشوني . ثم اشتقوا من هذه الكلمة فعلاً فقالوا : كرشَنَ ويُكرشِنُ كرشنة ... ومشايخنا الحوازنة اشهر الناس في الكرشنة الحريفة اللاذعة ... وشديافنا العزيز استاذ اكبر في هذا ...

اما النوع الثاني فظريف طريف ، وهو ما أطرفك ببعض ملح منه ، فاسمع ايها العزيز شيئاً من هذا ، وافقأ حصرمة في عين « البحث العلمي » .

وقبل ان ندخل في جو هذا البحث ارى لزاماً عليّ ان اعرفك ببعض الحروف الكرشونية ، وإلا كنا كمن يغني في الطاحون ، كما يقول مثلنا اللبناني . اعلم ، يا سيدي ، وافهم ولا تنسَ : ان التاء والثاء تكتبان بصورة واحدة ، وكذلك الكاف والخاء ، والذال والدال ، والصاد والضاد ، والطاء والظاء ، والغين والعين . فعلى القارىء ان يكون نبيهاً حذراً لئلا يعثر ويضحك المصلّين . وهذا ما حدث حين كان يقرأ احد الشمامسة البهاليل فصلاً من « البركسيس » الذي عرّفتك به منذ هنيهة ، قال الشماس اللبيب :

اني وضعتك نَوَراً للشعوب لتكون الحياة الى اقصى الارص .

فضحك الخوري وقال : نَوَر وأرص ، هذا كثير يا شماس . خذ عنه يا متّى .

وشرع متى يقرأ فمشى ولم يعثر في هذا الفصل ، ولكن حمار فصاحته كبا حين تلا فصلاً من رسائل القديس بولس ، فبدلاً من

ان يقرأ : ان الله لا يحب خبث النية ، قرأ هكذا : ان الله لا يحب كبّة النية . فضحك المصلون وقال الخوري : مؤكد يا ابني ، الله ما هو من ضيعتنا .

وعلى اثر حادثة جرت لمتّى في قرية لبنانية اسمها اسْيَا ، وقف صباح الاحد يقرأ فصلاً من الرسائل وقال :

يا اخوتي ، نخبركم عما جرى لنا في أسْيَا .

فأجابه احدهم : لا تعذب نفسك . عرفنا ، قتلوك حتى شبعت ...

فتعالى الضحك وقال الخوري بغضب : أسِيّا ، يا متى .

وعثر واحد بهذه الكلمة : بكَبِدٍ مُرّة يُعقَد الاثم ، فقرأها هكذا : بكبد مَرَه (اي امرأة) يعقد الاثم . وادرك الشماس خطأه فقال : كل البلا من النسوان . فصاح الخوري : كل البلا من حمرنتك والكرشوني .

وفي الكتب القديمة جداً كانت تكتب الضاد بصورة الطيط (الطاء) يضعون في وسطها نقطة لتلفظ ضاداً ، فقرأ شماس شحيح البصر : ثم اهلك سبع امم في ارط كنعان ، وورّثهم ارطهم .

فصاح الخوري الشاب : يا مصيبتي ما اكبرك ! ارض ، يا جدي ، ارض .

ومضى الشماس في قراءته لان سمعه غير حديد حتى بلغ قوله : فأعطاهم الله لشاول بن قيس اربعين سنة . ثم بلغ هذه الكلمة ، فاخذ يردد : قب قب ، واخيراً خاطر واتمّ الكلمة قائلاً : قبطه (اي قبضه) .

فلم يكتم الكاهن ضحكته وقال : مؤكد ، شاول قبط وهشل ...

واخيراً اسمع نكتة الوداع ، واظن انها تعجبك كما اعجبتني .
قرأ احد الشمامسة فصلاً من رسائل القديس بولس حيث يقول :
ماذا نقول ، هل عند الله ظلم ؟ حاشا .

فلفظ هكذا : هل عند الله طلم ؟ فانتفض كاهن عتيق وصاح :
لا ، يا ابني ، الله عنده خبز مرقوق . ثم تمتم : الظاهر انك جئتنا
على الريق ...

اظنك ادركت سبب هذا الخطأ وهو ان حروف ثخذضظغ
غير موجودة في الابجدية السريانية . فعلى القارىء ان يكون فطناً
والا عثر .

فمما عرضت عليك من نماذج تعلم ان اللسان العربي نما في لبنان
نمواً تدريجياً . فمن ترجمة كتب طقسية ولاهوت وصلوات ، الى
ازجال ابن القلاعي اللحفدي ، الى زجل القس حنا المنير وشعره ،
الى شعر الياس اده ، فنقولا الترك ، الى الشدياق فاليازجي ، فشعر
عصرنا الحاضر الذي استولى ناظموه على امد البلاغة ، وبلغوا من
الفن ذروة رفيعة .

وكذلك النثر فانه مشى على درب الشعر وحذا حذوه . كان
النثر قبل الشدياق ركيكاً ، ثم نحا فيه معاصروه نحو القدماء ،
حتى كان الشدياق ، ففكك الاغلال وحمل لواء التجديد .

فاللبنانيون الذين بدلوا بالعربية سريانيتهم ، منذ خمسة قرون ،
قد ترقوا في سلم الانشاء درجة درجة ، حتى بلغوا ما بلغوه في
النصف الثاني من القرن التاسع عشر وما فوق .

كانوا في القرن الخامس عصر يدونون حوادث « مجامعهم
الطائفية » باللغة العربية التي قويت ملكتها فيهم مع الزمان .

واول هؤلاء الاسقف ابن القلاعي الذي قـال عنه الدبس في تاريخ سوريا : نظم قصائد كثيرة ، وان كانت منحطة لغة فهي كثيرة الفائدة[١] .

ولكي تقدر جهاد اللبنانيين حق قدره في سبيل تقويم لسانهم العربي ، احب، قبل ان انسحب من هذا المجال ، ان ادون لك بيتاً واحداً فقط من زجل المطران جبرائيل (ابن القلاعي اللحفدي) الشاعر اللبناني الاول ، لتقارن بين الماضي السحيق والحاضر الذي يحق الاعتداد به . قال الشاعر من قصيدة تاريخية :

والذين كانوا على «المدفون» اخذوا سلاح الذين هربون
وفي الليل دخلون البترون وجدوا الناس في اطمئنان

وقبل ان نبلغ الحقبة الذهبية (بالنسبة لزمانهم) التي ظهر فيها المطران جرمانوس فرحات والخوري نيقولاوس الصائغ ، عرف العربية نفر غير قليل كالحاقلاني والصهيوني والتولاوي ويوسف الباني ، معلم اللغتين العربية والسريانية في مدرسة مجمع الايمان المقدس برومة ، ومعاون مرهج الباني في رومية على تنقيح الاناجيل وسائر اسفار العهد الجديد التي طبعت باللغتين السريانية والعربية (العربية بالكرشوني) . هذا في رومة ، اما في باريس فقد وضع الصهيوني نحو اللغة العربية وطبعه سنة ١٦١٣ . اما اساتذة اللغة العربية ، فطاحل ذلك الزمان ، فهم اثنان القس يوسف الباني وجبرايل فرحات اللذان صححا ونقحا كتباً عديدة .

جرى في لبنان تياران ادبيان . فحذق العربية واتقان نحوها

١ الجامع المفصل للدبس، ص ٣١١.

وصرفها وتجنب اللحن والخطأ جاءنا من حلب . من حلب عـاد الينا المطران جرمانوس فرحات ، وقد اخذ العربيـة عن احد مشايخ العلم فيها (الشيخ سليمان النحوي) . وعن هذا ايضاً اخذ الخوري نيقولاوس الصائغ ، والشماس عبدالله زاخر .

عاد فرحات الى لبنان وطن ابائه وجدوده ، فكان زاوية بل طليعة الجيش العرمرم الذي زحف فيما بعد من لبنـان فملأ المسكونة فصاحة عربية ، واذاع لغة القرآن الشريف في العـالمين القديم والجديد .

وكما اخذ اللبنانيون اللغة العربية عن حلب فقد اعطوها . فبينا كان الشيخ سليمان المسلم يعلم العربية وعلومها ، كان الاب يوسف التولاوي اللبناني الماروني يدرّس روّاد الادب العربي في الشهباء الطليانية واللاتينية والفلسفة واللاهوت .

وسيم فرحات الراهب اسقفاً على حلب فعاد من لبنـان اليها . وهناك انشأ اول دائرة علمية (بعد رجعتـه من الغرب وزيارة الاندلس) ، فـكان من اشهر اعضائـها التولاوي والباني . كان اعضاؤهـا يؤلفون ويترجمون ، والمطران فرحات يصحّح عباراتهم . وهكذا كان « التطعيم » الذي جنّت براعمه فيما بعد ونمـا نموّاً عجيباً وقطفنا ثماره اليوم .

لم يقف فرحات عند هذا الحد ، بل الف في النحو ناحياً نحو المؤلفين المسلمين ، اي مازجاً النحو بالدين ، معارضاً ابن مالك وغيره ، آخذاً أمثلة النحو من الانجيل . قد ضل من زعم ان فرحات اول نصراني كتب في علم النحو . فقد طبع في رومة بالعربية سنة ١٦٢٢ كتاب مبادىء العربية لمنصور شالاق العاقوري ، ولغيره من

الاعلام ممن تقدم ذكرهم .

الشرق والغرب

ليس لدينا اثر يدلنا على تأثير الفرنج في عقلية اللبنانيين منذ الحرب الصليبية ، ولكنه واضح جلي ان اللبنانيين كانوا منذ قرون عديدة يعلّمون الغرب لغات الشرق ويتعلمون لغاته . علموه السريانية والعربية والعبرانية ، وتعلموا من لغاته اللاتينية والطليانية واليونانية والفرنسية وغيرها .

فجبرائيل الصهيوني ترجم الى الطليانية سنة ١٦١٩ كتاب « نزهة المشتاق في ذكر الامصار والافاق » للشريف الادريسي . وسنة ١٦١٤ وقف على طبع مزامير داود بالعربية في رومة ، يعاونه في ذلك منصور شالاق العاقوري . وسنة ١٦٢٧ ترجم يوحنا الحصروني كتاب بلثرمنيوس . وسنة ١٦٤١ نشر الحاقلاني كتاب مقاصد الحكم كانت لفلاسفة العرب . وسنة ١٥٣٠ طبع القرآن الكريم في البندقية .

واولى مطابع الشرق كانت لبنانية ، وهي مطبعة دير قزحيا . وفيها طبع زبور داود بالسريانية والعربية (الكرشوني) سنة ١٥٨٥ ، ترجمه جرجس مطران نيقوسيه ، وطبعه البطرك سركيس الرزي .

وفي سنة ١٧٣٧ نبغ السمعاني الشهير الذي اطلق عليه البابا لقب « معلم البلاط الرسولي » ، ونجبنا الملازم لنا . عمل هذا العلامة العظيم في سبيل الشرق خاصة ، فخدم الغرب والشرق اجل خدمة

بجمعه المخطوطات من يونانية وسريانية وعربيـــة . وهكذا ضرب اللبنانيون في مناكب ارض الله يخدمون لغتهم الجديدة أجل الخدم . مشرقوا الغرب ، ونقلوا اليه مـن نفائس لغتهم الجديدة كل نافع مفيد . وترجموا اليها من اللغات الغربية التي اتقنوها كاهلها فطبعوا على التجديد ، ثم كانت لهم اليد الطولى في تطور الادب .

اما الفضل الاكبر في « تعريب » لبنان فيعود الى المطران جرمانوس فرحات الذي قدم العربية على السريانية في الهيكل ، واجلسها عن يمين المذبح . وهكذا غابت شمس السريانية عن لبنان .

ان مدارس الموارنة في الغرب ، وخصوصـــاً مدرستهم في رومة ، كانت الدافع الاقوى الى ما احدثوا من تطور . وكأن مدارسهم في الغرب لم تنقع غلتهم ، وكأنهم ابوا الا الاستقلال ، فأسسوا المدارس في لبنان . فهذا الاب بطرس مبارك الغوسطاوي الذي تلقى علومه في مدرسة رومة حتى حذق سبع لغـــات : العربية والسريانية واللاتينية والعبرانية واليونانية والايطالية والفرنسية ، ينشيء اول مدرسة في لبنان . انشأ مدرسة عينطوره ، واشترى لها عقاراً يكفي ريعه اثني عشر تلميذاً . ثم وكل تدبير شؤونهـا الى الاباء اليسوعيين سنة ١٦٥٢ ، معلقاً على ذلك بعض شروط خوفاً من ان يلم بالطـائفة شيء من الضرر في المستقبل ... ثم انتقلت هذه المدرسة سنة ١٧٧٦ الى الاباء اللعازاريين حين الغى البابا رهبانية الاباء اليسوعيين . وفي عام ١٨٣٤ جعلهـــا الاباء اللعازاريون مدرسة عامة ، فكان لها يد طولى في الاشعاع الفكري وتطعيم الاداب العربية .

ثم كانت مدرسة عين ورقة التي انشأها البطرك يوسف اسطفان

الآنف الذكر ، وكان من تلامذتها الشدياق الذي نكتب عنه هذا الكتاب ، وقد سميتها بحق سوربون الشرق لانها ، في زمانها ، كانت اشبه بجامعات اليوم ، بل تزيد عليها في تعليمها لغات اجنبية عديدة . فقد انشئت هذه المدرسة . قبل الثورة الفرنسية التي يعدها مؤرخو الادب العربي فجر النهضة الحديثة . وهذا يدلك على ان اللبنانيين تغربوا قبل ان يتمشرق بونابرت ، وجدّدوا في لغتهم قبل قدومه منتضياً السيف بيد ، وحاملاً بالاخرى مطبعته الصغيرة .

قد تقول ما له لا يذكر لنا الا اساقفة وبطاركة وكهنة ؟ وانا اقول لك لا تتعجب . الشعب كان امّياً والعالم كان ، في ذلك الزمان ، إما كاهناً ، واما شيخاً — شيخ دين . والبطرك الماروني وارث زعامة مردة لبنان قد ضعف شأنه السياسي ، فانصرف هو واكليروسه الى العمل في حقل العلم والتربية والتهذيب .

اما المدارس التي جاءت بعد المدارس المذكورة والمطابع العربية التي ملأت المسكونة ، وكذلك الصحف التي انشئت في جميع العواصم ، فكلها حدثت في هذه الحقبة التي نؤرخها ، وقد ذكرتها الكتب التي تعلم تاريخ الاداب العربية في المدارس فأرجع اليها . اما الان فاسمح لنا ان نحدثك قليلاً عن بلاط المير بشير .. ان هذا البلاط صغير السن ، بالنسبة الى هؤلاء الذين ذكرناهم لك ، ولكن له يداً بيضاء على لسان العرب .

بلاط المير بشير

امير وارث جميع امجاد الامارة اللبنانية ، فها هو يجر مياه

نبع المغارة الى سراي الشهابيين في غزير حيث ولد «سعادته»، وقد صار سرايهم هذا مدرسة بعد انقراض دولتهم.

افنى هذا الامير، خلال سني حكمه، جميع اعدائه ومناوئيه حتى دانت البلاد لسراي بتدين زهاء ربع قرن. فبتدين صفحة خالدة في تاريخ الامارة اللبنانية. كان لسيد بتدين بلاط يؤمه كل رب قلم. فهذا الياس اده كاتب الجزّار وقد فر من عنده خوفاً على رأسه منه، وطمح الى دخول قصر بتدين، فتعذر عليه ذلك اولاً، فظل يمدح الامير ويستعطفه حتى استرضاه واخذه في خدمته. وبلغ الامير بشير موت الجزار، وهو في يوم صيد، وبمعيته الياس اده، فأوعز اليه ان يقول ابياتاً في موته، فقال قصيدة مطلعها:

وافى السرور وصح ترجيح الامل   بهلاك علجٍ لا يعادله مثل

وختامها:

لله درّك يا منون لقد بدت   منك الحياة وطاب حكمك واعتدل
فاز الانام وأرّخوه بمقصد   هلك الشقي والى جهنم قد رحل

ومن ظريف قول هذا الشاعر بيتان يدلان على خفة روحه. مات صديق له اسمه ابرهيم، وكان لابرهيم اخ اسمه يحيى يكرهه الياس اده، فقال:

مات ابرهيم خلّي   آه واأسفي عليه
ليته قد كان يحيى   رحمة الله عليه

واذا ذكرنا تطور الادب العربي في لبنان وجب علينا ان نثني على الامير بشير الذي فتح باب قصره الرحب للشعراء والادباء من كهنة وعلمانيين. فهذا الخوري ارسانيوس الفاخوري

شاعره وقاضيه يقول فيه حين نفي :

نوراً توارى كيف لا وبه نأى ذاك الشهاب
قرمٌ بشيرٌ جهبذٌ والمجد منه في قباب
ليث جسور ضيغم طامي الندى رحب الرحاب
انجاله وبنوهم يبدون كالبحر العباب
كالشمس اضحى بينهم وهم البدور بنو الشهاب

والقس حنانيا المنير صاحب قصيدة البرغوث هو شاعر ايضاً من هذا الطراز اللبناني ، وقد طاب خاطره مع من طابت خواطرهم بموت الجزار ، فقال فيه شعراً رائقاً .

ان شعراء المير بشير كثيرون . اما المختصون بالجناب فهما الترك وكرامه ، ثم اليازجي . ومع اليازجي والشدياق والبستاني صحّ لسان العرب ، ومشى الشعر والنثر في لبنان شوطاً لا بأس به .

اما اخف هؤلاء الشعراء دماً فصاحبنا الترك . كان ينظم وينثر ويسرّ الامير في الصناعتين . كان الامير يقترح ، والترك يلبي ويرضي . واليك شيئاً مما ارتجز بناء على اقتراح سعادة المير واصفاً الطاعون :

ان حلّ طاعونٌ بأرضٍ فارحلِ او فاحتجبْ من خلف بابٍ مقفلِ

الى ان يقول في نصائح طبية :

وجلّ ما يؤذيك يا انسانُ الصوف ثم القطن والكتّان
والخل أكثِرْ منه فهو الركن والسمّ منه في الوبا لا يدنو
وبيّض النحاس قبل القفل كي لا يصيبهُ الصدا بالخَلّ
واحذر دخول الزهر بالاجمال فالزهر في العدوى من الوبال
واحذر من الفيران واخشَ الهرّا لا تقبلنه ان أتى من « برّا »

ولهذا الشاعر طرف شعرية ونكت ظريفة كان ينتزع بها الفرائس من بين مخالب « الاسد » فيأكلها على الهينة .

وله مناظرة بين الزيت واللحم قد يكون اقترحها عليه المير . وله قصيدة فكاهية اذكر منها هذين البيتين :

عجب عجب عجب عجب قطط سود ولها ذنب
تصطاد الفار من الاوكار وتطيح الحيط فتنقلب

اما كرامه شاعر المير فهو ارصن عبارة من نقولا ، وان كان يعالج ما يقترحه سعادة المير ، او يحاول ان يقول في اغراض تنفرج شفتا المير عند سماعها . وقد خصصنا شعراء « سعادته » بدروس خاصة ستحتل ، ان شاء الله ، كتاباً خاصاً عنوانه : رواد النهضة الادبية .

العبارة اللبنانية

يشمئز اخواننا ، ابناء الاقاليم العربية الاخرى ، حين يقرأون كلمة « الادب اللبناني » ، وترقص اذانهم غيظاً حين يسمعونها ، ويأبى الغلاة والرافضة منا — وفي الادب كما في البدع والشيع غلاة ورافضة — الا التمسك بزعمهم ذاك . والفريقان توأمان ، والتوأمان من الجبال لا يلتقيان ، وكلاهما جبلان دونها بذيل وصنين .

اما انا فهذا رأيي : لي بيت في عين كفاع معروف الحدود . ولعين كفاع تخوم وحدود من الجهات الاربع . وهذا ما يسمونه في لبنان « خراج الضيعة » . وعين كفاع احدى قرى بلاد جبيل . وبلاد جبيل احدى مقاطعات كسروان الثلاث : جبيل ، الفتوح ، كسروان . وكسروان منطقة من مناطق لبنان . وهذه المناطق كلها ذات حدود وتخوم معروفة . وهي تؤلف مجتمعة ما نسمّيه لبنان . ولبنان مثل غيره من اقطار العالم واضح المعالم . فكما ان بيتي في عين كفاع ، وان استقلّت حدوده ، لا يقال انه ليس من عين كفاع ، كذلك لا يخرج لبنان من نطاق البلاد العربية . وكما ان لبيتي لوناً خاصاً به يميّزه من غيره من البيوت ، كذلك للعبارة اللبنانية لون خاص ومزايا واضحة تمتاز بها من اخواتها . ولكن هذا كله لا يعني ان ما يسميه فريق منا ادباً لبنانياً هو

ادب مستقل استقلالاً ناجزاً عن الادب العربي .

امشِ معي ، اقرأ ، يا عزيزي ، ولا تخف . لا تتجهم فأنت بالغ محجة واضحة . فالقصة قصة لون محلي ، بل قصة عناصر تفاعلت في العقلية اللبنانية فكان منها هذا اللون . فاذا اراد اللبناني الحديث ان يتنازل عن تراث جدوده وآبائه في الادب العربي ، فماذا يبقى له ? فالادب الفينيقي وهمٌ وخيال كأخيه الفرعوني ، والسريانية اجهزنا عليها كما تقدم ، فماذا يبقى لنا ، اذن ، لكي نقول : سيفنا والقلم ?..

أيلائم اللبناني ان يتجاهل من تقدم ذكرهم ، ومن سنذكر ، ليدّعي ادباً مستقلاً ? ان اللسان العربي لسانه اليوم وبه يبين ، وبه ألّف وصنّف ، وكتب ما بقي وسيبقى . فتعالوا ، يا اصحابي ، الى كلمة سواء . الادب ادب عربي ، وليس هناك ادب لبناني قائم برأسه ، ولكن للاديب اللبناني لوناً خاصاً يمتاز به كما تمتاز تفاحة مطعّمة من تفاحة لم تطعّم ، او كما يمتاز مهاجر عاد الى الضيعة بعد ما غاب عنها سنين عديدة . أما فرّق القدماء بين الشعراء البادين والشعراء الحاضرين ? أما قال بشّار في احدى قصائده : ولكنني بنيتها اعرابية ?.. فلنهوّن علينا ، اذن ، فليست مشكلتنا مشكلة الرأسمالية والشيوعية .

لنعد الى الاصل . معروف ان هذه الرقعة كان لسانها الفينيقي ، فالسرياني ، ثم تغلبت عليها العربية ، كما تغلبت في الاندلس ، حتى طلب رئيس الاساقفة من البابا ان يأذن بترجمة الصلوات الى اللغة العربية لان الشعب امسى لا يفهم غيرها . اما في لبنان فكان غير ذلك . انهم لم يستأذنوا احداً ، فترجموا اكثر صلواتهم

وتراتيلهم الى لغتهم الجديدة ، وساعدهم على الترجمة تقارب اسلوب اللغتين (العربية والسريانية) صرفاً ونحواً وتعبيراً ، وتشابه الالفاظ حروفاً واوزاناً واشتقاقاً . وان كنت مثل توما لا تؤمن ما لم تضع اصبعك ، فهاتها ... اليك قطعة صلاة مترجمة من السريانية الى العربية ، انقلها لك عن كتاب بالخط الكرشوني ، والترجمة من عهد الحوارنة شهوان والباني ، وتنقيح المطران جرمانوس فرحات فارس ميدان العروبة في لبنان :

« نطلب منك ايتها البتول ، ام الابن الوحيد ، والطور المقدس الذي اومضت فيه النار الالهية ، والعلّيقة المتنفّسة التي ما انضرت من اجيج اللهبة الذكية . البرج المشيّد الذي قطنه رب المجد بقوته القوية . الحمامة الوديعة التي تشاهى بها النسر العتيق الايام باعجوبة ضدّية . قبة العهد التي صوّرت بها اشباه العالم الجديد والامثال النبوية . الجفنة المباركة التي حملت العنقود المبارك الذي قطرت منه الحلاوة المنقذة البريّة . الغمامة النيّرة التي فاضت على العالم وانتشل منها مطر الافراح الروحية . الملح النقي الذي اصلح بطعمه الجبلة البشرية . المصباح المنير الذي ينير في الخليقة بالاشعة الضوّية . افتخار البيعة وشأن المسكونة الارضية . جنة الانوار المملوءة اشعة الهية . الجبل المكتنز علوّاً ، والمظلّة التي انحدر عليها مطمئناً سيد البرية . الهيكل المشيد بالحجارة الاسمنجونية . العقلية المنتظمة مداميكها من صفائح البلّور النقية الخ ... »

أرأيت التصور والافكار والتعابير التي انطبعت في الذهن اللبناني ؟ وها انا ذا انقل لك روسماً عن هذا الكتاب الخطي لتعرف القلم الاول الذي كتب به اللبناني بلسانه الجديد .

ܪܡܫܐ ܕܫܒܬܐ

ܐܘ ܬܘܟܠܢܐ ܕܟܐܢܐ ܘܙܕܝܩܐ ܘܡܓܢܐ ܕܡܗܝܡܢܐ ܐܘ
ܝܫܘܥ ܡܫܝܚܐ ܡܪܢ. ܐܕܢܚ ܢܘܗܪܟ ܥܠ ܐܒܗܝܢ
ܘܐܚܝܢ ܘܪܒܢܝܢ: ܘܥܠ ܟܠܗܘܢ ܐܣܝܪܐ
ܕܒܫܝܘܠ ܥܘܡܩܐ ܕܟܪܝܐ ܘܐܫܪܐ ܐܢܘܢ ܒܡܥܡܪܐ ܕܚܝܐ

اما لفظه العربي فهكذا :

عشية السبت

« يا اتكال الابرار والصديقين وملجا المؤمنين ، يا يسوع المسيح سيدنا ، اشرق نورك على آبائنا واخوتنا وعظمائنا . وعلى جميع المسجونين في اطباق الجحيم المحزنة ، وسكّنهم مسكن الحياة . »

فكم تقرأ اليوم مثل « يا اتكال الابرار » في شعر شعرائنا الجدد ؟ حسبك قول شاعر « قدموس » في قصيدته « فخر الدين » :

يا اندفـــاع الامواج في لجج   البوسفور رفقاً بذكرياتِ الامير

هذا هو العامل الشرقي الخطير التأثير في التعبير اللبناني . وهناك عامل آخر لا يقل عنـــه خطراً ألا وهو اتصال اللبناني بالغرب اتصالاً وثيقاً ، ثم باميركا وغيرها ، فعرف لغات القوم معرفةً جيدة اكسبت عبارته قالباً خاصاً بها ، ففصّل من الالفاظ العربية انماطاً

جديدة على قالبه هذا . قصّ ذلك النسيج على هندازه فكانت له عبارة بيّنة الخطوط ، واضحة المعالم ، فاستحقت هذا الاهتمام وهذا البحث . فاللبناني ، كما قلت في غير هذا المقام ، لا يحن الى ارواح نعمان وعنده نسيم جبله الدائم (ريح الشمالي يا نسيم بلادنا) ، ولا يتمثل بثقل رضوى وعنده صنين ، ولا يقول أذر قرن الغزالة وهو قلما يراها .

ان الذين عرفوا القرآن كما عرفوا التوراة والانجيل ، وعرفوا فرجيل ودانتي كما فهموا اغناطيوس ، وغريغوريوس ، و كيرللس ، وباسيليوس ، وافرام ، ويعقوب ، ويوحنا فم الذهب ، ودرسوا توما الاكويني ، واغوسطينوس ، كما قرأوا ابن رشد ، وابن سينـــا ، وحفظوا البحتري والمتنبي كما درسوا ابن العبري و كورني وهيغو وشكسبير وملتون ، وعرفوا هوميروس وفيثغوروس وارسطو وسقراط كما عرفوا الغزالي والفارابي والمعري ، لا بد لعبارتهم من ان تهجر الجبس الذي يريد بعض المتعنتين ان يقتلوها فيه صبراً . ان الامر لأهون مما نخال ، فليخفف الفريقان من غلوائهم ، فالقضية قضية تفكير وتعبير لا قضية ادب ناجز ، فالكلمة عربية ، والعبارة عربية ، والاخلاق عربية ، والعادات اللبنانية عادات عربية .

قلت في كتابي « الرؤوس » ان اول ثورة في الادب العربي أوقد نارها المستعربون فالموالي . وهذه ثورة ثالثة أيقظها مستعربون لبنانيون . فللساننا العربي المبـين احرّ التهاني . ليت الاوروبيـين يستعربون جميعاً ليثرى ادبنا ويتجدد ويكثر اخواننا في اللسان . ان اللغة اقوى رابطة . وبرهاننا على ذلك جهاد الامم الاوروبية وتناطحها حول حوض المتوسط ، وهمها الاول زرع بزور ثقافتها .

ان النهضة الحديثة ، في عرف بعض من يتحدثون عن الادب ، هي ان يكون هناك ناس قالوا شعراً جاهلي العبارة ، ونظموا كلاماً لا تنتفض له اذنا الاخفش ، ولا تهتز عظام ابن ثعلب . لا ، يا اخي ، فالبلاد ما خلت قط من هؤلاء ، ولا من الذين كتبوا كلاماً لا خطأ فيه ، او لا غبار عليه ، كما يعبرون ، ولكن النهضة التي نعنيها انما تكون في الخلق والابداع ، في اتجاه جديد متصل بالقديم ولكنه غيره .

لم يكن للبناني حق التحلي بالخناجر ، حلية امراء العرب ومشايخهم ، فشكّ الدواة في زنّاره . ولم يجد ميداناً يجلي فيه غير الكتاب ، فانكبّ عليه . فأدّى للغته اجلّ الخدم . وهذا ما تحمد عليه السياسة ، فهي التي نحّت اللبناني عن حليتها ، فأوجد له حلية تجلى في ابداعها عقله .

لماذا انبوت العبارة اللبنانية على رسلها مطروفةً لم تشدد ؟ أليس لان اللبناني كالنحلة الهائمة وقد وقع على الثقافات كلها ؟ وهب اللبناني معدة لا تتقيأ شيئاً ، بل تهضم كل شيء حتى الحصى . وخاصة التمثيل في اللبناني غريبة عجيبة . ولذلك اعاد ما تمثّله لبنانياً . فليعذره لائموه على تعبيره وتفكيره . انه لم يستظهر القرآن غيباً كاخيه العربي الآخر ، فكيف يستطيع ان يعبر تعبيراً بعينه كما يريده الآخرون ؟ ومع ذلك فأنا قرأت القرآن مثنى وثلاث ورباع ، ومن الجلد الى الجلد ، فوقعت فيه على مئات العبارات التي تدور على لسان اللبناني اليوم .

لا اريد ان ابرح مكاني قبل ان انقل اليك بعض آيات كريمة اريد بها ما زعمت لك ، فهاك :

وقلنـا يا ادم اسكن انت وزوجك الجنة . واركعوا مع الراكعين . فلولا فضل الله عليكم . وقفينا من بعـده بالرسل . هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين . لولا يكلمنا الله او تأتينا آية . ووصّى بها ابرهيم بنيه . لا نفرق بين احد منهم . ما يأكلون في بطونهم الا النار . وآتى المالَ على حبّه . وأتوا البيوت من ابوابها . ادخلوا في السلم . ولكن اكثر الناس لا يشكرون . الا من اغترف غرفة بيده . ربنا لا تواخذنا ان نسينا .

سورة البقرة

القنـاطير المقنطرة من الذهب . ويقتلون البنين بغير حق . آمنوا وجه النهار وكفروا آخره . قل موتوا بغيظكم . ويأتوكم من فورهم . ويمحق الكافرين . ذوقوا عذاب الحريق .

سورة العمران

يا ايها الذين آمنوا خذوا حذركم . ومن اصدق من الله . وقع أجره على الله . ألم تكن ارض الله واسعة . وكان الله واسعاً حكيماً . فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره انكم اذاً مثلهم .
لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء . سألوا موسى اكبر من ذلك . واكلهم اموال الناس . لئلا يكون للناس على الله حجة . لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله .

سورة النساء

فلن يضرّوك شيئاً . ومن أحسن مـن الله حكماً . يريـد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة .

سورة المائدة

ومـا قدروا الله حق قدره . انى يكون له ولد ولم تكن له

صاحبة .

سورة الانعام

ولقد مكّنّاكم في الارض وجعلنا لكم فيها معايش . فتعمل غير الذي كنا نعمل. فلما اخذتهم الرجفة . فلما القوا سحروا اعين الناس . ولما سكت عن موسى الغضب .

سورة الاعراف

الا متحرفاً لقتال او متحيزاً لفئة . ان الله عنده اجر عظيم . ويقللكم في اعينهم . ومن رباط الخيل تُرهبون به عدوّ الله . يرضونكم بأفواههم ، وتجارة تخشون كسادها . يريدون ان يطفئوا نور الله بافواههم . ولكن بعدت عليهم الشقة . اسّس على التقوى من اول يوم . واما الذين في قلوبهم مرض .

سورة التوبة

يدبر الامر ما من شفيع الا من بعد اذنه . واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه لننظر كيف تعملون . ولولا كلمة سبقت من ربك. للذين احسنوا الحسنى وزيادة . ولا اصغر من ذلك ولا اكبر . ويحق الله الحق . ما لا ينفعك ولا يضرك ، وما انا عليكم بوكيل .

سورة يونس

على الله رزقها . ولا تخاطبني في الذين ظلموا . الا من سبق عليه القول ، اركب معنا . فما تزيدونني غير تخسير . اخذت الذين ظلموا الصيحة . ذلك يوم مجموع له الناس .

سورة هود

نرفع درجات من نشاء . اذهبوا فتحسسوا من يوسف .

سورة يوسف

لو ما تأتينا بالملائكة .

سورة الحجر

لتأكلوا منه لحماً طرياً . ثم كلي من كل الثمرات . يرد الى ارذل العمر .

سورة النحل

كبرت كلمة تخرج من افواههم . اساور من ذهب .

سورة الكهف

باركنا فيها للعالمين ، فظن ان لن نقدر عليه .

سورة الانبياء

قطعت لهم ثياب . ولباسهم فيها حرير . من كل فج عميق .

سورة الحج

ولا تقبلوا لهم شهادة ابداً . وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا .

سورة النور

كانوا قوماً بورا .

سورة القرآن

وفعلت فعلتك التي فعلت . فاذا هي تلقف ما يأفكون . والذي هو يطعمني ويسقيني .

سورة الشعراء

فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها .

سورة النمل

وما تدري نفس باي ارض تموت .

سورة لقمان

وكان عند الله وجيها .

سورة الاحزاب

غير الذي كنا نعمل .

سورة الفاطر

وتلّه للجبين .

سورة الصافات

ينظرون من طرف خفي .

سورة الشورى

وما نريهم آية الا وهي اكبر من اختها .

سورة الزخرف

نبطش البطشة الكبرى .

سورة الدخان

سيماهم في وجوههم .

سورة الفتح

هذا شيء عجيب .

سورة ق

اذا وقعت الواقعة . اذا رجّت الارض رجّا .

سورة الواقعة

ادلكم على تجارة .

سورة الصف

وقعت الواقعة . ولو تقوّل علينا بعض الاقاويل . يا ليتهـــا

كانت القاضية .

سورة الحاقة

كانوا لجهنم حطبا .

سورة الجن

التي لم يخلق مثلها في البلاد .

سورة الفجر

أفلم تر بعد هذا ان الله ، جل جلاله ، قد كلم الناس بلهجتهم لا بلهجة الاعراب وما فيها من اغراب ، فيطلب منا ان نترك اسلوبه تعالى لنتبع غيره ؟ واذا قرأنا ما روي عن صحابة النبي وغيرهم من فصحاء ذلك الزمان ، رأينا بين كلامنا وكلامهم اقرب صلة .

قابلت لهجة لبنان بلهجات الاقطار الاخرى ، فوجدت لغتنا العامية اقرب الى الفصحى من جميعها ، وقد لا تضاهيها في ذلك الاقاليم الاعرابية التي لم تدخلها رجل غريبة . انها لا تحتاج الا الى تحويل بسيط لتصير فصحى بلا عناء .

واللبناني في كل طور من اطواره انما يعنيه التفكير قبل التعبير ، وهو يحاول ان يطبع كلامه على غرار كلام العرب ، ولكن المادة اللازمة لذلك النسيج الدمقسي تعوزه . هو ابن لغة سامية هي اخت العربية ، ولكنها ليست هي . ومن هذه الناحية نشأ اسلوبه الخاص كما قلت لك . ان ما تأثر به من صور كيّف انشاءه ، ووهبه لوناً وحياة وصوراً خاصة به دون سواه .

اللبناني كأبن الصحراء يحب ان يعيش حراً ، لا يريد ان تتبنّاه الحكومة ، وجل ما يطلب ان تكفّ عنه شرّها . ولهذا

عكف في اوديته وقمم جباله يفلح ويزرع ، ينقب الارض ويفتت صخورها ليجعلها تراباً صالحاً لاحتضان الحبة . فجعل جباله جناناً . واراد ان يكون له تراث فكري فكان له ذلك ، ولكن بعد الف جهد .

اللبناني نبيه ذكي ابن محيط يدعو الى الحذر والتفكير ، يفكر دائماً ، يشك « افراده » شكاً لا نهاية له ، ويؤمن « مجموعه » ايماناً اعمى . فلو صح ان يلبس كل بلد ثوباً يميزه ، كما كانت الحال في القرون الخالية ، لكان حظ لبنان الثوب الاسود . فهو على اختلاف ملله ونحله صنع عوامل دينية . فعلى قمم لبنان تقوم ديورة ومعابد ومقامات وهياكل منذ وجد . من عهد ادونيس ، الى زمن يسوع ، الى طور محمد ، الى دعوة الحاكم بامر الله : اساطير ومشاهد ، رؤى وجدل ، تفكير مستمر ، وصراع فكري دائم . وهو في كل اطواره ذو عبارة خاصة ، عربية لكنها ليست خالصة البداوة ، فيها من الزمان والمكان شيء كثير . فهذه كتب الدروز المكتومة ، والدروز عرب خلّص ، فيها الكثير من خواص الانشاء اللبناني ، وان حاول كتابها الدنو ما استطاعوا من التعبير العربي القح . اخلص العربي البدوي لمحيطه فحبس صورته في عبارته . فلا نلم اللبناني ان هو فعل ذلك . وهبه اراد غير ذلك فهو غير مستطيع .

انني اقرأ الكلام العربي العتيق يومياً ، واعلمه شارحاً خفايا كلماته كلمة كلمة ، وهو على لساني في كل ساعة ، ومع ذلك اقر واعترف انني لا احسن تقليده الاحسان كله — لو حاولت ذلك . فهل انا في ذا ، يا لهمذان ، ظالم ؟

ان لهواء الكنيسة الرطب ، ولظلمتها الراهبة الراعبة ، ولرنين جرسها وصنوجها ونواقيسها ، ولضوء قنديلها الشحيح ، ولالحانها سريانية ويونانية ، ولصورها ونقوشها ورموزها ، ولصوفية شعرائها المختلفة الطعم واللون ، لاثراً بيناً في الفكر اللبناني . فهذا الاتجاه الى الانين والحنين ، وهذه الصوفية العابقة الاردان ناشئة من الاطّلاع الواسع العميق على التوراة والانجيل . ومصدر التعبير والسياق تجده هناك . فاللبناني عرف التوراة والانجيل اول ما عرف من الكتب ، وكان اول عمله ترجمتها الى لغته الجديدة ، فكان لذلك ابعد الاثر في ادبه تفكيراً وتعبيراً .

لا تنسَ ما بيناه لك ان الكنائس والديورة اظلّت اللغة العربية في محنتها وآوتها في غربتها ، وحدبت عليها يوم تنكر لها ابناؤها الخلص مرغمين ، فاعتصمت بالهيكل اللبناني ، فأحلها كهنته عن يمين مذبح البخور ، فصارت لغة اللبناني الدينية يناجي بها ربه : ابانا الذي في السماوات ، ليتقدس اسمك ، ليأتِ ملكوتك ... ارأيت رفع الكلفة : « ابانا » الذي في السماوات .. فكيف لا تكون الصوفية عامة شاملة ، مكتسحة الادب اللبناني ، استغفر الله ، مكتسحة ما يخطه اللبناني بلغته العربية ؟

وقبل وبعد — مرة اخرى — فكيف خطط لبنان ؟ خطط لبنان هكذا : عند كل نبع شيّد دير سكنه نساك ورهبان ، وكل قلعة او حصن او كهف جعل مأوى لهؤلاء الزهاد . ثم حوّل هؤلاء الزهاد هياكل عشتروت وادونيس كنائس ، وحَوْلَ هؤلاء (اي الرهبان) تكتلت الناس ، فكانت القرى والدساكر والضياع . وانكب هؤلاء على كتب دينهم ، وكانوا يقرأون ، خطاً وتصويراً

ونقوشاً على تلك الجدران التي حبسوا انفسهم بينها ، تواريخ الاولين واساطيرهم ، فكانت لهم ثقافة يقرّبونها من افهام ابنائهم بالرب ، وكانت الترجمة فضموا ما ترجموه الى معارفهم وعلموا المثقفين حولهم ما علموهم .

وكان لاتصالهم بالغرب ، دينياً ، اثر بيّن في تطورهم العقلي ، فاخذوا من الغرب واعطوا كما رأيت ، فنشأ من الادب ما نعنى بدرسه الآن .

ان التعلم ضالة اللبناني منذ وجد . فكل وقف مفروض عليه تعليم صبيان القرية . فلاجل الله والعلم وقف اللبنانيون عقاراتهم على الكنائس والديورة . كان اللبنانيون يتبارون في ميادين الوقف . ولهذا ترى اوقافاً لبنانية ، في كل ناحية من نواحيه ، على ملل ونحل مختلفة . وقف الشيخ الفلاني املاكه على رهبانية ارمنية ، فليفتش منافسه الشيخ الآخر عن ملة اخرى يقف على رهبانها عقاره . وهكذا رأيت لبنان مجموعة مختلفة من جميع الملل والشعوب . والغاية الاولى عبادة الله ونشر العلم . وما زلنا حتى اليوم نرى اللبناني يستدين او يرهن ما يملك ليعلم ابناءه .

لقد كان رجال الدين فرسان الميدان وقادة الفكر في ذلك الزمان ، كما مر بك . وهذا ما حمل معلمي خيرالله خيرالله ان يقول في كتابه «سوريا» : «نعيش اليوم في عصر تسود فيه الفوضى . الا ان المستقبل كفيل باستخلاص المقدمات من النتائج . عندئذ تعرف سوريا العصرية كل ما هي مدينة به للبنان . ويعرف لبنان كل ما هو مدين به للموارنة ، ويعرف الموارنة ما هم مدينون به لاكليروسهم . »

قال هذا استاذي خيرالله عندما اطلع على خفايا التاريخ ، ورجع الى ما اريناك اياه في الفصول السابقة . واذا عرفت انت ، الآن ، ان الدروس العربية كانت قد ضعفت في ايطاليا ، فانهضها شمعون السمعاني الذي درس اللغات الشرقية في كلية بادوى ، من عام ١٧٨٥ الى عام وفاته سنة ١٨٢١ ، واذا علمت ايضاً ان لهذا الكاهن تآليف في عرب الجاهلية وتاريخهم ، واحوالهم في مجلدين ، وان له وصفاً دقيقاً للاثار الكوفية في متاحف الغرب ، احتملت من خيرالله تحمسه للاعتراف بفضل رجال الدين ، وان كان اصطبغ بلونهم ، ثم انفصل عنهم ، كما فعلتُ بعده . وحسب التلميذ ان يكون مثل معلمه . أما قلت لك انه معلمي ؟

نعم ، علمني خيرالله اللغة الفرنسية سنة في مدرسة مار يوحنا مارون . وستقرأ صفحة ترضى عنها ، ان شاء الله ، في كتاب « احاديث القرية » .

اجل ، ان لبنان مدين في ما بلغه من شوط في ميادين الثقافة الى اكليروسه المجاهد . وهذا رفيقي وصديقي الخوري مخايل الفغالي ، الذي توارى منذ سنوات ، هو آخر حلقة من تلك السلسلة الذهبية .

فالتمشرق والتمغرب ، والانتقال من لسان الى لسان ، واتصال لبنان بالشرق والغرب سياسياً ومدنياً ودينياً ، والمبشرون والمرسلون ، والصليبيون حتى حملة نابليون ، كل هؤلاء تركوا اثراً فيما كتبنا ونكتب . كل هذا التفاعل حرّض اللبناني على نشد الحرية والمساواة في كل زمان ، وحمله على اول ثورة شرقية على الاقطاعية فهدّمها . وكم تستولى عليك الدهشة اذا عرفت ان زعيم

هذه الثورة كان بيطاراً أمياً . واخالك لا تجهل ان الثروة موزعة في لبنان توزيعاً صحيحاً ، فقلما تجد واحداً من الف لا يملك بيتاً وعقاراً . فالحال في لبنان هي غيرها في الاقطار الاخرى . ولهذا ايضاً اثرٌ بيّن في الادب ، صير لبنان ميداناً لحرية الفكر ، فكانت صحف لبنان في العهد العثماني (بعد سنة ١٨٦٠) لا تخضع لما تخضع له اخواتها في الولايات من مراقبة . فأنمى هذا فروع الادب العربي في لبنان ، فانماز من هذه الناحية . ولكن نطاق الحرية في مصر كان اوسع منه في لبنان ، وكان اوسعَ منه فيهما في عواصم اوروبا واميركا ، فهاجر مفكرو لبنان ، وعرق الاصل نزّاز ، فكانوا في كل قطر نزلوه رسل الفصحى ودعاتها . حرّك ذلك همتهم فمضوا في طلب المزيد حتى ادركوا ما بلغوه اليوم .

فهذا مارون النقاش يعود من اوروبا ويجعل من بيته ، في بيروت ، مسرحاً تمثّل عليه اول رواية عربية ، ثم تؤلف جوقة تنتجع القاهرة فتمثّل فيها . عيون طامحة الى كل جديد ، وهمم تأبى الركود . كل هذا جار وليس هناك من يقدّر او يبالي بالادب ورجاله . لم يكن للكتاب وزن مادي في هذا العصر . فالكاتب المسعود من تفيّأ بظل اقطاعي من ذوي اليسار ينعم عنده باكله وكسوته . وان ذاق ساعة من الرغد عدّها سعادة ليس ما بعدها سعادة ، بينا يفخر الشيخ والامير ان كاتبه فلان . واليك ما كتبه الشدياق في « فارياقه » حول هذا الموضوع قال :

« انه لما شاعت براعته (اي فارس الشدياق) في النسخ ، ارسل اليه من اسمه على وزان بعير بيعر (امير حيدر التاريخ الشهير) يستدعيه لنسخ دفاتر كان يودعها كل ما كان يحدث في زمانه ،

وليس الغرض من ذلك افادة احد من العالمين ، وانما كان امساكاً للحوادث من ان تنفلت في مدار الايام ، او تنفك مـــن سلسله الاحوال ، فان كثيراً من الناس يرون ان احضار الماضي وجعله حالاً منظوراً من الامور العظيمة . ولذلك كانت الافرنج حراصاً على تقييد كل ما يقع عندهم . »

والذي عندي ان اللبناني الاول كان كالراوية العربي . والفرق بينهما ان هذا ثقفته الرواية ، وهذا فتق ذهنه النسخ . فهذا « صقر لبنان » يتطور من ناسخ الى كاتب لم يقم في عصره اعظم منـــه ولا من هو مثله . وسنعود الى هذا الكلام في محله .

اما الشعر فكان ، على ركاكته وعلى ما ينقصه من فن ، سلم المعالي . كان الرجل يتقرب به من ذوي السلطان وينال عندهم مكانة لم يكن لينالها بغير الشعر . ففي هذا العصر كان سليمان باشا والي عكا ، وداود باشا ببغداد ، ويوسف كنج في دمشق ، والامير بشير في لبنان ، كل هؤلاء — وبخاصة الامير بشير — كانوا يرغبون في ان يقال فيهم شعر ، وكانوا يجيزون عليه . وكان السلاطين ، وهم ترك ، يستلذون المديح ايضاً . وبهذا تقرّب الشدياق من ذوي التيجان واصحاب العروش ، وكانت له تلك المنزلة السامية في زمانه .

وكان الاقطاعيون يتشبهون بالحكام العظام ويقال فيهم شعر ، كما ستقرأ عن « السريّ » وشاعره فصلاً نقدياً طريفاً من فارياق الشدياق . ومرت فترة بردت فيها سوق الشعر وكسدت بضاعته ، فانطوى الشعراء على انفسهم ، واخذ يمدح بعضهم بعضاً كمن تكسد بضاعته في دكانه فيحولها الى البيت ...

فكل هذه المحاولات التي جربها اللبناني ظلت بدائية قروناً .

وكما يتعلم الولد مبتدئاً بالالف باء ، هكذا تعلم اللبناني اللغة وحاول الكتابة بها . وظل يقع ويقوم الى ان اشتدت ركبتاه ، فسار مشمراً . ان فرحات بدأ في تجنب « الركاكة » ، والشدياق تمم ، وهكذا استقامت العبارة اللبنانية وصارت كما تعلم .

والغريب ان اللبناني الذي حمل لغة العرب الى الغرب ونقل اليه تلك الثروة الثمينة الخالدة ، لم يظهر له اثر ادبي يذكر قبل هذا القرن ، كما ان مخالطة الغرب واتصاله به لم يثمرا في حقل الادب . وما اظن ذلك تقصيراً من العقول والافهام ، ولكنهم كان لا يعنيهم ذلك الامر . فالمهم كتب الدين ، والمدرسة المارونية في رومة التي كان لها اعظم اثر في تمشرق الغرب وتمغرب الشرق كانت غايتها الاولى الدين . وكذلك التمشرق كله في ذلك الزمان ، فهو لم يكن الا لاجل الدين . ثم صار اخيراً سياسي الغاية . ولا ادري ان كان يعنى به اليوم لاجل وجه العلم ام انه لاجل غزو الشرق ادبياً ... العلم عند من عنده العلم .

وفي كل حال ان هؤلاء الاوائل قد سلحوا الذرية بما نقلوه لها من اعتدة الغرب ، فنوروا الاذهان واعادوا الى لبنان مجده الفكري المفقود . وبجهدهم الاول اصبح منارة دائمة الاشعاع على هذا الشاطىء اللازوردي . فكان لبنان ، « وهو باق الى الابد ، ملاذاً لتيارات الفكر في العالم ، ومركز اشعاع للخير والحق والحب والجمال » ، كما قال صديقي الاستاذ محي الدين النصولي في جريدته[١] .

[١] جريدة بيروت ، العدد ٢٦٣٥ .

ثلاث جبهات

ابتدأ الكتاب الادبي اللبناني باحمد فارس ، حين كتب لنا « الواسطة في معرفة احوال مالطة » ، و « كشف المخبا عن احوال اوروبا » . ومن يزعم انهما ليسا كتابي ادب كان لا يعرف الا عنوانهما . فحكم كهذا لا يشبهه غير حكمنا على كتاب « الحيوان » للجاحظ قبل ان نقرأه ، ويتضح لنا انه كتاب ادب اولاً . فبين هذين الرجلين ، الشدياق والجاحظ ، قرابة ونسب . فان لم يكن الشدياق ابن عم الجاحظ لحاً فهو ابن عمه كلالة .

يحمل الدين في منقاره ، اينما طار ووقع ، جرثومة الثقافة ، فتنبت حيثما تحل ركابه . فلولا قدوم البروتستان الى لبنان ، واعتقال البطرك الماروني لاسعد الشدياق شقيق احمد ، لما فر هذا الى مصر . كان فراره نعمة اتمها القدر على نهضتنا الحديثة ، فصحح لغة جريدة « الوقائع المصرية » نواة الصحافة العربية . ولولا هجرته الاخرى الى مالطه واوروبا لم يكتب كتابيه العظيمين السابق ذكرهما . ثم قفّى على آثارهما بكتابه الخالد « الساق على الساق فيما هو الفارياق » .

اجل ، لولا تلك الثورة الفكرية التي اضرمها حلول البروتستان في الجبل بين جماعة يكادون يعتبرون القاصد الرسولي اجنبياً عنهم ، ودخيلاً على طائفتهم ، لما فر « صقر لبنان » وطوّف في عواصم

الدنيا العظمى حتى استقر اخيراً في القسطنطينية ، واصدر « جوائبه وكتبه »، فكانت حجر الزاوية في صرح النهضة الادبية الحاضرة .

ولولا هذه « الرسالة الجديدة » لما وجد المعلم بطرس البستاني، واوجد كتبه العلمية ، ومعجمه ، ودائرة معارفه . ولولا قدوم هؤلاء المرسلين ايضاً ما كانت الجامعة الاميركية ولا الجامعة اليسوعية وغيرهما من صروح لبنان العلمية الممردة .

روي عن احد رؤساء البعثة البروتستانية انه كان ذاهباً الى احدى المدن ليؤسس فيها مدرسة . ولما سئل عما وراء رحلته تلك ، اجاب : انا رائح الى ... لافتح فيها مدرستين .

يريد انه كلما اسس البروتستان مدرسة يؤسس اليسوعيون مدرسة لهم قبالتها ، فيكون قد فتح مدرستين .

كانت منافسة مذهبية فأفاد منها لبنان وازدهر العلم والادب فيه . ولكن العجب العجاب هو في هذه الطفرة الغريبة التي لم ير التاريخ لها مثيلاً . لم يكن قبل هذه الفترة الحامية الوطيس ادب عربي في لبنان . فكل ما كان هنالك ، قبل هذا الحين ، محاولات في النظم والنثر يضحك منها الضليع ويهزأ بنا لاننا نحيي ذكرها .

ان احياءها لواجب . فهي اشبه بسيرة حياة « عطّار » كان يطوف القرى حاملاً خامه وشيته ، وكمّونه وبهاره ، وابره ومسلاته ، ثم بعد حين من الزمن صار من رؤوس التجار وكبار الرأسماليين . ان طفرة الادب العربي في لبنان حذفت كلمة المستحيل من المعجم . قد ظهر في هذا القرن جهابذة بنوا لنا هذا البيت الرفيع . شبّ هذا القرن وشب معه اللسان العربي في لبنان ، فاستقامت العبارة لمفارد من رجاله لا يعنينا الآن غير ثلاثة منهم كانوا في وقت

معاً . وقد بلغ هؤلاء المجاهدون ، ادبيّـاً ، اوج بلاغتهم وثقافتهم حين اكتهل القرن التاسع عشر ، فحمي النضال على ثلاث جبهات .

رحم الله المطران جرمانوس فرحات (منصّر العربية)، فهو واضع الحجر الاول في بنيان الفصحى حين وضع كتابه « بحث المطالب » . كان مثلاً اقتدى به رجال هذا العصر جميعاً . فهذا احمد فارس الشدياق ، بعد ان يخبرنا في فارياقه هازئاً من تعلمه النحو ، نراه ، في عصر العمر ، يضع كتاباً في النحو ويسميه غنية الراغب ، على وزن « بحث المطالب » كما تسمى العقاقير اليوم على وزن واحد : ريبيازول ، سيلفاتيازول . وطبـع المعلم بطرس البستاني كتاب المطران جرمانوس ليكون في متناول الشبيبة اللبنانية . ثم جاء بعده استاذي الشيخ سعيد الشرتوني ، وعلق عـلى بحث المطران حواشيه المتممة له . وتـلا استاذنا الآخر الشيـخ عبدالله البستاني تلو الشرتوني ، ولكنه لم يتناول غير النحو ، فأقدم استاذ آخر هو نعمة الله باخوس فحقـّق الصرف مـن كتاب المطران جرمانوس فرحات وعلـّق عليه .

رحم الله رابله وغنمه !..

وقد احدث كتاب الشدياق « غنية الطالب » ضجة في النوادي الادبية ، فهبّ الشيخ سعيد الشرتوني يخطىء الشدياق في كتيّب سماه : « السهم الصائب في تخطئة غنية الطالب » . فانبرى الشيخ ابراهيم الاحدب المشهور للرد على الشرتوني في كتيّب عنوانه : « رد السهم عن التصويب وابعاده عن مرمى الصواب بالتقريب » . واليك شيئاً من مقدّمة كتاب الاحدب نـثراً ، وشعراً ، لترى كيف كانوا يجادلون ويناظرون .

« اما بعد ، فاني ما زلت منذ شعرت بمبادىء الفنون ، ووردت من معين سلسلتها ما تقرّ بـه العيون ، اتجنب الدخول في مصاف المناظرين ، واخلد عند قيام حرب المناظرة على ساقها ان اكون من القاعدين ...

« وطالما قرع سمعي تطاول قصير البـاع ، عريض القفا ، بالتعريض ، ليقع مني ، المجـادلة بجديد الكلام ، في الطويل والعريض ، فكنت انصـام عن سماع الخنا مع اني أسمعُ من سمِعْ ، واعرض عن التعرض لاولاد الزنا بما لايطيب في سمع ، حتى وقفت على اعلان في احدى الجرائد البيروتية ، نشر به قائله ما يخبث في السمع وتقبح به الطوية ، يتضمن احداث كتـاب باسهال الزمان ، ولين طبع من نسب اليه حيث انقاد الى التأليف بدون عنان . »

ثم يمضي الشيخ الاحدب في الثناء على احمد فارس حتى يقول :
« واقر بمعارفه افـاضل مصر وهم به عارفون ، وان جحد ذلك نكرة لا تطيب بالتعريف لخبث النشر من شرتون ... »

الى ان يقول : « وقد حضرت النعل للعقرب اذا عادت الى الدبيب . » اما ما قاله له شعراً فدونك شيئاً منه :

من اين تدركُ يا عادي مدى رجل ... في باب مغناه شخص العلم قد وقفا
ما صرت ياطرحَ كرم حصرماً فاذا ... من أين زببّت حتى تظهر الصلفـا
اردت تجلس في صدر على عجز ... فبان عجزك تصديراً بما عرفـا

قد نقلت هذا لاريكم نموذجاً من طريقتهم واسلوبهم وتعبيرهم . اما النقد فدونك شيئاً منه « موقتاً » . وحسبك بالحفنة دليـلاً على ما يحتويه العدل من الغلة :

« ثم قال (اي الشرتوني) ومنه قوله صفحة ٣١ (أي قول احمد فارس) في غنية الطالب : لا يوجد في العربية ساكنان في كلمة واحدة الا عند الوقف ، نحو هذا كتاب ، او في حرف لين بعده حرف مدغم ، نحو دابة ودويبة الخ ...

« فاعترضه الشرتوني : بانه خطأ بديهي لوجود ساكنين وثلاثة واربعة كيرمي ويستقصي واستغفار الى آخر ما ذكره . »

فقال الاحدب : « ليته ترك هذا الاعتراض الذي ابان عن سوء فهم ، اذ لا يشك احد بان مراده لا يلتقي ساكنان بعد قوله في التقاء الساكنين . وقوله نحو كتاب ودابة انه لا يجوز التقاء الساكنين الا في الوقف ، وفي ما كان على حده ، وهو ان يكون الاول حرف لين ، والثاني مدغماً في كلمة واحدة : كالطامة ، والحاقة . ولا نظر في قوله : او في حرف لين ، لان معناه او بسبب حرف لين . « في » تأتي للسببية كما في « الخلاصة » نحو ، دخلت النار امرأة في هرّة (اي بسبب هرّة) ، والامر جليّ لا يحتاج الى مزيد بيان[١] . »

اما الشيخ ناصيف اليازجي ففعل في النحو والصرف غير ما فعل الشدياق والبستاني والشرتوني . كان مثله الاعلى الحوك على نول القدماء ، فنظم مثلهم ونثر . كان اكبر همه ان يكون له كتاب مثل الفية ابن مالك ، فنظم كتابه « نار القرى » الذي عرف في الاوساط المدرسية بالارجوزة . لم يوفق الشيخ في « ارجوزته » كما وفق في « مقاماته » ، فهب الشيخ يوسف الاسير ينتقده نقداً

١ رد السهم عن التصويب ، ص٢٢ ، طبع الاستانة سنة ١٢٩١ هـ .

حازماً . لا بد من احاطتك علماً بان احدى هذه الجبهات الثلاث كان زعيمها الشدياق ينصره الاسير والاحدب . وسيتضح لك ذلك من رسالة كتبها احمد فارس الى نسيبه ضاهر الشدياق حين تقرأ نصها . وقد ارسل الشيخ الاسير هذا النقد الى الشدياق لينشره في الجوائب ، فلا ادري ان كان اذاعه ، او لم يذعه ، ولكنني احرزت منه نسخة ، طبع الجوائب عام ١٢٩٠ هجرية . وللنشر هذا النقد في كتاب قصة طريفة .

عنوَنَ الاسير كتابه : ارشاد الورى لنار القرى . فطبعه احمد فارس ولم يقل لمن ، مكتفياً بهذه العبارة : لمن تغنيه شهرة علمه عن ذكر اسمه . وكأنه ادرك ان ذلك غير كاف ، او انه اراد ان لا تفلت منه النكتة ، وهو حريص عليها ضنين بها ، فألحق بالكتاب ورقة ثم غلافاً كتب عليهما كليهما : ارشاد الورى في تخطئة جوف الفرا . الارشاد للاستاذ العلامة النحرير الشيخ يوسف الاسير ، والجوف لناصيف اليازجي ...

وها انا انقل لك شيئاً من مقدمة الاسير ونقده :

قال الشيخ الاسير بعد البسملة والحمدلة : «اما بعد، فاني قد اطلعت على كتاب ناصيف اليازجي المسمى بنار القرى في جوف الفرا ، فاردت بيان مبانيه ، وايضاح معانيه ، كما ترى، فشرحتها شرحاً يميز الحق من الباطل ، حيث قرنت كلامه بكلام الائمة ليظهر الحالي من العاطل . وما قصدت بذلك الا الثواب ، بارشاد مطالعه سبيل الصواب . وسميته « ارشاد الورى لنار القرى » ، وعند الصباح يحمد القوم السرى ، وها انا ذا اقول ، مستعيناً بالله وهو خير مسؤول .

قال المؤلف : « باسم الله العلي العظيم » اقول : اراد ان يخالف ليعرف ، ولكن لم يأت بما يناسب المقام ، من اسماء الله تعالى العظام ، فان مقام التأليف يناسبه الاستعانة والاسترشاد ونحوهما . الا ترى انه لا يحسن ان يقال : يا قهار ارحمني . فان كان مقصده ان كتابه مشتمل على شيء عال عظيم، فاقول انك سترى انه من سفاسف الامور وسقط

المتـــاع . فكان الصواب ، لو عرفه ، ان لا يأتي بالبسطة في اوله ، لانها لا تجوز على الامور الخسيسة ... والدليل على ذلك ان كل مقام له كلام، فينبغي للمؤلف ان يزن كلامه قبل وضعه في الكتاب ، وابرازه لذوي الالباب .

ثم قال : « الحمد لله المفرد » . لا يخفى ان الحمد لذاته تعالى وهي لا توصف بالعلم المفرد ، لان العلم، لغة، الجبل والراية ، وعرفاً اسم يعين مسماه بحسب وضعه بلا قرينة . فان قيل هو كناية عن الشهير ، قلنا : يستبرد ذلك في المقام ، فلا يقال الحمد لله الشهير . ولعله (اي اليازجي) اغتر بقول الصبان في صدر حاشيته ونصه : « ونشهد ان سيدنا محمداً عبدك ورسولك المفرد العلم»، ولا يخفى التفاوت الكلي بين الاله والعبد . على انا لو تمحلنا له بان قلنا : المراد انه اشهر من كل شيء ، بقي علينا الابهام في قوله «المفرد» لانه اسم مفعول ومعناه الواقع عليه الافراد ، ولا يجوز الاتيان باللفظ الموهم خلاف ما يجوز عليه تعالى بلا توقيف . فان قيل انه وصف للفظ الجلالة، وهو علم مفرد في عرف النحاة، قلنا : كان الصواب ان يقول : الحمد لله الذي احد اسمائه ، وهو لفظ الجلالة، علم مفرد. فان قيل يكون من الاستخدام بان ذكر لفظ الجلالة واراد معناه ، ثم اراد لفظه ، قلنا لا يخلصنا ذلك من الابهام .

ثم قال (اي اليازجي) : « اما بعد فهذا شرح سميته نار القرى على الارجوزة التي سميتها جوف الفرا ، يتكفل بايضاح معانيها على غير اسهاب ، وتوسيـــع مبانيها في اكثر الابواب . »

اقول : ليس بين جوف الفرا ونار القرى ائتلاف في اللفظ ولا في المعنى ، اما في اللفظ فلأن نار القرى انما توضع على مكان عال ليراها الضيف فيقصدها ، لا على جوف حمار الوحش . واما في المعنى فلأن نار القرى اذا وضعت على جوف الفرا ، او فيه ، كما قال في ظهر الصفحة الاولى ، يكون لذلك رائحة كريهة ولا يشوى ذلك الحمار جيداً ... لان الحمار يوضع على النار ليشوى كما هو المعروف والمألوف لا العكس .

واما قوله « يتكفل بايضاح معانيها » فالمتبادر منه انه اخبار بكفالته فيما يأتي ، وقد كان الاولى له ان يقول تكفل . وقوله « وتوسيع مبانيها في اكثر الابواب » لا يخفى ان جوف الفرا ارجوزة نظم ، ومبانيها الفاظها ، ولا يمكن توسيع الفاظها لانه لا يسعها بحر النظم حينئذ. ولعل الحامل له على ذلك انه رأى عبارة الصبان على الفية ابن مالك ، وهي قوله : « وصرفت في تحرير مبانيها وتهذيب معانيها جميع الهمة » فغير ناصيف العبارة فافسد المعنى . وقوله « في اكثر الابواب » ان رجع الى ايضاح معانيها وتوسيع مبانيها معاً يكن مفهومه : انه في كثير من الابواب لم يوضح ولم يوسع فبقيت علـــى عماها

وضيقها . وان رجع الى توسيع مبانيها يكن البعض موسعاً والبعض مضيقاً ، وان رجع الى غير اسباب كان الامر كذلك . وايا كان فهو خبط عشواء لان الشروح انما تكون على نسق واحد . وانما الحامل له على ذلك صف الالفاظ بدون تعقل ، كما قيل : فقل انا وازن وما انا شاعر . وهل من يتكلم في صدر كتابه بكلام مثل هذا يكون مؤلفاً ؟ لا سيما ان صدر الكتاب مناط الانظار حيث ان اول نظره يكون لصدر الكتاب كما قيل : الكتاب يعرف بعنوانه .

ولكن نقت الضفادع ، وسكتت البلابل النواجع ، فوأسفاه على العلم واهله ، فقد غلبهم الجاهل بجهله، وقد هشم ابن هشام، وعقل ابن عقيل في بلاد الشام، حين ظهر جوف الفرا ، وفاحت منه روائح بلا مرا ، والامر لمن له الامر. فما كان احرى جوف الفرا بالوضع على الجمر ، فان رفع قدر الخسيس اضر شيء بالنفيس، وقد مالت النفوس لسوداء العروس . وسترى ما اوضحه لك في اثناء هذا الكتاب ، بعونه تعالى ، لترى مصداق ما قلته ، وتعلم ان هذا المؤلف قد ألف مقولا وعدم معقولا ١ .

ويمضي الشيخ على رسله في نقد مقدمة الارجوزة ، حتى يبلغ نقد ابياتها الشعرية ، وهاك منه مثلاً صغيراً ، قال اليازجي :

كلمة النحاة قول مفرد باسم وفعل وبحرف ترد

قال الاسير : فقوله « كلمة النحاة » ، ولكن المتبادر انها الكلمة التي تتكلم بها النحاة، وقد اراد ان يحاكي قول ابن مالك « كلامنا لفظ مفيد » والفرق بينهما ظاهر عند ذي الذوق السليم. وقوله «باسم وفعل وبحرف ترد» اراد انها تأتي بصورة افراد الاسم والفعل والحرف ، اي انه يطلق على كل فرد من الاسم كلمة ، ويطلق على كل فرد من افراد الفعل كلمة ، وعلى كل فرد من افراد الحرف كلمة ، ولا يخفى ما في هذا التعبير من الصعوبة على المبتديء ، ولم يشرحه في نار القرى كما يجب . ولو قال : وهي اي الكلمة تنقسم الى اسم وفعل وحرف كسائر النحويين لم يرد عليه، ولكنه اراد ان يخالف ليعرف، وينسب اليه هذا المؤلف ٢ .

اظن ان هذا كاف الآن . وقبل ان ادع هذا النقد ، عليّ ان اقول لك : ان ابن ناصيف ، اي الشيخ ابراهيم اليازجي العلامة

١ ارشاد الورى ، ص ٣ – ٤ .
٢ ارشاد الورى ، ص ٧ .

الشهير ، برز الى المعركة فيما بعد . تبحّر بعدئذ في اللغة حتى صار من اقطابها ، ثم امسى حجة الكتاب في زمانه ، وقد سئل : منو استاذك يا يازجي ، فأجاب : الشدياق . يريد انه اضطر الى ذلك ليدافع عن ابيه ، وينتقد الشدياق اخذاً بثأره . اما ما دعا الى هـذه الغارة الشعواء على الشيخ ناصيف فهو ان الشيخ ناصيف اليازجي مدح الشدياق في قصيدة غراء ، ولما نشر ديوانه ، عنونها هكذا : وقال يمدح احد الادباء ، فاضطرب حبل الصداقة بين الشخصين ، شيخ الصناعة القديمة ، وشيخ الصناعة الجديدة ، فكانت معارك ادبية ساحتها الجوائب والجنان كما ستعلم . سأريك في هذا الكتـاب نموذجاً من نقدهم الادبي كما أريتك هـذه النماذج . فللشيخ الاسير نقد طريف لقصيدة اليازجي التي مطلعها :

للموت يولد منا كل مولود   يا ايها الام ربي الطفل للدود

فسماها الشيخ الاسير « الدودية » ومضى في تشريحها بيتاً بيتاً . سنريك بعض النماذج في فصل قائم برأسه عنوانه « نقد ذلك الزمان » . فان قلت لي : اكتفيت بما سبق ، قلت لـك : لا تنسَ انـك ضيفي وعليك الامتثال . فان كنت عنها ذا غنى فاغن وازدد ، كما قال طرفـة .

اما الشيخ ناصيف فما رضي بتقليد ابن مـالك ، بل كتب المقامات ناحياً نحو الحريري ، فكان كتابه مجمع البحرين . وعناه ايضاً ان يكون له ديوان شعر في الاغراض المرغوب فيها في زمانه ، فنظم شعراً كثيراً جمع في دواوين . وقد نحا في قصائد عديدة نحو المتنبي ونحو ابن دريد في الحكمة . قد برز ناصيف اليازجي في ميدان القدماء فكان للبنان حريريه وابن مالكه .

اما الجبهة الثانية فناضل عليها المعلم بطرس البستـــاني وظل حتى مات في المعركة، تاركاً للذرية محيط المحيط، ودائرة المعارف، والجنان، عدا الكتب المدرسية في النحو والعلوم الاخرى.

اعاد المعلم بطرس عهد التراجمة النصارى في العصور العباسية، فترك للغة الضاد ثروة كانت رأس مال هذه النهضة التي نعتد بها اليوم. اما اسلوب المعلم بطرس فاسلوب تراجمة المأمون وغيره من الخلفاء يتوخى التعبير الصحيح بلا تكلف ولا تزويق.

اما الجبهة الثالثة فكانت ساحاتها عواصم العـــالم، في مصر ومالطه، ولندن وباريس، وتونس والاستانة. كان قائـــد تلك الحملة «صقر لبنان»، هاجر حاملاً معه بياناً وعلماً وشجاعة ادبية. فرّ من لبنان مؤثراً العافية فسلم رأسه، وكان لنا منه اول اديب لبناني ترك ميراثاً خالداً في ادب العرب. اضاف الى ذلك التليد طريفـاً لا تذهب جدته وطرافته. ابدع واجاد، خلـّف فكانت مواليده من ابناء الحياة. وهكذا كانت الهجرة، في كل زمان، ذات فضل عميم على الناطقين بالضاد. فلولا هجرة هذا النابغة الفذ لما كانت آثاره الباقية في الادب العربي.

ان تلك المقدمات التي وصفناهـا لك، وذلك الجهـاد المنقطع النظير في الشرق والغرب، ظل امره مكنونـــاً حتى ظهر هؤلاء الجهابذة، فطفر الادب معهم طفرة يستغرب شأنهـــا المفكر في تاريخ هؤلاء الجماعة. فمن ركاكة تضحك وتبكي، الى بلاغة يرتاح لها الوجدان. جمعيات وندوات همها كلها تعزيز لسان العرب والتصنيف في كل ضرب من ضروب العلم.

هذا المطران يوسف الدبس يؤلف ندوة علمية ادبية كما فعل

من قبل المطران فرحات في حلب . وهذا اديب اسحق يهز المنابر بفصاحته ولسنه . وهذه المدارس الوطنية تشاد هنا وهناك . وهذا فان ديك ينتصر للسان العرب وينشق عن قومه الاميركيين لانهم لم يجعلوا العربية لغة التعليم في كليتهم . وقد كان الشدياق سيد الموقف ، تجوب جوائبه البلاد ، وتنشر مطبعتها آثار العرب الخالدة . فاسمح لنا اذن ، ايها القارىء العزيز ، ان نعرفك بالشدياق ونوثق عرى الصداقة بينك وبينه ، بعد ما وصفنا لك عصره مدنياً ودينياً لان ادبه متصل بعصره كل الاتصال ، وهو طريد السلطتين المدنية والدينية .

ها هو يسكت سكوت السمكة عن اسير مالطة (الامير بشير) ، مع انه كتب كتاباً برأسه عن مالطة ، وكان هو فيها حين جاءها الامير بشير منفياً اليها . ان هذا ما يحيرني ...

لقد أريناك بكل تواضع ركاكة الاجداد ، فاسمح لنا ان نريك اين صار الاحفاد . اقبلها منا ولا تعدها تبجحاً وعنجهية . فما هي غير حقيقة ادبية . واذا لم نقر نحن بفضل السلف تهاون بنا الخلف ، وهناك البليـــة العظمى ، فنكون كما حكى الجاحظ في كتابه « الحيوان » عن الملوك الذين كان يهدم بعضهم آثار بعض . اللهم حبب الينـــا الحق والعدل ، واخمد في صدورنا نار الاثرة والطمع والحسد .

جبار القرن التاسع عشر

احمد فارس الشدياق

قطب الادب العربي في القرن التاسع عشر ، ومحيي الموؤدات من أوانس لغة الضاد وعوانسها حتى عجائزها . اوتي قوة الابداع فأحيا ، في « الفارياق » و « كشف المخبا » و « الواسطة » ، عهدَ جاحظ الدهر . اوحى اليه احياء الليالي بالمطالعة اسراراً لغوية لم تنفتح مغالقها لغيره ، فكتب « سر الليال في القلب والابدال » و « منتهى العجب في خصائص لغة العرب » . وجرت السياسة في دمه الموروث عن جدوده فجلى في ميادينها ، حتى سامر السلاطين والملوك والوزراء بعد ما قال عن نفسه في الفارياق : « كان مولد الفارياق في طالع نحس النحوس ، والعقرب شائلة بذنبها الى الجدي والتيس ، والسرطان ماش على قرن الثور . وكان والداه من ذوي الوجاهة والنباهة والصلاح ، الا ان دينهما كان اوسع من دنياهما ، وصيتهما اكبر من كيسهما ، وكان لطبل ذكرهما دوي يسمع من بعيد ، ولزوابع شأنهما ثناء يثور في الجبال والبيد . ولتكرير العفاة عليهما ، واعتشاء الوفود لديهما ، تعطلت سبل دخلهما ، ونزحت بئر فضلهما فلم يبق فيها الا نزازات يلقى فيها المخفق المحروم سداداً من عوز ، فكانا يجودان به ايضاً من عوز السداد ... فلذلك لم يعد في طاقتهما ان يبعثاه الى الكوفة او البصرة ليتعلم العربية ، وانما جعلاه عند معلم كتّاب القرية التي سكنا فيها .

وكان المعلم المذكور مثل سائر معلمي الصبيان في تلك البلاد ، في كونه لم يطالع مدة حياته كلها سوى كتاب الزبور ، وهو الذي يتعلمه الاولاد هناك لا غير . وليس قولي انهم يتعلمونه مؤذناً بانهم يفهمونه . معاذ الله ، فان هذا الكتاب مع تقادم السنين عليه لم يعد في طاقة بشر ان يفهمه . وقد زاده ابهاماً فساد ترجمته الى اللغة العربية وركاكة عبارته ، حتى كاد ان يكون ضرباً من الاحاجي والمعمّى[١].»

ثم امتهن الشدياق النساخة كما اشار معلمه على ابيه ، فكان ناموس بعير ببعر (امير حيدر) . واخيراً مل تلك المهنة « ملل العليل من الفراش ، فاجتمع بصديق له وخاضا في حديث افضى الى ذكر المعاش ، فاجمعا رأيهما على ان يستبضعا بضاعة ويقصدا ترويجها في بعض البلاد ، فاكتريا حماراً لحمل البضاعة ، وهو لا يستطيع حمل جثته من الهزال ، ولم يكن قد بقي منه شيء شديد سوى نهاقه وزعاقه ، فالاول للاستعلاف ، والثاني لمن ينخسه ، او يلقي عليه الاكاف . ثم سارا وهما يفصلان ثوب النجاح على قامة الآمال ، ويقدران بساط الفوز على ندحة الآجال . فما بلغا طيتهما الا والحمار على شفا جرف هار من رمقه ، والفارياق زاهق الروح من تعبه وقلقه ، نادم على ترك القلم الضئيل ، معما كان ينفث في الرزق القليل ... هكذا كانت حال الفارياق ، فانه لما احس بضنك السفر تبين له ان شق القلم اوسع من حقائب البياعة ، وان سواد المداد ابهى من الوان البضاعة ، وان في ترويج السلعة

١ الفارياق ، طبعة مصر ، جزء ١ ، ص ١١ – ١٧ .

لمرة دونها معرة الغدة والسلعة ، فجزم بانه عند الاياب الى وطنه يرضى بلين العيش وخشنه ، ولا يبـالي اذا لم يكن ذا شارة رائعة ، او معيشة واسعة ، بحيث لا يجوب امصاراً ولا يتلو حماراً[١]. »

وبعد جولان عدة قرى ، ليس فيهـا من مأوى ولا قرى ، وبعد مجادلات مع الشارين طويلة ومحاولات ومصاولات وبيلة ، قنع الفارياق وشريكه من الغنيمة بالاياب ، ورضيا باللقاء والعود الى المآب ، وعلم ان البئر الفارغة لا تمتليء من الندى ، وان التعب في تجارتهما يذهب سدى ، فتسببا في بيع البضاعة بقيمتها كيلا يشمت بها من ينظرهما راجعين بماهيتهـا ... ثم انهما رجعا بثمن البضاعة وبالحمار وسلما المال لصاحبه ، فعرض عليهما سلعـة اخرى فأبيا ، وتواعدا على ان يجتمعا مرة اخرى للشركة في مصلحة اهم ، وآثرا ان تكون في البيع والشراء ، فقر رأيهما على ان يستأجرا خاناً على طريق مدينة الكعيكات ، حيث ترد القافلة منها الى مدينة الركاكات ... فاستبضعا ما يلزم لهما من الميرة والادوات ، ولبثا فيه (الخان) يبيعان ويشتريان بما تيسر لهما من رأس المال وذنبه ، فلم تمض عليهما برهـة وجيزة حتى انتشر صيتهما عند الواردين والصادرين ، وعرف رشدهما جميع المسافرين ، فكثيراً ما انتاب خانهما اهل الفضل والبراعـة ، والوجاهة والاستطاعـة حتى كأنه كان حديقة ينفرج فيها المكروب .

وصار الخان ملفى لاهل الجدل والمناظرة التي كثيراً ما كانت تؤدي الى التناطح والتساور ، ولكن « الفارياق » وصاحبـه كانا

١ الفارياق ، ص ٤٦ – ٤٧ .

يقومان فيهم مقام فيصل ، فمن هذه الحيثية كثرت الوفود عليهما ، وكثيراً ما بات عندهما اصحاب العيال ، والراح عليهم دائرة ، والاغاني متواترة ، والوجوه ناضرة ، والعمائم متطايرة .. فكان ذلك داعياً الى خصام النساء مع بعولتهن[١] .

وبعد اقامة الفارياق مدة على الحالة التي ذكرناها ، جرى بينه وبين جده من النزاع والمناقشات ما اوجب عليه ترك ما كان فيه ، واقتفاء طريق آخر من طرق المعاش ، فتاح له ان يكون معلماً لاحدى بنات الامراء . فلبث يعلم سيدته الصغيرة ، وجعل من دأبه ان يتودّد اليها باغضاء النظر على اصلاح غلطها ، بل لم يكن يرى ان صاحبة هذا الجمال يجوز ردّها ، فتأخرت هي في العلم وتقدّم هو في الهوس[٢] .

ثم عاد الفارياق الى حرفته « النساخة » وان كان ذلك على غير مراده . وظل كذلك ينتقل في الاعمال والاشغال حتى نكب باخيه اسعد ، فترك البلاد .

هذه هي الصفحة الاولى من تاريخ حياة الشدياق كما رواها لنا في « الفارياق » ، وقد اوجزت جداً ، وإلا كان عليّ ان انقل مئة وخمسين صفحة من ذلك الكتاب . اما طريقة ترجمة الحياة المألوفة ممزوجة بشيء من عملي فاليكها .

هو فارس بن يوسف بن منصور بن جعفر شقيق بطرس الملقب بالشدياق ، من سلالة المقدم رعد بن خاطر الحصروني الماروني الذي

١ الفارياق ، طبعة القاهرة ، ص ٤٨ و٤٩ و٥٠ .

٢ الفارياق ، ص ٦٢ .

تولىّ جبة بشري في القرن السابع عشر .

كان « الشدايقة » في لبنان ، وخصوصاً في شماليه ، اكثر من الهمّ على القلب . فكل من لبس الغنباز شدياق ، وكل من شك دواة في زناره شدياق ، ناهيك بان هذا اللقب كان يطلق على كل طامح الى خدمة المذبح . واحمد فارس هو ابن واحد من هؤلاء . نشأ في لبنان ، وشبّ في مصر ومالطة ، واكتهل في باريس ولندن وتونس ، وشيّخ وهرم في القسطنطينية ، ومات فيها ابن ثلاث وثمانين . لم تحوجه الثمانون الى ترجمان كقول ذاك الشاعر ، ولم يأخذ الهرم من ذلك الرأس شيئاً فبقي العود نضراً ، وظلت النفس خضراء ، كما كتب عنه جورجي زيدان في كتابه مشاهير القرن التاسع عشر ، قال :

« قدم مصر وقد شاخ وهرم (١٨٨٦) واتيح لنا مشاهدته وقد علاه الكبر ، واحدق بحدقتيه قوس الاشياخ ، واحدودب ظهره ، ولكنه لم يفقد شيئاً من الانتباه او الذكاء ، وكان الى آخر ايامه حلو الحديث ، طلي العبارة ، رقيق الجانب ، مع ميل الى المجون . وقد لاقى في اثناء اقامته بمصر (هذه المرة) حسن الوفادة ، فزاره الوزراء والعظماء ، وتشرف بالمثول بين يدي الخديوي ، فأكرمه ولاطفه وذكر خدمته للشرق . »

عاش المكاري العطّار ، وصاحب الخان ...

ولد الشدياق في عشقوت (كسروان) سنة ١٨٠٤ ، وترعرع في حدث بيروت ، وتتلمذ في مدرسة عين ورقة الشهيرة ، ثم لاخيه اسعد . قال الشعر قبل العاشرة من عمره ، واولع بمطالعة الفصيح من كلام العرب والتبحر في معاني الالفاظ ، فانجلت له حكمة

الواضع فكتب كتـابه الشهير «سر الليـال» الذي يحق له ان يردد من اجله قول المتنبي : وكم لظلام الليل عندي من يد .

مات والده ولما يشب ، فجوّد حظه وشرع ينسخ الكتب له ولغيره ، وعكف على مكتبة والده يطالع ما فيهـا من كتب قديمة ، فحصّل هذه الثروة الادبية من النساخة والمطالعة وكأنه قرأ قول الحريري :

أفّ لرزق يرتجى من شق تلك القصبه

فانحرف الى ما ذكر من حرف ، فاخفق فيها جميعها وملها .

واخيراً عـاد الى مهنته الاولى كما روى . ولمـا توفي اخوه ، اسير البطرك الماروني في دير قنوبين ، خاف هو الاخر على نفسه ، فعاف البلاد مغاضباً ناقماً على السلطتين المتعـاضدتين . وقد تكون هذه النقمة اول العوامل التي تفـاعلت في نفس هذا النـابغة فولدت «الفارياق» كتاب احمد الباقي .

أمّ مصر ليكون استاذ اللغة العربيـة للمرسلين الاميركيين ، فانكب هناك على درس اللغة العربية فبلغ اعمق اعماقهـــا على بعد قعرها . عهدت اليه الحكومة المصرية بتحرير جريدة الوقائع فرقى لغتها وظهرت اثار البلاغة فيها ، فنبغ واشتهر . وفي هذا يقول اخوه طنوس : «وفيها ، اي سنة ١٨٢٥ ، سافر فارس الى مصر ، وخدم عند محمد علي في القلعـة لاجل اعراب الوقـائع اليومية لطبع البلاطة[١] .»

وفي مصر تزوج بنت الصولي من اكابر وجهـاء السوريين

١ تاريخ اعيان لبنان لطنوس الشدياق ، ص ١٩٧ .

وان شئت تفصيلاً وافياً لهذا الزواج فخذ الفارياق ، فاحمد كريم لا يبخل . اقرأ ذلك ولا تخف ان تتنجس .

ان احمد فارس سليل بيت عريق له ضلع في الحكم ، فالشدياق بطرس كان دهقاناً ومحاسباً في عهد الامير حيدر سنة ١٧١٥ ، ثم صار مديراً لولده الامير ملحم ، وفي سنة ١٧٢٩ غضب الامير عليه فانتحر في سجنه وضبط الامير املاك بيت الشدياق .

وفي سنة ١٧٦٨ مات الامير قاسم عمر الشهابي ، واقام منصوراً الشدياق وصياً على ولديه حسن وبشير (الامير بشير الكبير) . ثم آلت الولاية الى الامير حسن ، فدعا يوسف بن منصور الوصي الى خدمته ، فاستعاد داره التي ضبطها الامير ملحم ، واستوطن عشقوت في مقاطعة كسروان . وفي تلك الدار ولد احمد فارس . ثم دارت الايام دورتها وتعكر « صفو خاطر » الحاكم ، فنزح ابو احمد فارس الى حدث بيروت ، ثم باع داره في عشقوت الى ابناء المير يوسف الذين سمل اعينهم عمهم المير بشير كما مرّ بك في الفصول الاولى .

فلا تستبعد اذن ان يبرز احمد في اصدار « الوقائع المصرية » ، ويفوق كل شرقي ، فيما بعد ، في سياسة « الجوائب » ، فهو من بيتٍ خبر دخائل السياسة ، وفي هذا يقول فارياقه :

« كان ابو الفارياق آخذاً في امور ضيقة المصادر ، غير مأمونة العواقب والمصاير ، لما فيها من القاء البغضة بين الرؤوس ، وشعب اهل البلاد ما بين رئيس ومرؤوس . فقد كان ذا ضلع مع حزب من مشايخ الدروز ، مشهور بالبسالة والنجدة والكرم ، غير انهم كانوا صفر الايدي والاكياس والصندوق والصوان والهميان

والبيوت . ولا يخفى ان الدنيا لما كان شكلها كروياً كانت لا تميل الى احد إلا اذا استمالها بالمدوّر مثلها ، وهو الدينار ، فلا يكاد يتم فيها امر بدونه الخ[١] ...»

وقد جرّت هذه الحزبية الى نكبات دامية كما روى الفارياق :
« وكان ابو الفارياق بمن يحاول خلع الامير الذي كان وقتئذ والياً سياسة الجبل ، فانحاز الى اعدائه ، وهم من ذوي قرابته (الضمير يعود الى الامير) ، فجرت بينهم مهاوش ومناوش غير مرة . وآل الامر بعدها الى فشل اعداء الامير ، ففرّوا الى دمشق يلتمسون النجدة من وزيرها فوعدهم ومنّاهم ... وفي تلك الليلة التي فرّوا بها هجمت جنود الامير على وطن الفارياق (حدث بيروت) ففرّ مع امه الى دار حصينة بالقرب منها ، وهي لبعض الامراء ، فنهب الناهبون ما وجدوا في بيته من فضة وآنية ، ومن جملة ذلك طنبور كان يعزف به اوقات الفراغ[٢] .»

ورجع الفارياق مع امه الى البيت فوجداه قاعاً صفصفاً ، ثم رد الطنبور عليه بعد ايام . اعطاه من نهبه لقسيس تلك القرية كفارة عما نهب . ففرح به الفارياق ، ولكنه عندما جاء خبر ابيه تفطر قلبه لهذا الفجع ، وودّ لو بقي الطنبور عند ناهبه .

اذن ، لم يصف الجو للشدياق الا حين فر من لبنان ، ولم يلحقه ظفر جارح كعبد الحميد ، فعاش طويلاً للادب . ففي ظلال ذلك الوادي الامين طفق الطائر يغرد آمناً مطمئناً . واعجب الناس

١ الفارياق ، ص ٣١ .
٢ الفارياق ، ص ٣٣ و٣٤ .

ترجيعه فاجترأ ومضى على سننه يعبث بالعرف والعادة والتقليد .
ومدّت الاقدار يدها الجبارة فاذا بالشدياق في مالطة حيث اقام اربعة عشر عاماً يدرّس الاميركيين المرسلين العربيـة ، ويصحح ما يطبعون من كتب ، مكافحاً « الركاكة » ما استطاع الى ذلك سبيلاً وهناك ألّف كتابه « الواسطة في احوال مـالطة » الذي قال فيه جبر ضوميط في كتابه « فلسفة اللغة العربية وتطورها » :
« وجد الشدياق فوجد كتاب « الواسطة » وكتاب « كشف المخبا » وسائر كتاباته الادبية البالغة مبالغها من الطلاوة والحسن . »
واستدعته وزارة خارجية انكلتره ليعاون الدكتور « لي » في ترجمة التوراة وتنقيحها ، فأقـام في لندرة وضواحيهـا سنوات ، فوصفها لنا اطرف وصف في « كشف المخبا » . وقد جاءت ترجمته للتوراة اصح الترجمـات بشهادة علاّمة زمـانه المطران يوسف الدبس الشهير اما شيخنا الشدياق فلم يكن راضيـاً كل الرضى عنها ، وقد وصف لنا ما كان يعترض طريقه عند الدكتور لي .

اظنك قد سئمت خطط الترجمات ، رغم محاولتنـا مزجها بما يجعل لقمتها سائغة ، فالافضل ان تقرأ شيئاً مما كتبه الشدياق عن ذلك . قال الشدياق يصف لنا موقف الدكتور لي من الترجمة :

« وفي مثل قولنا : ضرب لهم مثلاً ، كان (اي الدكتور لي) يبدل ضرب بقال ، لانه كان يترجم في عقله لفظ ضرب الى لغته فلا يجد له معنى سوى ايصال الالم . وكان يبدل علم اعتقـادهم برأي اعتقـادهم ، ويزعم انها ابلغ في المعنى ، وان الاعتقـاد ليس بمرادف للايمان ، فانه انما ينظر الى اصل اشتقاقه وهو العقد وهو غير مفيد معنى الايمان . وكان يبدل ماء البحر بمياه البحر ، وهذا

لا محظور منه الا ان تبديله هوس . وكان يزعم ان لفظة المعجزات ليست من كلام النصارى حتى وجدناها في نسخة رومية .

« ومن اشد وساوسه تجنبه للسجع والتركيب الفصيح غاية ما امكن ، حتى انه زعم ان ما في الترجمة من قوله : « خرجتم اليّ بعصيّ كاصّ » هو سجع ، وحاول تغييرها فلم يقدر ، فتركها وهو آسف ... وكذا وهمه في : نلت خيراتك في حياتك . وفي : وكان هناك قطيع من الخنازير كبير . فكان يقول : هو من السجع الذي يجب مجانبته في كلام الله تعالى .

« وكلما رأى جملة تنتهي بالواو والنون ، والياء والنون ، قال انها مضاهئة لكلام القرآن فيبدلها . حتى انه رأى هذه الجملة وهي : وانتم على ذلك شهود ، فقال : ان هذا الوقف يشبه وقف القرآن ، فمن ثم بدلها بقوله : وانت شهود على هذا . ووجد عبارة اخرى وهي : وما اولئك بعابرين من هناك الينا ، فقال : هذا التركيب فصيح ، فبدل عابرين بيعبرون . ولم اتعجب من تغييره وانما تعجبت من انه شعر بحسن هذا التركيب .

« وكان يحاول ان يقال : واتفق انه قال ، واتفق انه افتكر . فقلت له : هذه لا يصح استعمالها مع الافعال التي لا تقتضي الندرة في الاستعمال ، فلا يقال مثلاً : جاءني فلان واتفق انه جلس . فانه لا ندرة في الجلوس بعد المجيء . فقال : واين انت من المحافظة على الاصل ؟

« والذي ظهر لي انه فضلاً عن كونه شديد التعصب للتوراة فانه كان يتقي لوم خصمائه ، فانه كان ذا خصوم كثيرة ... الا انه لاحمق اكثر من ان يترجم من لغة الى اخرى بعين الالفاظ

والتراكيب ، اذ لا يتصور بالبـــال ان لغة تطابق اخرى في التعبير . فكيف يمكن ان يقال بالعربيـة : خرج الدخان من مناخر الله ، كما يقال بالعبرانية ، او احشاء الله كما يقال باليونانية[١] .»

وبعد ان اقام الشدياق في لندرة وضواحيها سنوات ، غادرها الى باريس تاركاً فيها فلذة كبده (ابنه فائز) مدفونة في احدى ضواحيها ، وقد رثاه بقصيدة منشورة في الفـارياق . وفي باريس طبع كتابه الفارياق ، وفي لندن وباريس ألف « كشف المخبا » فلم يترك شيئاً يقال ولم يقله . كان قوي الملاحظة ، شديد وطأة النقد لا يرحم ولا يحابي .

عاش في اوروبا ومالطة عربي اللباس . فكان فرجة للناس كما انبأنا في فارياقه . وتعلم اللغتيـن الفرنسيـــة والانكليزية في هـذه الاثناء ، وألـّف فيهما ، وتعرف باكابر علماء اوروبا وشعرائها وخصوصاً لامرتين ، فزوده بكتاب توصية عندما قام برحلته الى الشرق . ولكن لامرتين لم يحفظ له اليد ، فتخلى عنه في ضيقته ، حتى انه لم يجبه ، فيما بعد ، على كتاب بعث به اليه . وفي غضون اقامته بباريس ألف « سر الليال » و « الجاسوس على القاموس » و « منتهى العجب » .

وشاء الحظ ان يبتسم له بعد ذاك الجفاء ، فزار باريس احمد باشا باي تونس ، واحسن الى فقرائها بسخاء . فمدحـــه الشدياق بقصيدة اولها « زارت سعاد » . ثم بعث بهـا اليه بعد عودته الى بلاده ، ففتن بهـا الباي ، وارسل يستقدمه اليه عـلى سفينة نارية وجهها خصيصاً ليبحر الشدياق وعائلته عليهـا ، فـذاق لاول مرة

١ كشف المخبا ، الطبعة الثانية ، ص ١٢٣ – ١٢٤ .

طعم المجد الذي تاق اليه حين فتح ذاك الخان الكائن بين مدينة الكعيكات، ومدينة الركاكات... فعجب لهذا الاكرام العظيم وقال: لعمري ما كنت احسب ان الدهر ترك للشعر سوقاً رابحة [١].

وجاء تونس فغرق في نعمة الباي. قلده اسمى المناصب، وعهد اليه برئاسة تحرير جريدة الرائد التونسي ومديرية المعارف. ثم أسلم وتسمى احمد، وتكنى بابي العباس. وطار صيته في الشرق والغرب فطمعت الاستانة به، فطلبه جلالة السلطان من سمو الباي، فجاء الاستانة مكرماً مبجلاً بعد سيره وراء ذلك الحمار بين بسوس وبشامون وعين عنوب وغيرها. فها هو في قصور اسطمبول ينعم غارقاً بين الزهور والعطور بعد ما كان يسير خلف حمار وصفه بقوله:

«لا يتحرك الا اذا احس بالعلف، وان يكن زواناً، ولا تظهر فيه الحيوانية الا اذا رأى اتاناً، فيريك حينئذ سموهاً واستناناً، ونشاطاً وحمياناً، حتى كثيراً ما كان يقلب حمله ويفسد عدله. وفيه خصلة اخرى وهي انه كان دائم الاحداث على قلة اعمال ضرسه، مواصل الغفق في النجوة والخفض زيادة على نحسه، فان منشأه كان في بلاد يكثر فيها الكرنب والفجل والسلجم، واللفت والقرنبيط كبعض بلاد العجم. فلهذا اعتاد على اخراج هذه الرائحة من صغره، وزادت فيه بازدياد عمره. فكان لا بد للماشي خلفه من سد انفه، والاكثار من أفه [٢].»

١ . الجامع المفصل، ص ٥٣٥ .

٢ الفارياق، ص ٤٨ .

وتولى الشدياق في الاستانة تصحيح الطباعة الشاهانية سنين . وكان الباب العالي موطأ له ، فقربه السلطان وانعم عليه بالرتب السنية والنياشين السامية . ونال مثل ذلك من الدول العظمى .

وظل طول عمره محافظاً على الرعوبة الانكليزية ليتّقي بها غدر رجال الدولة العثمانية لان هواه السياسي كان مع مصر وذلك يتضح من عبارة كتبها في رسالة الى نسيبه ضاهر الشدياق بالخط الكرشوني خوفاً من الاطلاع عليها . وهذا منطوقها العربي :

« اني ، يا ولدنا ، ليس لي تعلق بهذه الدولة اصلاً ، لاني لست في خدمتها ، واكبر اعدائي هو ناظر الخارجية ، فاذا كان هذا المتصرّف من حزبه ، وعرف ان في خدمة الحكومة اللبنانية بعضاً من اقاربي طردهم لا محالة . »

وفي عبارة اخرى في الرسالة عينها وهي مكتوبة بالكرشوني ايضاً « سبب كون ناظر الخارجية عدوّاً لي كونه عدو افندينا الخديوي [1] »

وفي سنة ١٨٦١ اصدر جريدته « الجوائب » فملأت شهرتها الشرق والغرب ، فصدرت امهات جرائد اوروبا عن رأيها في السياسة الشرقية ، ولقبت صاحبها بالسياسي الشهير والصحافي الذائع الصيت . وظل يصدرها حتى قضت الحوادث السودانية بوقفها سنة ١٨٨٤ . اما الشدياق فظل منعكفاً على التصنيف حتى آخر ساعة من عمره ، فكان منه كما قال عنه المستشرق الانكليزي الاستاذ

١ تجد صورة هذه الرسالة كاملة بخط الشدياق في « المكشوف » ، السنة الرابعة ، ص ١١ ، العدد ١٧٠ ، في ١٧ تشرين الاول ١٩٣٨ .

جيب : « احد الابطال العظام المدافعين عن الاسلام . »

وفي صيف سنة ١٨٨٧ مات في مصيفه بقاضي كوي ، بعد ارجاعه من مصر بارادة سلطانية . فكان لموته صدى عظيم في الشرق والغرب ورثاه الكبراء والعظماء والصحف على اختلاف لغاتها ، ومثّل جلالة السلطان عبد الحميد في مأتمه . وقد نعته هافاس الى العالم بتاريخ ٢٢ ايلول : « توفي مساء امس المرحوم احمد فارس الشدياق الشاعر العربي المجيد والكاتب الشهير عن ٨٨ سنة وستنقل جثته الى لبنان لتدفن هناك . »

وجاء في دائرة المعارف للبستاني : وصدرت الارادة السنية بدفنه في تربة السلطان محمود ، فالتمس ولده سليم ان يدفن في جبل لبنان عملاً بوصيته ، فأذن بذلك .

واليك وصف مأتمه في لبنان كما جاء في جريدة « لسان الحال » التي اخذنا عنها حرفية برقية هافاس السابقة :

« نشرنا في العدد الماضي البرقية المنبئة بنقل جثة مَنْ تآليفه وتصانيفه انتشرت في القارتين آسيا وافريقيا ، العلّامة الشهير احمد فارس الشدياق ، لتدفن في قرية الحدث من لبنان مسقط رأسه . وفي هذا الصباح بعد ان رست الباخرة النمسوية ونقلت الجثة منها الى البر ، كانت الخلق جماهير لا تحصى ، وفي مقدمتهم صاحب الفضيلة عبد الباسط افندي مفتي الثغر ، والعلماء ، والشرط . فسير بالجثة وامامها الرايات ، والمشايخ ، ووراءهم مشايخ الطرق يهللون ويكبرون الى ان بلغوا الجامع الكبير . فبعد ان صلوا عليه وقرئت القصائد والخطب ، حمل حتى بلغوا به ساحة البرج . وهناك وضع على عجلة الاموات ليذهبوا به الى قرية الحدث

حيث يدفن في مدفن اعد له . وقد رافقه من الاستانة العلية صاحب السعادة نجله الكريم سليم افندي . وقد رثاه على الضريح الشعراء والادباء بمراث كثيرة الخ[١] ... »

قال زيدان : « وبالحقيقة ان الرثاء ، وان كثر ، قليل في جانب ما يليق بمقام الفقيد . »

هذا هو الشدياق الذي نتحدث عنه . كان في حياته حديث عصره ، وهو ، بعد كرّ السنين على وفاته ، حديث حسن لمن وعى .

١ لسان الحال العدد ٩٩٧ ، ٦ تشرين الاول ١٨٨٧ .

تآليف الشدياق

سر الليال في القلب والابدال ، الجاسوس على القاموس ، كشف المخبا عن فنون اوربا ، الواسطة في معرفة احوال مالطة ، الساق على الساق فيما هو الفارياق ، اللفيف في كل معنى طريف ، غنية الطالب ، نحو اللغة الانكليزية ، الصرف الفرنسوي ، منتهى العجب في خصائص لغة العرب ، النفائس في انشاء احمد فارس ، التقنيع في علم البديع ، الروض الناضر في ابيات ونوادر ، رسائل ومحررات ادبية ، ديوان شعر ، مجموعة مقالات نشرت في جريدة الجوائب (سبعة اجزاء) ، اسرار طبائع الحيوان (ترجمة) ، ترجمة التوراة وتنقيحها ، كتاب حول التوراة في سبعماية صفحة (مفقود) .

هذا ما ألفه الشدياق . اما ما نشره وصححه وطبعه في مطبعة الجوائب فكثير . وهكذا نوّر العقول وثقف الالباب .

الفارياق

لقد انتهينا من الكتابة التقليدية ، فلندع القلم يمشي على سجيته وطبعه ، فاتبعني ، غير مأمور ، ولا تضع امامك الهنداوة فأنا لا اقصّ عليها . لست اقول كما يقول باحثو الادب الغربي : الرجل . حياته . آثاره ... فانا ، وحياتك الغالية ، خيّاط

مستقل ، سواء عندي وفد البريد ام لم يفد ، فليس لدفتر الازياء شأن في نظري ... انني ، كما تعرفني ، على عقلي كصاحبي هذا. فان جاء الثوب على القد فقل فيّ ما شئت ، والا فاني اذكرك ببيت بشار في الذي خاط له ذاك القباء ...

ما اقل عقل من يريدون ان يفهموا الشدياق دون ان يقرأوه ، فليس في الادب الصحيح عجائب سيدة لورد ، ولا هو تلقيح بلح . قد تعودوا اكل السندويش (الشاطر والمشطور وبينهما الكامخ ، كما سماه المجمع الملكي) . اما انا فاريد لهم الهريسة وغيرها من المآكل الصعبة النضج والهضم . فاللذة الكبرى لا تكون الا بعد تحريق الاصابع والانتظار العنيف . وما رأيت السندويش يسد جوعاً ويشبع نهماً .

ان وصف المتحف غير رؤية آثاره قطعة قطعة . ففي الزنجار الذي يموّه العاديات ايحاء يعجز عنه القلم . قد تفتن العالمَ الاثري قطعةُ فخّار ، فيجن بها ويعمى عما في المتحف من ذهب وحجارة كريمة ، غالية الثمن . سأقول شيئاً بل اشياء عن الشدياق ، ولكني اعترف لك بقلب منسحق ان درس دماغ بشري يقتضي عمراً كاملاً ، فاستنتج اذن ما شئت من خرابيشي هذه ، ثم عد الى نفسك ان كنت ممن يطمعون بالمزيد ، وادرس الرجل على بصيصها . ما قلت على نورها لانه يحلو لي جداً* ان اتواضع امام صقر لبنان ، وجبار ادباء القرن التاسع عشر .

احمد فارس الشدياق احد ثلاثة او اربعة في تاريخ الادب العربي . وقد يكون فذاً من افذاذ العالم اجمع في كتابين : الاول الفارياق الذي لم يكتب مثله شرقي ، كما يقصر عنه الكثيرون من

نوابغ الغرب ، فدافيد ديكنز و كتاب الفونس دوده Le Petit Chose أهمية بالقياس اليه ، وربما كان بينه وبين اعتراف روسو بعض القرابة الدموية ...

اما الثاني فكتاب سر الليال الذي كشف الغطاء عن ناووس اللغة العربية ، واعاد الحياة الى مومياتها ، فتنفست وعطست ، بين يدي احمد ، سبع عطسات كابن ارملة اليشع ... ومن درس هذا السفر البديع يقول مع بيفون : ليس النبوغ إلا صبراً طويلا . ولكي تفهم بعض « سر الليال » اهجر النرد والبريدج مئات ليال . ليتني أعطى من الاعمار ما تمناه المتنبي لسيف الدولة ، فادرس الشدياق عن بني امي جميعاً ، واعرفهم باخيهم وابن عمهم هذا .

ليس في القرن التاسع عشر ادب حي ، كما نفهم الادب اليوم ، الا ما كتبه الشدياق في « فارياقه » و « واسطته » و « كشف مخباه » وفصوله التي اذاعتها « جوائبه » . وانني لاضحك ممن يعد « الفارياق » كتاباً بذيئاً فيؤاخذ الرجل على احماضه ، متغاضياً عما في كتابه الطريف من حياة راقصة ، وعبرة باسمة . فهو اشبه بالعوالم التي اكتشفها باستور في نقطة الماء . فلنتتلمذ لباستور في الادب اذا كنا نحاول فهم رجل كهذا .

يقول الناس لا حياء في الدين ، وانا اقول لا حياء في الفن . وغير الفنان يرى الفن بذيئاً . فاقرأ الشدياق قراءة فنان ان رمت تعظيمه ، واقرأه قراءة اهبل ان شئت ان تصب على رأسه اقذار البوالبع . فشتّان عند احمد هذا وذاك . ألم يقل لي ولك وله في القصيدة التي نظمها وصدّر بها كتابه :

هذا كتابي للظريف ظريفا — طلق اللسان ، وللسخيف سخيفا

اودعته كلماً والفاظاً حلت ، وحشوته نقطاً زهت وحروفا
وبداهة ، وفكاهة ، ونزاهة ، وخلاعة ، وقناعة ، وعزوفا
كالجسم فيه غير عضو تعشق المستور منه ، وتحمد المكشوفا
فصلته ، لكن على عقلي ، فما مقياس عقلك كان لى معروفا
هو حصرم في طرف من يغتابه ما زال، ان ذكر اسمه، مطروفا
وحياة رأسك،ان رأسي عارف اني به لن استفيد رغيفا
لكن بقرني حكة هاجت على اني اعالج مرة تأليفا
ماراج من قولي فخذه ، وما تجد من زائف فاتركه لي ملفوفا
ارأيت ذا كرم يردّ هدية ، ويسوم مهديها له تعنيفا ؟
ان كنتُ احساناً اتيتُ ، فدونك التحبيذ لي او لا فلا تقذيفا
اثمي الى انفي يناط مدلدلاً ما ان يصيب من العباد انوفا
ولرب فسّيق اللسان مباذيء يغدو ، وقد فسق العفيف ، عفيفا
ان المصنّف لا يكون مصنفاً الا اذا جعل الكلام صنوفا ...

ويختم قصيدته التي سماها « فاتحة الكتاب » وهي مئة بيت بقوله هذا :

اني ارى كالريح في اذنيك عرف نصيحتي راحت سدى وطليفا

ألا تعلم ، ارشدك الله ، انك تضحك الناس منك ان رأيت في النظر الى تمثال الزهرة خطيئة مميتة توقعك في جهنم ؟ فالفن لا يدرس الا على فرس الوثنية ، ولا نصيب فيه لمن تهلكه خطيئة الفكر ...

قد تقول لي : الامس هو دائماً فردوسك المفقود ، وانت تبغض الاحياء ، وعرق عبادة الموتى لا يزال قويا فيك . اما انا فاسمعك ما قرأته امس عن الفن : جديد ، ايضاً جديد ، دائماً

جديد . فاقرأ جيداً هذه الكلمات فهي قاعدة الفن الاولى . ثم اخلع ذاتك التقليدية واقرأ الشدياق . ألم يجيء الشدياق في زمن كثر فيه القديد الادبي و « المصبرات » فوجهنا الى المأكل الطازج يوم كان معاصروه يتلهون بقشاشي المائدة ؟.. فما احوجنا الى نسابة ادبي يخزي شياطين الادعياء المغرضين الذين يجمعون حلف القدماء كالجمال العرج !

فالبياني ، Rhéteur كما سماه الرومان ، هو من يتكلم ويروّض الالفاظ فيقرنها الى نير الفكر ويحسن تكييفها ، ويخزها ويهمزها حتى تلين وتطيع ، ويكرهها على اشق اعماله واخطرها واندرها . فان كان هذا حدّ البياني ، وهو هذا ، كان شدياقنا هو الذي ادرك سر البيان . فاقرأ كتبه ، ولا بأس عليك من تنينها الجهنمي ، فنعمة روح قدس الفن تحفظك كما حفظتني ... سهل عليّ جداً ان اكون تيس الحطبة في هذا الموقف ، فتمسّح بي بعد قراءته لاقول لك : ايمانك احياك ، اذهب بسلام .

لم يظن الشدياق انه بلغ السموات العلى ، ولم يكن بلا عقل كالمدعين الثرثارين ، ولذلك قال لنا : « انني سأضحك من سخف عقلي حين اقرأ كتبي » . وهذا يصاقب قول كاتب فرنسي كبير : المغفل منا من يعتقد انه بلغ نهاية النهاية ، وان نظرياته مؤكد دوامها . ولكن اذا كان هدف الكاتب في الحياة ان يخلد اسمه بأثر ادبي ، كما يقول المسيو تاريف ، ناقد « الطان » ، فالشدياق قد بلغ الارب . ولنعلم جميعنا ان الادب لا يبنيه واحد فقط ، فعلى كل منا ان يضع ولو حجراً في هذه البناية العظمى .

وكما يشقى العنب فيعصر ، ويكبس ، ويغلي في الخوابي ،

محفاً ، ليصير خمرة هادئة في الكأس ، كذلك الادباء والشعراء . وفي سيرة اديبنا الاعظم ، وقد كتبها بيده ، ما يثبت هذا . فلولا شقاؤه لم نفز بهذه الآثار الخالدة .

خلقه وخلقه

قبل ان نبدأ في درس نواحي الشدياق ناحية ناحية ، يجب علينا ان نعرفك به ، فاسمع :

من ينظر الى رأس احمد فارس في صورته يحسب انه امام جبار ، عبل الشوى كحصان عنتر . ولكن من يقرأ شعره يعلم انه اقل من مربوع . وان تقل قد يبالغ الشاعر ، قلنا لك افتح الفارياق فتقرأ : قـد كنت اظن ان صغر جثتك ، يا فارياق ، لا يكون موجباً لانشاء تأليف كبير الحجم مثل هذا . واقسم انك لو تأبطته ومشيت به خطى على قدر صفحاته لنبذته وراءك وشكوت منه ومن نفسك ، اذ كنت انت السبب فيه [1] .

وبعد ، فالرجال لا تباع بالذراع ولا تقاس بالقدم الانكليزية . والذي يتراءى لي من قراءة الرجل انه متطرف في كل شيء : متطرف في اجتهاده وجهاده ، متطرف في عزمه الذي لا يكل ولا يمل ، متطرف في مطالعاته ، متطرف في تأملاته ، متطرف في تعبيره وتفكيره ، يتخطى كالمنطيقي الزنديق ولا يسقط في يده . تسوؤه اقل بادرة ، فيشهر حرب البسوس ، وترضيه كلمة فيعفو ،

١ فارياق ، جزء ٢ ، ص ٢٨٢ .

واذا بالماضي قد مضى . يخلص لاصحابه الود ، ويغفر لمن اساء اليه ان استعطفه متذللا . الغريزة الجنسية عنده ملاك الحياة ، فهو لا يعنيه من هذا الوجود إلا ما تدركه الحواس . اما ما وراء الطبيعة فيرى البحث فيه تهليساً ومهارشة . حبه لعائلته يفوق الحد ، وقد عبر عنه بوعظه الامراء في « فارياقه » ، وظهر لنا جلياً في حزنه وبكائه على ولده فائز حين قابل الدكتور لي .

لا يؤمن بالوحي ويخطىء ما لا يسلم به العقل . ولو كان اليوم لضحك من ادبائنا الموسوسين الذين يفتشون عن الله والآخرة ... جاء احمد قبل وقته فقاسى آلاماً وعذاباً ، وقال شيئاً وترك اشياء كانت تجول في صدره وبين تلافيف دماغه الكثير الاكافيف ...

فالمحيط البيتي والبلدي وتلك النكبات المتتالية جعلت منه هذا الساخط الحانق ، ومن طبعه انه يجيد الكلام متى حنق . اوتي قوة استطراد عجيبة فكانت سلاحه الماضي في منازلة خصومه . قد يكون حب المجون والاحماض من طبعه ، ولكن مكتبة والده التي عكف عليها صغيراً ، وهي حافلة بالكتب العربية القديمة كالكشكول والمستظرف وغيرهما ، قد انمت هذا الذوق ، ثم عزز هذا الميل فيه النسخ والقراءة فجاء صارخاً عجاجاً .

الشدياق الكاتب

كاتب اهتدى الى ذاته العظمى ، وكان مغامراً فلم يخف على اسلوبه من الموت ، فارسله في العالم العربي ، غير مبال بضواطير الادب ، ولا بمن صدئت عقولهم لنومتهم العبودية في اقبية التقاليد .

كان معلّم الجيل في تآليفه الكثيرة ، ومحدثهم الدائم في « جوائبه » . اوتي قوة الاختراع ، فعبر عن فكره الطريف باسلوب ظريف . فهو مخترع ابداً حتى في الفصول السياسية ، والاخبار المحلية . مبتكر في التعبير خاصة . خلق منطيقياً جدلياً فجاء فارياقه ملآن بالتعابير الفجائية التي يسوق اليها الحوار . لم يفته شيء من الاصول الفنية فادرك ان ما انطق به زوجته لا يتفق وعلمها ، فاعتذر عن ذلك في مقدمة « فارياقه » الذي بناه على اساسين ، كما قال في « تنبيه من المؤلف » وهو مقدمة الكتاب :

« وبعد ، فان جميع ما اودعته في هذا كتاب فانما هو مبني على امرين ، احدهما ابراز غرائب اللغة ونوادرها... والامر الثاني ذكر محامد النساء ومذامهن . فمن هذه المحامد ترقي المرأة في الدراية والمعارف بحسب اختلاف الاحوال عليها كما يظهر مما اثرت عن الفرياقية (زوجته ، وقد نسبها اليه حسب الاصطلاح القروي اللبناني) . فانها بعد ان كانت لا تفرق بين الامرد والمحلوق اللحية ، وبين البحر الملح وبحر النيل ، تدرجت في المعارف بحيث صارت تجادل اهل النظر والخبرة ، وتنتقد الامور السياسية ، والاحوال المعاشية في البلاد التي رأتها احسن انتقاد . فان قيل انه قد نُقل عنها الفاظ غريبة غير مشهورة لا في التخاطب ولا في الكتب ، فلا يمكن ان تكون قد نطقت بها ، قلت : ان النقل لا يلزم هنا ان يكون بحروفه وانما المدار على المعنى[١] . »

١ الفارياق ، جزء ١ ، ص ٣ .

ارأيت كيف ينجو من المؤاخذة كاتب مسلّح بخصلة النقد ؟ لقد انبأني ما لاحظت في آثاره الادبيـة ان مولانا الشيخ من قطّاع الطرق في الادب لا يدع سبيلاً لمتربص ، بل يسد عليه الدروب كلها . وهذا ايضاً من خواص دماغه الكبير . رأى انه يثرثر ، احياناً ، فقال في مطلع الفصل الثاني عشر من الفارياق ، وعنوانه : « في اكلة واكال » :

« لا بد لي من ان اطيل الكلام في هذا الفصل امتحانـاً لصبر القارىء ، فان اتى على آخره دفعة واحدة من غير ان تحترق اسنانه غيظاً ، او ينزوي ما بين عينيه وانفه وخشمه ، او تنتفخ اوداجه وغراً وهوجاً ، افردت له فصلاً على حدته مدحاً فيه ، وعددته من القراء الصابرين . ولكون الفارياق ، في هذا الوقت ، قد طال لسانه وان يكن فكره قد بقي قصيراً ، ورأسه صغيراً ناقصاً من عند قمحدوته ، وقد نذرت على نفسي ان امشي وراءه خطوة واحاكيه في سيرته . فان رأيت منه حمقة جئت بمثلها ، او غواية غويت مثله ، او رشداً قابلته بنظيره . والا فاني اكون خصمه لا كاتب سيرته ، او ناقل كلامه . وينبغي ان يعلق هذا الحكم في اعناق جميع المؤلفين . ولكن هيهات ! فاني ارى اكثرهم قد زاغ عن المحجة . اذ المؤلف منهم بينا هو يذكر مصيبة احد من العباد في عقله ، او امرأته ، او ماله ، اذا به تكلف لايراد الفقر المسجعة ، والعبارات المرصعة ، وحشّى قصته بجميع ضروب الاستعارات والكنايات ، وتشاغل عن هم صاحبه بما يدل على انه غير مكترث به . فترى المصاب ينتحب ويولول ، ويشكو ويتظلم ، والمؤلف يسجّع ويجنّس ، ويرصّع ويورّي ،

ويستطرد ويلتفت ، ويتنـاول المعاني البعيدة ، فيمد يده تارة الى الشمس ، وتارة الى النجوم ، ويحاول انزالها من اوج سمائهـا الى سافل قوله ... ما ذلك دأبي . فاني اذا اوردت كلاماً عن احمق انتقيت فيه له جميع الالفـاظ السخيفة ، واذا نقلت عن امير ناد تأدبت معه في النقل ما امكن ، فكأني جـالس بمجلسه ، او عن قسيس مثلاً او مطران انحفته بجميع اللفظ الركيك والكلام المختل ، لئلا يصعب عليه المعنى فيفوت الغرض من تـأليف هـذا الكتاب [١] . »

انني ارجو منك ، يا سيدي القارىء ، ان تنتبه دائماً الى الهمز والغمز واللمز حين يذكر هذا وذاك ، فهو ينتقد كل شيء في وقت معاً .. بدأ الشدياق فارياقه ساجعـاً مغرباً ليرينـا انه مستطيع ذلك ، ثم ادرك معلم الجيل ان السجع ، وهو لم يسلم منه ، مرض عصور الادب فقـــال فيه : « السجع للمؤلف كالرجل من خشب للماشي ، فينبغي لي ان لا اتوكأ عليه في جميع طرق التعبير ، لئلا تضيق بي مذاهبه ، او يرميني في ورطة لا مناص لي منهـا . والغرض هنا ان نغزل قصتنا على وجه سائغ لاي قارىء كان ، ومن احب ان يسمع الكلام كله مسجّعـــاً مقفى وموشحاً بالاستعارات ومحسّناً بالكنايات ، فعليه بمقامات الحريري ، او بالنوابغ للزمخشري [٢] . »

« اما اذا تعنت عليّ احد بكون عبارتي غير بليغة اي غير متبّلة بتوابل التجنيس والترصيع ، والاستعارات والكنايات ، فاقول

١ الفارياق ، جزء ١ ، ص ٧٣ .
٢ الفارياق ، جزء ١ ، ص ٦٠ .

له : اني لما تقيّدت بخدمة جنابه في انشاء هذا المؤلف لم يكن يخطر ببـــالي التفتازاني ، والسكاكي ، والآمدي ، والواحدي ، والزمخشري ، والبستي ، وابن المعتز ، وابن النبيه ، وابن نباتة ، وانما كانت خواطري كلها مشتغلة بوصف الجمال ... وبغبطة من خوّله الله عزة الحسن ، وبرثاء من حرمه منه ، وفي ذلك شاغل من غيره . على اني ارجو ان في مجرد وصف الجمال من الطلاوة والرونق والزخرفة ، ما يغني عن تلك المحسنات استغناء الحسناء عن الحلي ، ولذلك يقال لها غانية .

« وبعد ، فاني قد علمت بالتجربة ان هذه المحسنات البديعية التي يتهور فيها المؤلفون ، كثيراً ما تشغل القارىء بظاهر اللفظ عن باطن المعنى[1] . »

اجل ، ان انشغال بال الفارياق بالجمال ولهجه به ليلاً نهاراً خلع هذا الجمال الفني على ما خطه قلمه ، فهو ، ككاتب ، معلم عصره ، ونوابغ كتاب زمانه تلاميذه . لقد فكك القيود وحرر الاذهان من عبودية القديم ، فهوت ربوبيته عن كرسي مجدها . ولكنه وضع لتقديس القـديم حداً لا يمتهن الالوهة ، ولا يجر الى الوثنية . ولو برهنت عن اثره هـذا بسرد نتف من كلامه لملأت مجلداً ضخماً وما اكتفيت . فعد انت الى تآليف الشيخ ، وان وجدتني كاذباً فالمحاكم امامك ، وعليّ وعلى اولادي ما يلحقك من درك .

وان كان لنا شيء نؤاخذ الشيخ عليه فهو هذا القفز والجمز ،

١ الفارياق ، جزء ١ ، ص ١٥ .

فانه يفر احياناً كالقبوط . وكأن شيخنا المعظم قد ادرك ما في هذا البتر من فقدان لذة ادبية ، فقال لنا في « فاتحة الكتاب » :

ان شئت تلبسه على علاته   فاهنأ به او لا فدعه نظيفا
ولقد اجزتك سفه او لعقه   او ان تخف قيئا فخذه مدوفا
لكن حذار من الزيادة فيه او   ان تو تأي استعماله محذوفا
اذ ليس فيه من محل قابل   للحذف او لزيادة تثقيفا

واذا تخاصم كاذبان فاحية الاشـ   ـقى يغادر شعرها منتوفا

احمد الشاعر

قال احمد : وكان الفارياق يتهافت منذ حداثته على النظم من قبل ان يتعلم شيئاً مما يلزم لهذه الصنعة ، فكان مرة يصيب ، ومرة يخطىء ، ومع اعتقاده ان الشعراء افضل الناس ، وان الشعر اجل ما يتعاطاه الانسان .

وبعد فلا ينبغي ان يكون الشاعر عاقلاً او فيلسوفاً ، فان كثيراً من المجانين كانوا شعراء ، او كثيراً من الشعراء كانوا مجانين ، وذلك كابي العبر ، وبهلول ، وعليان ، وطويس ، ومزيد . وقد قالت الفلاسفة ان اول الهوس الشعر ، واحسن الشعر ما كان عن هوس وغرام ، فان شعر العلماء المتوقرين لا يكون إلا مقرزماً . فلما سمع الفارياق ذلك زهد في الشعر ورغب عنه الى حفظ الالفاظ الغريبة ، ولكنه لم يلبث ان رجع الى خلقه الاول .

ذهب مع ابيه (جابي الحاكم) الى قرية بعيدة، فأنزله اهلها

منزلاً كريماً ، فهوى جارته لانه كان غرّاً ، وانما هي استهوته واطمعته لكونها جارة . غير ان مدة اقامته هناك لم تطل ، واضطر الى الرجوع مع ابيه ، وقد بقي كلفاً بالجارية . فلما حان الفراق بكى وتحسّر ، وتنفس الصعداء ، ونخزه الوجد لان ينظم قصيدة يعبر بها عن غرامه ، فقال من جملة ابيات :

افارقها على رغم واني اغادر عندها قلبي وروحي

وهي اشبه بنفس شعراء عصره الذين يقسمون أيماناً مغلظة بانهم قد عافوا الطعام والشراب شوقاً وغراماً ، وسهروا الليالي الطويلة وجداً وهياماً ، وقد ماتوا وكفّنوا ، وحنّطوا ودفنوا ، وهم عند ذلك يتلهّون بايّ لهوة كانت . ثم انه لما اطلع ابوه على تلك الابيات الفراقية ، لامه عليها ونهاه عن النظم ، فكأنما كان قد اغراه به ، فان من طبع الاولاد في الغالب الخلاف لما يريده منهم اباؤهم [١] .

هذا ما قاله الشدياق عن نفسه اما نحن فنقول : ليته لم يعص والده ، ولكن المقدر كائن لا يمحى . لسنا نجحد الشدياق شاعريته ، فقد كانت ، والحمد لله ، قوية جداً ، وقريحته كانت اغزر ما تكون القرائح . ولو شاء ان يحكي شعراً لاستطاع ، ولكنه كان قليل التجديد شاعراً ، كثيره ناثراً . بكى الطلول كما بكوا ، وقال الغزل الكاذب مثلهم ، مع علمه انهم لفي ضلال مبين . وما اكثر ما انتقد خطتهم تلك . فالظاهر ان بين فمه واذنيه اربعة اميال لا اربع اصابع . وقد مدح وهجا ورثى وقال الشعر في كل غرض

١ الفارياق ، ج ١ ، ص ٢٩ – ٣٠ .

ومطلب .

لسنا ننكر انه كان يحاول التجديد دائماً ، حتى فكر ان يفكك اغلال القافية ، فقال اربعة ابيات مختلفة القوافي ، وصرح لنا انه فعل ذلك تهافتاً على احداث شيء غريب . واذ لم ير غريبه بدعاً امسك وعاد يجمع خلف القدماء .

اننا نعذر الشدياق على مدحه ، ففي « بانت سعاد » لم يكن كعب اعلى منه كعباً . ولو اتيح لصعاليك شعراء المناسبات جزء من مليون مما ناله الشدياق لعذرناهم ايضاً وصفقنا لهم ، ولكنهم ، ويا للخجل ! كالقرّادين يمدحون الناس ويشتهون الرغيف في يد من يضمه ويشمه كبخيل ابي نواس .

شقي الشدياق اولاً ، ثم فاز اخيراً بهذا الشعر الذي كان خير بضاعة عصره ، او سلّم المعالي كما قلنا سابقاً . « لا تنسَ اني قلت عصره » . فاسمعه يصف شقاءه ، ولاحظ ، وانت مارّ ، ما في هذه الابيات من تقليد اعمى ، وتكلف شنيع :

سميري في وجه النهار يراعة   وليلي درس الصحف من كل كاذب
فيا لك من يوم كريه صباحه   ويا لك من ليل بطيء الكواكب
كأني في حلق الزمان شجا فلم   يزل لافظاً بي ارض من لم يبال بي
أما في الورى من عادل غير عاذل   آما فيهم من صاحب غير صاحب

اما حين ضحك له الدهر بهذا الشعر ، وحمله الباي على بارجة حربية لاجل « بانت سعاد » ، قال كما مر بك : ما كنت احسب ان الدهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيها .

كان الامام متشائماً قبلما صلحت حاله ، وكثر ماله ، فشكا الدنيا قائلا .

ان تبتسم دنياك يوماً فلا — تركن اليها انها آلقه
فربما شاقك برق سرى — مبتسماً يتبعه صاعقه

ولكن الصواعق زالت ، والحمد لله ، وجاءت الديم ، وسكن الشاعر القصور الشاهقة ، في الاستانة العليّة ، بعد ذلك الكوخ المالطيّ الذي قال فيه :

تعالوا وافقهوا عني ثلاثاً — تعلمكم مراعاة النظير
خلاقي ، ثم جسمي ، ثم بيتي — صغير في صغير في صغير

وشاعرنا ماجن مهذب في شعره ، الا اذا هجا ، متهتك في نثره ، وقد عرّفنا بنفسه يوم كان شقياً :

ما زارني الا خليع ماجن — فدع الحياء اذا حضرت حصيري
ان الحياء اخو النفاق وما صفت — دون المجون سريرة لعشير

وللمرأة من ادبه ، شعراً ونثراً ، اوفى نصيب ، فهو كالحطيئة في وصيته الشهيرة : للانثى عنده مثل حظ الذكرين ... أما انبأنا في مقدمة فارياقه انه بناه على اساسين : المرأة واللغة ؟ وفي المرأة يقول متشوقاً متحرقاً :

اصبحت في غرفتي رهن الهموم فما — يعتادني غير اشجاني واوطاري
ارى لكل امرىء انثى تؤانسه — وليس عندي من انثى سوى النار

ويذكرني شقاؤه ، في اول شأنه ، ما كتبه ويكتبه الشاعر احمد الصافي النجفي . فاسمع وصف الشدياق لشقائه ذاك :

غدا بيتي كثير الفرش لما — تهلهل فيه نسج العنكبوت
فلا عجب اذا ما قلت يوماً — لكيد الناس اني ذو بيوت

ولكنه ينتقم بمقاله لسوء حاله ، فيقول ايضاً :

يراني الناس في كوخ حقير — فيحتقرون منزلتي احتقارا

فهل يا قوم عندكم المعـالي علوّ مباءة تحوي حمـــارا

والاستاذ ، الذي لا يملأ عيني شعره وخصوصــاً المدحيّ منه ، ينخدع ويقول لنا :

من ظن ان مفاعلن متفـاعلن سر القريض فجهّزن به الى ..!

ثم يسمعنا شعر المديح الذي بوّأه سدّة اعتبار واجلال يتمناهما كثيرون من رؤساء حكومات العالم اليوم ، فهل تغير يا ترى بعد الميسرة فصار كالناس الذين قال فيهم :

الناس في الدنيا على رأي اذا هم اعسروا

لكنما اهواؤهـــم شتى اذا هم ايسروا

يحدثنا التاريخ ان شاعر زمانه هذا كان لسان حـال قومه في الاستانة ، ثم اليه يرجعون . قد كان بيته مفتوحاً لهم ، ولكننا لم نقرأ شيئاً عن كرمه . اما مروءته فكانت كاملة ، فهو لم يتقـاعد عن نجدة ، ولم يتهاون بداع من ابناء جلدته .

وآخر ما نقوله في شعره انه كان جاهلياً في إغرابه ، عباسياً في مدحه ومجونه ، شامياً في تصوّره وتفكيره . حـاول التجديد في الشعر ، ثم مشى على بلاط ملوك عصره في نعال مشركة . يدل نظمه على قلة تنقيح . وهو لو نقح لنفض عن شعره هذه اللزقات الخردلية التي لا تخلو منها قصيدة ، فكأنه عدو للموسيقى الشعرية ، مع انه كان يعزف على الطنبور ، وقصص طنبوره كقصص مداس ابي القاسم ... وفي كل حال هو زين شعراء زمانه ، يضعف شعره حين يمدح ، ويسرح في المراسلة ، ويشتـد في الهجو حتى يكاد يخلو من الحشو ، فيتساقط كأنه حجارة المنجنيق .

وقبل ان ادع شاعريته التي لا اجلّ نتاجهـــا ، وان كانت

اسعدته وابنه وحفيدته التي تعيش اليومْ في انكلترا عيشة الوردات، احب ان اذكر بيتين لا يستهان بهما. قد اعجب بهما احمد حتى عدا طوره، وتخلق باخلاق ابن الاثير حين ذكرهما، فقال: وقد نظمت بيتين ما اظن احداً سبقني اليهما وهما:

لا يحسب الغر البراقع للنسا | منعاً لهن عن التمادي في الهوى
ان السفينة انما تجري اذا | وضع الشراع لها على حكم الهوا[١]

ولا عجب ان رأيت احمد سفورياً، فلو كان في عصرنا هذا لكان هو رسول العري لا الشيخ فؤاد حبيش «السابق»، ولخفت ان يطوف في الاسواق كما خلقه الله.

رحم الله شيخنا الذي كان يرى الدنيا كلها في المرأة، وقد قال في بنات حواء: «انهن زخرف الكون، بل اقول غير متحرج عرف الالهة، اذ لا يكاد الانسان يبصر جميلة إلا ويسبّح الخالق. بذكرهن يلهج اللسان، ولخدمتهن تسعى القدم، ولرضائهن يبذل العزيز ويبذل النفيس ويذال المصون، وان خلاق الرجل من دونهن حرمان، وفوزه خيبة، وانسه وحشة، وشبعه جوع، وسعادته شقاوة ... (قد حذفت كثيراً) فاذا قدر الله بلوغ هذا الخبر المطرب سماع احدى سيداتي هؤلاء الجميلات، وسرّت به وفرحت ورقصت ومرحت، رجوت منها وانا باسط يد الضراعة ان تبلغه ايضاً مسامع جارتها، واملت من هذه ايضاً ان تطالع به صاحبتها، حتى لا يمضي اسبوع واحد إلا ويكون خبر الكتاب قد ذاع في المدينة كلها. وكفاني ذلك جزاء على تعبي الذي تكلفته

١ الفارياق، ج ١، ص ١٦٢، طبعة مصر.

من اجلهن .

« ألا وليعلمن اني لو استطعت ان اكتب مديحهن بجميع اصابعي... وانطق به بكل من جوارحي ، لما وفى ذلك بمحاسنهن . فكم لهن عليّ من الفضل حين بدون في افخر الحلل ، ونظرن اليّ شافنات ، حتى ابتُ الى حفشي وانا اتعثر بافكاري وخواطري ، فما كادت يدي تصل الى القلم إلا وقد تدفقت عليه المعاني ، وساحت على القرطاس ، فأورثنني بين الناس ذكراً وفخراً ، ورفعن قدري على قدر ذوي البطالة والفراغ الخ[١]... »

واذا سألتني : فيم نظم الشدياق ؟ قلت لك لم يدع الشدياق غرضاً إلا ونظم فيه ، من وصف حرب السبعين ، الى مدح باريس وذمها ، في قصيدتين مطبوعتين على غرار واحد :

قال مادحاً :

أذي جنة في الارض ام هي باريس ... ملائكة سكانها ام فرنسيس
وهل حور عِينٍ في منازهها ترى ... وإلا فكلٌّ حين تخطر بلقيس

وقال ذامّاً :

أذي عبقر في الارض ام هي باريس ... زبانية سكانها ام فرنسيس
وهل ذي نساء في مواحلها ترى ... وإلا فكلٌّ حين تخطر جاموس

ولا يتوانى عن قول الشعر في حمار فقده ، ويعنون فصلاً من فصول فارياقه « في رثاء حمار » ، كما عنونه فيما بعد « في رثاء ولد » . اسمع بعض ما كتب الشدياق حول هذا الحمار ، وبعض ما نظم .

قال : فجعت بالامس بحمار لي ، وسألت عنه الجيران فلم يقل

[١] الفارياق ، ج ١ ، ص ١٥ .

احد منهم انه سرقه . فاكتريت منادياً بدرهم ، فجعل ينادي في الاسواق : ألا قد فرّ اليوم حمار الفارياق وخلى قيده في الوتد ، فهل منكم من رآه ؟

فلم يجبه احد إلا بقوله : ما اكثر الحمير الآبقة اليوم من بيوت مواليها !

فلما عاد اليّ بهذه البشرى بلغ مني الغيظ كل مبلغ ، وآليت ان لا انظر بعدها في وجه حمار ، سواء اكان حقيقياً او مجازياً . فقد قال بعض أئمة اللغة ان من خصائص لغتنا هذه الشريفة دون غيرها ان يقال للرجل الجاهل : حمار !

ثم اخذت ارثيه بهذه الابيات :

راح الحمار وخلّى القيد في الوتد   وما رأى اثره في الناس من احد
فهل انا راكب من بعده وتداً   ام مجزئي قيده لو كان من مسد
سرهدته بيدي كالطفل من شفق   كالطفل من شفق سرهدته بيدي

ما هذا يا احمد !!

وجسته بشعير لا يخالطه   ماس ولا عسجد خوفاً من الدرد
وكان يوقظني منه النهاق اذا   استثقلت نومي بصوت مطرب غرد
كم حاد بي عن مضيق حين ابصر من   حول الجمال تبل الارض بالزبد
وسار بي في طريق بلّ جانبها   اهل الجمال بماء الورد وهو ندي

أرأيت كيف يهجس الفارياق بالنساء حتى في رثاء هذا الجحش العبقري ؟..

وكم جرى فارهاً اذ لاح عن بعد   زفاف خود اليها بالغ الامد

انه كحمار بشار الذي رآه في نومه ...

واذ تبين نعشاً للجنازة لم   يمرر به مع أليم النخس في الكتد

ما ضل يوما عن استقراء معلفه — اكان في روضة غناء ام جرد
قد رابني حذقه حتى ظننت به — «مسخية» مثل بعض الخلق عن احد

يفديك كل حمار ندّ من بطر ، — او ضجّ من لغب ، او خار من جهد
وحار من شبق قلاّب جحفلة ، — كرّاف بول قديم جف كالقدد
أليّـــةً انه بالطرق اعرف من — مولاه ان لم يعقه القيد ذو العقد
يا ليت لي خصلة من ذيله اثراً — ادنو اليها كما يرني الى الجرد

احمد الهجاء

ما احلى ترديد ما قاله لامرتين حين قرأ ديوان « الشاتيمان » لفكتور هيغو : ثلاثة آلاف بيت كلها سب ، هذا كثير !

ونحن نقول ان حملة الفارياق على اخصامه عنيفة جداً ، ولكن الرجل خلق للهجاء والنقد ، والهجاء يدل كثيراً على الشاعر ، وهذا ما حملنا على تخصيص هجاء احمد بهذه الكلمة .

الرجل سبّاب شتّام حين يهجو ، فقلما يهزأ ويتهكم . يهاجم الخصم ليكسره شر كسرة ، فلا حيلة ولا هوادة في الامر . الحرب الكلامية عنده لا تطول . دائماً المعركة الفاصلة . وما تخيلناه من تقلب طباعه يدلنا عليه الهجاء المتبادل بينه وبين اديب اسحق الكاتب المشهور . قال احمد يهجوه ، بعد ما اعجب به ، واثنى عليه :

لو ان آدم عالم في انه — ستكون من ابنائه فيما غبر
لأباح حوّا بالطلاق ثلاثة — وابى لاجلك ان يكون ابا البشر

فأجاب اديب :

عجباً هجوتَ، وكنت قبلاً مادحي   لا بدعَ قبلي قد خدعت محمدا
ومكرت في عيسى، وخنت اباك في   لقبٍ اخذتَ، ولم يكن لك احمدا

وظهرت في ذلك الزمان جريدة عربية اسمها « برجيس باريس » لصاحبها الاب بوكارد (كاهن فرنسي) ومحررها سليمان الحرائري، فناوأته وتحدّته . فاسمع كيف هجا صاحبها :

اذا البرجيس فاهَ سددتُ انفي   فان بنتنه تعجيل حتفي
فما لعلاج ذاك الفتحِ منه   سوى سدٍ، وبعض القول يكفي
صنان تشمئز النفس منه   ويثني كل ذي انف برعف
لحاه الله من فدمٍ زنيم   عتلٍّ مستباح العرض جلف
ويا قبحاً لقردٍ رام رقصاً   فبادرهُ الابيلُ بنقر دفّ
فقهقه ثم قال فنقّطوني   بقهقهة من الناجود خلفي

واليك نموذجاً آخر من هجو برجيس، حين حملت عليه متهمة اياه في دينه، قال :

يا ايها الفقهاء افتوا مؤمناً   فالعلم من سيمائكم والدين
ايّ الانام يرى الشحاذة حرفةً   وبكل فعل منكر مأبونُ
هل خادم السلطان وهو مكرّم   ام خادم القسيس وهو مهينُ

وقال يهجو زميله المعلم بطرس البستاني، المشهور بفضله وعلمه . هجاه لاجل غارة نقدية شنها عليه في مجلته « الجنان »، وسيأتي تفصيل ذلك، قال :

كابدت من زمني كوارث جمة   وأمرّها في مرّها ثنتان

لغة « الجنان » اذا هذت في مدح قاريء لغوها ، وسياحة النصراني[١]

وانتقد الفارياق اليازجي الاب ؛ فقام ابنه ابرهيم يدافع عن والده وينتقد الشدياق (كما سترى ايضاً) ، فهجاه احمد بقوله :

عجباً لمجتريء عليّ وما له عند البزاز سوى عناد هرائه

فكأنه الظربان معتمداً على دفع الملمّ به بريح فسائه

لا ريب انك لاحظت مثلي ان هجاء الفارياق يخلو من الحشو ، فيأتي كلامه مرصوصاً كأنه البنيان . وهذا ما يجعلني ارى انه عند ظني فيه من حيث التنقيح . اما الشيخ ابرهيم اليازجي فاعتزل هذه الحرب معتذراً اعتذاراً نبيلاً ، فقال هذين البيتين المشهورين :

ليس الوقيعة من شأني فان عرضتْ اعرضتُ عنها بوجه بالحياء ندي .

اني اضنّ بعرضي ان يلمّ به غيري ، فهل اتولى خرقه بيدي

لسنا ننكر علم الشيخ ابرهيم وادبه ، ولكننا نرى الصديق الاستاذ بطرس البستاني قد اشتط في كتابه « ادباء العرب » اذ شبه مناظرة الشدياق واليازجي ابرهيم بمناظرة الخوارزمي والهمذاني ، فقد كان الشيخ ابرهيم يومئذ رخصاً ، والشدياق قارحاً . واننا نحمد الله على نقد الشدياق الذي خلق لنا عالمـاً لغوياً نفتخر بتدقيقه كالشيخ ابرهيم ، والظروف والاحوال تخلق الرجال .

لسنا نلقي كلامنا على عواهنه ، بل سنأتيك بالبراهين الدامغة من ردود الشدياق التي لا تدفع ، وهي مأخوذة عن كتاب « سلوان الشجي في الرد على ابرهيم اليازجي » ، شاكرين الاستاذ معوض مدير المكتبة الوطنية الذي اتاح لنا ذلك ، فاحتملنا مكتبه زهاء

١ كتاب ترجمه المعلم بطرس البستاني عنوانه : سياحة المسيحي .

اربع ساعات ، وسقانا باسم الادب اكثر من كأس مـاء بارد ، كما قال يسوع .

ستقرأ ، ان شاء الله ، في فصل عنوانه : « نقد ذلك الزمان » ، رد الشدياق ، ونقد الاسير ، فتعلم كم جاهد هؤلاء الايمة في سبيل خدمة لسان العرب .

ومن ينكر فضل البستاني او اليازجيين ؟ فكل من هؤلاء قد وفي قسطه للغتنا . وفقنا الله الى بعض ما وفقوا اليه ليظل لبناننا منارة ساطعة على هذا الشط ، شاطىء بحر الثقافة والعلم .

فنه وعناصر شخصيته

الشدياق فكرة تمخّض بهـــا لبنان طوال خمسة قرون . كان حظّه من « التعليم المنظم » قليلاً . بذاك أنبأنا « فارياقه » ثم رسالته لاخيه طنوس التي ينتقد فيها تاريخه « اعيـان لبنان » . بيد انه استعـاض عن ذلك بدرس العلوم والفنون على نفسه ، وعلى هذا وذاك . ثم انكبّ على المطالعة ، ففعلت فيه ما فعلت بغيره من جهابذة العلماء . فعلا نجمه حتى اهتدى به السارون . نستطيع القول ان الشدياق قد قرأ كل ما وصلت اليه يده ، ثم اخرجه مكيّفاً بطبعه الهازل الماجن ، فكان ذلك كالمقبّلات التي تتقدم المأدبة الغنيّة الدسمة .

واذا اضفنا الى مطالعته العجيبة ما نسخ من كتب في صباه وشبابه ، عرفنا العنصر الثاني الذي اشترك في انماء تلك الشخصية . فالشدياق يعترف في فارياقه انه مارس النساخة . وهذا الفيكنت

فيليب طرازي صاحب تاريخ « اصدق ما كان » يقول : « احمد فارس الشدياق اشهر بني الشدياق نبوغاً ، واوسعهم علماً ، وابعدهم صيتاً وجاهاً ... وتعود في حداثته نسخ الكتب كاجداده ... وتحوي خزانة كتبنا وبعض كنائس لبنان مجلدات عربية وسريانية بخط يده حتى اليوم ، ويقرأ في خاتمة اغلب تلك المجلدات ما نصّه : كتبه عبد ربه الرزّاق فارس بن يوسف الشدياق[1] . »

ونسخ هذه الكتب وعبارتها السقيمة ولد في نفس احمد فارس الشدياق كره « الركاكة » فكان يعيّر بها رجال الدين ، كما تقرأ في الفارياق – ان كنت ممن يقرأون . فهذا النسخ الحرفي الذي كان على الشدياق ان يقوم به دون تصحيح وتنقيح جعله يعد « الركاكة » صفة لازمة لرجال الدين ، عندنا ، ولكتبهم . ولما عهد اليه بتحرير « الوقائع المصرية » رأى الركاكة في دواوين الحكومة شراً منها في كتب الموارنة ، فحارب هناك ما لم يستطع محاربته هنا . وبهذا كان ابا الفصحى في القرن التاسع عشر .

ثم انتدب لتصحيح ترجمة التوراة ، فعمرت تلك الشخصية بثقافة جديدة . وكان التنقل في عواصم الدنيا ، فافاد منه درس شؤون البشر « علمياً » ما افادته اياه مطالعة الكتب ونسخها « نظريّاً » . وتعلم لغات اجنبية فعرف علوم الغرب وآدابه . وهكذا اكتملت تلك الشخصية أي اكتمال ، نظراً لكد صاحبها واجتهاده ، ورغبته التي نستطيع ان نقول : لا توصف . فها هو يسأل اخاه طنوس ، وهو في مالطة ، ان يرسل اليه كتاب

١ اصدق ما كان ، جزء ٢ ، ص ١٩٢ .

الفصاحة اما مطبوعاً واما منسوخاً . فالرجل نهم لا يشبع معرفة ، وظاميء الى العلم لا يرتوي .

وهنـاك عنصر آخر هـام كان له ابعد الأثر في توجيه تلك الشخصية الفذة . ففجيعة الشدياق باخيه اسعد أثارت تلك الشخصية وشقت لها طريقها . فروح الادب اللبناني (ان كان هناك ما يسمى ادباً في ذلك الزمان) دينيـة . والشدياق وحده هو الذي شذ عن القاعدة ، وعاش على هامش عصره ومحيطه ، وكأنه شبع صوفية مما نسخ وترجم ، فجاءنا بهذا الادب السافر . كان كمن اضرّت به أكلة فلم تعد تقبلها نفسه . والعجيب انه نسخ كتباً دينيـة كثيرة ولم يؤثر به معناها ، ولم يصب اسلوبه ، فيما بعد ، بشيء من ركاكتها . فعاش مستقلاً في تفكيره ، مرتاحاً الى تعبيره ، واثقـاً من اسلوبه ، معتمداً عـلى شخصيته . عاش مفكراً حراً مفككاً سلاسل التقليد .

نعرف ان الشدياق كتب بالحرف السرياني كتباً عربيـة وسريانية ، ولكن اسلوبه لا يدلنا على تضلعه من هذه اللغة ، لولا اكثاره من استعمال فعل الكون حيث يمكن الاستغناء عنـه في العربية . فأثرُ المحيط الذي نشأ فيـه وترعرع بادٍ في نثره حين يرسل قلمه على سجيته . امـا حين يتعمد ويتكلف فلا ترى أثراً لذلك .

اما ما تراه في الفارياق من انهار الالفاظ اللغوية وجداولها فسببه ان اسلوب المقامات (بضاعة ذلك الزمان) كان يقوم على الثروة اللغوية ، فأراد الشدياق ان يظهر مقدرته بها ، دون ان يكتب المقامة التقليدية ، فجاء بالعجب العجاب .

لم يقنع اللبناني في عصر من العصور بلغة واحدة . ولهذا رأينا الشدياق يتعلم اللغات الاجنبية على الكبر . وهكذا كان له حقلان للانبات : الكتب عربية وغربية ، والحياة .

لا يحتاجُ الشدياق الى خلق « المادة » فهو يلمّها من هنا وهناك ، فكأنه عابر سبيل يلتقط ما تقع عليه عينه ، ثم يعبّر عن الشيء المبتذل باسلوبه الطريف ، فيخلقه خلقاً بديعاً كأنه لم يكن ذاك الذي رآه او سمعه . فمن ذكرياته وتجاربه خلق لنا جميع المشاهد الطريفة التي نعجب بها .

كاتب واقعي لا نظير له ، يمشي في سرده وقصصه على مهل ، غير خائف ولا وجل ، لان مادته اللغوية غزيرة جداً ، بل لم نجد اغزر منها قط . فهو لا يتبع خطة كما قلنا سابقاً ، فهندازته التي يقصّ عليها شغل يده وعقله . تنجده في عمله هذا قوة استطراد عجيبة . فالشدياق يؤمن بالمادة ليس غير وان لم يصرح بذلك ، ولا يظهر لك ايمانه بها إلا اذا تأملت مجموع ما كتب .

جدلي بارع لا يضاهيه في ذلك إلا ابو عثمان . قوي الحجّة ، قاطع البرهان . يتضح لك ذلك من مطالعة الجدل الذي قام ، او اقامه هو ، بين الفارياق والضوطار[1] ، ثم دفاعه عن اخيه اسعد[2] ، ثم في انتقاده بعض قصص التوراة[3] .

يعتمد الشدياق على الفكر والعقل اكثر من اعتماده على ضروب الفصاحة واساليب الكلام المعهودة . فالعقل عنده كل شيء حتى يكاد

١ فارياق ، جزء ١ ، ص ١٢٠ .
٢ فارياق ، جزء ١ ، ص ١٣٢ فصاعداً .
٣ فارياق ، جزء ١ ، ص ١٢٨ ، وكشف المخبا ، ص ١١٢ .

يقول مع رنان : العقل يحرّك الاشياء كلها .

فالرجل يرضيك في كل مقام حتى وهو يحدثك عن فلاح ، او اي رجل كان ، فيمزج لك العبارة بالحلوى . وهو قبل كل شيء اختصاصي في التحدث عن رجال الدين لان ذكرى اخيه اسعد لم تمح من مخيلته .

يعتمد الشدياق على تصوير ما يراه ، ولا يدع خطأ من الصورة يفلت منه ، ثم ترى ما رسم كاملاً ، فتحسب انه غير متعمد ما يفعل ، لسهولة ذلك العمل عليه .

يكتب انشاء فتحسبه « موضوعياً » ، في حين انه محشو بالذاتية ، ومع ذلك تظنه انت كاتباً موضوعياً لا يدنو من الرومنطيقية مقدار شعرة .

ان قلب الشدياق رقيق ، فمن خلال نار سخطه وغضبه ينبعث نسيم رحمة وشفقة على اعدائه . من خلال اشد هجائه ينبعث برد وسلام رغماً عنه وبدون قصد .

لا تجد الموسيقى المعهودة في ما كتب ، ولكنه يعوّضك عنها بعنصر آخر لا ادري ما اسميه ، فتحيا به كتاباته . لا يعني الشدياق من الدنيا شيء غير الكتاب ، فالكتاب عنده كل شيء . كان في باريس ولندن وتونس والقاهرة والاستانة وغيرها من العواصم فلم يلفت نظره الا المكاتب . لم يقصد المتاحف كما قصد دور الكتب . وقد نستطيع القول انه رجل من حبر وورق لولا ما كتبه لنا عن المرأة وغيرها من متع الحياة . ومحبته الحياة مكنته من خلق صور جديدة طريفة « فصّلها ، لكن على عقله » كما قال في مقدمة فارياقه ، فجاءت حية ناطقة متحركة .

كان يلجأ الى تعابير محيطه حين يضطر، فيجيء تعبيره طريفاً مقبولاً . وهو لو كان اخرج فكرته بغير ذاك التعبير لما حازت القبول ، ولما وقعت في النفوس ذلك الوقع .

وواحدة اخرى تدلنا على ان الشدياق فنان اصيل ، الا وهي تلك الفصول البيضاء التي كان يتركها في فارياقه ، فيكتب مثلاً : الفصل الرابع ، ثم لا يكتب الا هذه الكلمات : في ذلك الموضع[١]، ثم قوله الفصل السادس عشر : في لا شيء[٢]، وهلم جرا .

اجل ، ان هذا فراغ ، ولكنه فراغ يحمل القارىء على التفكير بعد ان يضحك وينشرح صدره ...

ومن خواصه ايضاً انه يرى ويُري . ولهذا غلب حسه الدقيق على خواصه كلها ، فاندحرت المخيلة امام هذا الاحساس العنيف وغلبت على امرها ، فكان كاتباً واقعياً متجهاً دائماً صوب الهجو والسخر ، يقوده ذوقه السليم ، وما طبع عليه من ملكة نقدية ، الى وزن كل شيء وزناً صحيحاً . عظّم كثيراً من شأن الجسد وقلّما تحدّث عن الروح ، فهو مؤمن بالعلم وسيادته . والميزة الغالبة على انشائه هي « القص » حتى تكاد تراه يسوق مقالاته الادبية مساق القصص . ان ينابيع فنه تنبجس من شخصيته ، وبها يحيا انشاؤه لا بالتعابير المعدة ، فهو ابعد الناس عنها . وكما بدأ الكتاب الحقّ عند العرب بالجاحظ ، كذلك ابتدأ عندنا بالشدياق . فرّ من لبنان هرباً من ظل حاجب الامير بشير الثقيل ، فكانت لنا اضواء ادبه الحي .

١ الفارياق ، جزء ١ ، ص ٢٧٣ .
٢ الفارياق ، جزء ٢ ، ص ٢١٤ .

لا اعلم لماذا يعجبني هذا الرجل . فاذا قرأت فارياقه انكرت ان يكون سيرة حياة ، فهو عندي قصة رائعة ، لا بل اروع القصص . وهل نكتب غير قصتنا حين نكتب قصة غيرنا ؟ ماذا كان يقصد حين جرّد من نفسه شخصاً سماه الفارياق ، فكتب قصته بلسانه ؟ اي فن اراد ؟ واي احساس احس حتى فعل هذا ؟ أما قرأنا ان نقّاد الغرب قد اعجبوا باندره موروى لانه يفعل اليوم ما فعله الشدياق منذ قرن ؟ انني لواثق بان شيخنا الفارياق كامل الذوق . وهو لو لم ينفق شطراً من حياته في شؤون اخرى لما قصر في الفن والادب والفلسفة عن اعاظم رجال اليوم .

واليك رمزاً يدلك على ذوق امامنا الفني ، قال في الرقص :

كان للحاكم عادة ان يدعو جميع المعروفين في خدمته الى ليلة عيد يرقص فيها الرجال والنساء بحضرته ، وكان من جملة المدعوين الفارياق وزوجته . فلما رأت هذه الرجال يرقصون ، وهم مخاصرون للنساء، قالت لزوجها : هل هؤلاء النساء أزواج هؤلاء الرجال ؟ قال : منهن هكذا ، ومنهن بخلاف ذلك . قالت : وكيف يخاصرونهن اذاً ؟ قال : لا ادري ، ولكن بعد انفضاض الناس يذهب كل الى منزله .

قالت : اشهد بالله انه ما خاصر رجل امرأة الا باطنها . قال : لا تسيئي الظن . انها عادة مشوا عليها . قالت : نعم هي عادة ، ونعمت العادة ، ولكن كيف يكون احساس المرأة حين يلمسها رجل جميل في خصرها ؟

قال : فقلت لا ادري ، انما انا رجل لا امرأة .

قالت : ولكن انا ادري . ان الخصر انما جعله الله في الوسط مركزاً للاحساس الفوقي والتحتي . ولذلك كانت النساء عند الرقص والقرص ، وفي اي موضع كان من اجسامهن ، يبدين الحركة في الخصر . ثم تنفست الصعداء وقالت : يا ليت اهلي علموني الرقص ، فما ارى فيه لانثى نقص .

فقلت : هيتِ الى البيت فقد كفاني الليلة ما سمعت وما رأيت. قالت: لا بد من ان ارى ختام الرقص .

قال : فلبثنا الى الصباح ، ثم انصرفت بها فكانت تقول وهي سائرة : نساء مع رجال

راقصات ، نساء مع رجال راقصون ، راقصات راقصون راقصات .

فقلت : فاعلات فاعلون فاعلات . قالت : الرجال والنساء والبنون والبنات ، كيف ، متى ، اين ١ .

ارأيت كيف يتحدث وينهي حديثه عن الرقص ؟ انه رقص زيادة . وهذا هو الفن الكامل . تبحر ، عن اذنك ، كثيراً في هذا الكلام لتفهم قليلاً ، او كلّف احد العارفين شرحه لك ، والا فيا ضياع تعبي ! ألا يحق لي ان اضحك واتعجب حين اقرأ بخط « عبد ربه الرزّاق » ميامر مار افرام ومار يعقوب ، ثم انتقل الى مجون الفارياق ؟ ولكن مثلي لا يرى في ذلك بدعاً ، فكم ترغت بها من السنين ، ثم راح ذلك العهد ولم يرجع . قل : « الفضل » يعرفه ذووه ...

الشدياق المعرب والمترجم

مرّ بك ان الشدياق عاون الدكتور « لي » على ترجمة التوراة . وقد وصف الشدياق اقامته في مالطة ولندره حين كان يقوم بتلك المهمة الخطيرة . ونقلنا كلمة حول هذه الترجمة وكيف كان يعترض الدكتور لي ويحول دون البلاغة التي كان يتوخاها الشدياق في ترجمته . لقد شجعت تلك الترجمة شدياقنا وافادته ، فشمر وسار . خُلق رجل كدّ وعمل ، فما ذهبت ساعة من ساعات ذلك العمر الطويل عبثاً . وانشأ جريدته الجوائب ، فبذل جهوداً عنيفة ليجعلها جريدة مثلى ، فكانت مدرسة ادبية سياسية جوّابة . فعد

١ الفارياق ، جزء ٢ ، ص ٨٧ .

شيخنا يغذيها بمقالاته وبحوثه الطريفة ، ناقداً المجتمع في كل ميادين العمل . واضطر الى الترجمة ليملأ تلك الجريدة بالمفيد النافع . ولما كان الشيخ مطبوعاً على الفكاهة ، ميالاً الى النكتة ، طفق يترجم لقرائه قصصاً طريفة ، حتى انه لم يغفل عن « تهورات دونكيشوط » . حذق اللغات الاجنبية وتعلمها على نفسه ، فصادف صعوبات جمة في النقل والترجمة . وكأن الناس كانوا يضايقونه وتحول زياراتهم الطويلة دون اطراد عمله ، فكتب حول هذا الموضوع مقالاً عنوانه : « ادب الدرس والنفس » . واليك شيئاً منه لتدرك موقف الاستاذ الحرج ، قال :

« لم أرَ اعجب من رجل له ادب الدرس وليس له ادب النفس . اذا فاوضته في فنون الشعر واساليب الكلام وجدته يستشهد على كل معنى ببيت او حديث او آية ... حتى تقول :

وليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد

« حتى اذا فرغ من تلك الفنون المعجبة والاساليب المطربة مدّ رجليه في وجوه الحاضرين ، وجعل يومئها على النار ، اذا كان الوقت شتاء . وان كان صيفاً نزع جواربه والقاها بجانبه وجعل يفرك رجليه ... »

ثم يقول : « ومن ادب المحاضرة ان يراعي المتكلم قدر ما عند السامعين من الصبر لاستماع كلامه ، وذلك بالنظر الى سعة الوقت وضيقه . واحسن اوقاتها بعد فراغ الانسان من عمله ، لكن المتبطلين لا يفرقون ما بين هذه الاوقات . فترى احدهم يبكر عليك لمجرد الكلام ، مع علمه بانك مشتغل بامور معاشك . فاذا لهوت عنه لحظة نقم عليك . ولكن كيف يتأتّى لمن يعاني الترجمة

والتأليف ، ان يضيع زهرة عمره في الصباح ويقعد مصغياً الى كلام فارغ لا يستحسنه الا قائله .

« انه يسهل عليّ ان اخسر من متاعي شيئاً في كل يوم ولا اخسر ساعة من اوقات صباحي ... فاذا ما اضعت وقتي بالبطالة وباستماع انا وانا ، فلا يكون لي منه عوض ، فيذهب ذلك الجزء من عمري وعمر المتكلم سدى . فلو ترك « انا » الى المساء لخفّ عليّ سماعه .

« وهذه الشكوى قد بحت بها قبل هذا ، فأعيدها الآن على اصحابي قراء الجوائب لقصد ان يتكرموا عليّ باحد امرين : اما ان يتركوا لي اوقات الصباح ، واما ان يساعدوني على ترجمة الجوائب ، وتحرير سر الليال . فمن شاء فليعذر ، ومن شاء فليلم ، فما كلف الله امرءاً فوق جهده .

« اما الذين يأتونني ويقولون : اكتب كذا ، فانا سمعناه من الوزير الفلاني ، فالاولى لهم ان يكتموا ما ائتمنهم عليه الوزير في صدورهم ، ولا يدخلوني فيما يعقب الندامة . فاني وان كنت قد لحقت بكتّاب الجرنالات في هذه الصنعة ، إلا اني لا اريد مجاراتهم في رقم كل ما اسمعه من الاخبار صدقاً كان او كذباً [١] . »

فهذه الكلمات الصريحة توضح لك موقف الرجل وعمله المضني . فقد جاء الصحافة العربية في طفولتها ، وكان مرضعاً لها ومربياً ، لغة وسياسة وادباً . فاعترضته مشاق كثيرة لا يجدها كتّاب الصحف اليوم . كان عليه ان يعرب ألفاظاً كثيرة لمسمّيات عديدة في

١ كنز الرغائب ، جزء ١ ، ص ١٦٨ — ١٧٠ .

الفارياق وكشف المخبا والجوائب . وهو اول من اطلق على الصحيفة كلمة جريدة . ان ترجمة كتاب وجداني كالتوراة سهل ، اما تأليف كتاب ككشف المخبا فيقتضي مؤلفه جهوداً وعناء لانه يصف فيه اشياء بعينها ، وحضارة لم يعرفها العرب ليسموا اشياءها باسمائها . ومع ذلك لم يقف الشدياق امامها مكتوف اليدين ، فسمى منها ما استطاع . سمّى الداليجانس « حافلة المجد » ، والفاكونات « الرتل » ، والباخرة « سفينة النار » . واتبع خطة العرب في تعريبهم فسمّى الجريدة « جرنال » ثم جريدة كما مرّ ، والغاز « غاز » ، والمنطاد « بلون » ، والفنون الجميلة « الصنائع الظريفة » ، وبوليس التحري « الثقاف » . وكانت خطته ان يرجع الى اللغة فاذا ما وجد فيها ما يلائم غرضه اخذ منها ، والا لجأ الى القياس حاذياً حذو العباسيين .

كان يتألم كثيراً من هذا العناء المخلوط ببرد اوروبا واستمبول ، فقال فيه شعراً :

ومن فاته «التعريب» لم يدر ما العنا ... لم يصل نار الحرب الا المحارب
ارى الف معنى ما له من مجانس ... لدينا ، والفاً ما له ما يناسب
فيا ليت قومي يعلمون بانني ... على نكد التعريب جدّي ذاهب

اسكت يا شيخ ، لقد علموا ... ولكن انت تنفخ في رماد ... ولم يسكت ، بل قال في قافية أخرى :

وبذاك من جهد القريحة ما تشيب به الذوائب

لقد كتب في تآليفه كل ما هو مبتكر حقاً ، فخلق ادباً حياً لا ادباً ذابلاً ، ان تحرك ناس كلعب الاولاد . ويا ليته كتب قصة بمعناها المعروف اليوم لكان لنا اروع القصص . وان صح

حشر سيرة الحيـاة بين القصص فـالفارياق قصة عالمية رائعة ، فما اروع وصف تلك الغربة التي جلت هذا الصيقل الفرد .

حدثنا رواة الاخبار عن المعري القفلة ، ولكن الدليل على ذاكرته العجيبة لم يقم . اما إمامنا ففي فارياقه وجميع آثاره الف دليل على ذلك الدمـاغ الغريب . فهو المؤلف العجيب حتى في كتبه اللغوية . وكل من ألفّوا قبله وبعده نساخ . فمن شاء ان يؤلف في اللغة بعد احمد فليستح . وليعذرني ابو عثمان المازني ان استعرت كلمته هذه ، فهنا محلها لا هناك .

لقد كان الرجل مرهف الذوق ، يريـد ان تكـون جوائبه حافلة بكل طريف ، فترجم قصصـاً وحكايات طريفة اذاعهـا لقراء جوائبه مثل « حكاية زنجي » وغيرها . كان الشدياق مولعاً بكل ما هو بدع ، ومثل هذا لا يستخرج دائماً من عقله . فكان ينكب على الجرائد من فرنسية وانكليزية ينقل عنهـا ملحـاً وطرفاً ، واخباراً عن الاكتشافات الحديثة يحدث بذلك قراء جوائبه ، فاصبحت جريـدته مدرسة للجيل . ولم يكن يترجم ليقف مكتوف اليدين ازاء من اخذ عنه ، بل يناقش كل فكرة نقاشاً عنيفاً . وذلك شأنه في كل ما صنّف وألّف . فهو جدلي من الطراز الاول ، وقصصي من الطراز الاول ، ومـا اكثر القصص والاخبـار في الفـارياق والواسطة وكشف المخبـا .

الاديب النقـادة

الشدياق اديبٌ واقعيّ قويّ الباصرة ، ليس في جرابه رغيف

من خبز الرومنتيكية ، فهو والجاحظ سواء بسواء . ولولا تشكيه البرد ، وتبرمه بالثلج ، لقلت انه لم يحس الطبيعة قط . اكتفى بالمرأة عن كل ما خلق الله وما لم يخلق ، فكل الصيد في جوف الفرا ... ولولا كرهه طعام الانكليز وحنينه الى مطبخنـــا ، لقلت الرجل يعيش على الانتقاد . لم تنج ناحية من نواحي الاجتماع مـن جراد نقده الزاحف . لم يدع زاوية من زوايا الكون الا ولجها . ينتقد الناس جماعات وافراداً ، وحكومات وبلداناً . فقل ، ان شئت ، لم يسلم من لسانه احد . اما نقده الادبي ، ففي الفارياق ، وكشف المخبا ، وسلوان الشجي ، وفصوله المجموعة سبعة اجزاء ، كثير منه . انتقد اساليب الكتاب والشعراء وتفكيرهم وتعبيرهم فكأنه اقام نفسه معلماً او مدعياً عاماً في محكمة الادب . خلق ناقــداً لا يتغاضى عن هفوة ، ولا يحابي احداً حتى اخاه الكبير ، فكتب اليه رسالة من لندره مؤرخة في ٧ نيسان ١٨٥٦ ، ينتقد فيها الجزء الاول من كتابه تاريخ اعيان لبنان . واليك بعضها [١] :

اطلعت على الجزء الاول من التاريخ الذي الفتموه في نسب اعيان جبل لبنان، واحمدت مسعاكم فيه وحسن نيتكم ، غير اني انكرت فيه عدة اشياء لا بد من ان اذكرهــا لكم الان ولو على سبيل الاختصار .

اولا : انكم استكفتم ان تذكروا مناقب اخينا المرحوم اسعد ، وما كان عليه من الشهرة في الفضائل والعلم وغير ذلك مما لا يخفى على احد ، ولا عذر لكم في عدم ذكر ذلك بان تقولوا بانه ترك مذهب ابائه ، فان تغيير المذاهب لا يسلب الانسان محامده . ان جميع المؤرخين اذا ذكروا مثلا فولتر وروسو وفولني يوم يكتبون اثنوا عليهم بمــا هم جديرون به ، فلا بد اذن من ان تعقدوا فصلا على حدة في آخر كتابكم ، وتذكروا

[١] نشرت صورة هذه الرسالة كاملة بخطه في العدد ١٧٠ الخــاص بالشدياق من جريدة المكشوف ، ص ١٢ .

فيه ما لم تذكروه في الجزء الاول مما يختص باخينا المرحوم وغيره ،لا بل انكم لم تذكروا سنه ، وحليته ، وصفاته ، كما ذكرتم صفات غيره ، مع انكم قلتم : خلا تاريخنـــا من كل ميل ١ ... وهذا هو عين الميل .

والثاني: انكم نسبتم الي شيئاً يخجلني عند الخاصة والعامة بقولكم انني كنت اعلم النحو اولاد جرمانوس البحري ، مع ان ذلك نقيض قولكم اني كنت في خدمة محمد علي باشا ؛ فمن ذا الذي اخبركم بهـذا ؟ ولمَ لم تسألوني عن الواقع ؟ لعمر الله ان الحرة تموت ولا تأكل بثدييها .

والثالث : انكم قلتم اني اخذت في قراءة النحو والبيان عند احـد علماء الازهر ، وهو نقيض قولكم انني استخدمت لتعريب الوقائع . ولو قلتم اخـذ في علم الفنون العربية لكان اسد واخصر ، فاما شيوخي فكثيرون . وقولكم اطبع البلاطة في غير محله فان الوقائع انما كانت تطبع بالحروف . ثم لم تذكروا سبب قدومي الى هذه البلاد وهو ترجمة التوراة وذلك مما يحق لي ان افتخر به .

والرابع : انكم حين ذكرتم الشيخ رشيد الدحداح ما زدتم على ان قلتم انه سافر الى مرسيليا ، وصار تاجراً شهيراً ، مع ان للموما اليه فضائل كثيرة غير التجارة ، منها تحريره لقاموس المطران جرمانوس فرحات ، وبذله فيه غاية الاعتناء والتدقيق حتى صار كتاباً يعتمد عليه ككتب اللغة التي ألفها العلماء المحققون .

والخامس : انكم عند ذكر نسب الاعيان لم تذكروا الوقت والتاريخ بل اكتفيتم بقولكم فلان ولد فلاناً .

والسادس: انكم لم تتعرضوا لذكر كل من نبغ في شعر او علم او فصاحـة او مأثرة ، ولم ترووا شيئاً عن الذين وصفتموهم بالعلم .

والسابع : انكم لم تصرفوا الهمة في تنقيح العبارات والالفاظ فقلتم: اهلها اسلام ونصارى ، وحقه مسلمون ، وقلتم : اعرض ، والصواب عرض ، ومهاب ، وحقه مهيب ، ونضر ، وحقه نظر . واشياء كثيرة لا بد ان تعينوا لها محلا في آخر الكتاب لاصلاحها .

اذكر انني قرأت كلمة للاستاذ امين الريحاني نقد بها « غطارفة البيان » كما سماهم ، واذا بي اجدها بمعناها في الفارياق . لست اعني ان الريحاني ناقل ، بل قلت هـذا لأدلك على رجل نظر امس كما

١ اشارة الى بيتين كتبها طنوس الشدياق في مدح تاريخه ، ص ٣ .

ننظر نحن اليوم الى هؤلاء الفحول المقلدين . فما ننكره نحن الان عليهم انكره هو قبلنا في الفارياق ، وكشف المخبا ، واشبعهم سخراً وهزاء . ولكن اولئك كهؤلاء لا يردعهم شيء حتى الصفع . فخصلة البدن لا يغيرها الا الكفن . فلو كان ربنا يسمع شعراً لنظموا له عقوداً زبرجدية يعلقها في شماريخ عرشه .

ولو قرأت ما كتبه في الواسطة عن الزانية التي تضع صورة العذراء بالمقلوب حيث تفحش لتذكرت ، ان كنت قرأت رواية « البعث » ، وصف هذه الحالة لتولستوي فيلسوف الروس العظيم ، وادركت انه لم يفت اديبنا العظيم ، فسبق اليه .

وبعد ، فالشيخ قد تجرأ على استعمال القياس ، فحلحل مكابس اللغويين الذين فعلوا بامهم كالحطيئة فألقوها في قعر مظلمة . لقد جمع الاستاذ ونسب كما قرر مجمع مصر الملكي ، وكان في عمله هذا واثقاً من نفسه يؤدي العبارة على حقها . والمادة وافرة عنده فكأنه يقطع من مقلع . والخلاصة ان الفرق بين احمد ومعاصريه كالفرق بين رافائيل وبين من ينقلون صوره عن لاروس وغيره .

رحم الله الشدياق فقد سبق زمانه سبق جواد النابغة المستولي على الامد ، فحمل على « شعراء المناسبات » ، وهو منهم ، ولكنه شاعر السلاطين والملوك والامراء ، وبالشعر تبوأ عرشاً من الشهرة والنفوذ حسده عليه اعاظم رجال عصره . لقد توكأ احمد فارس على شعر المناسبات فقاله في سلاطين بني عثمان ، ونبوليون ، ومحمد علي ، وباي تونس . وتهادى بين قصائد المديح حتى بلغ اسمى المنازل ، كما قال فيه احد شعراء زمانه :

روضة اصبح عند الوزرا ونديماً لامير المؤمنين

ومع ذلك لم يطمئن قلب ادبينا الخالد الى هذا الادب المقيت ، ورأى فيه حطة للاديب الصحيح ، فقال لنا عن نفسه :

رأوا دخان قميني صاعداً فجرى   بالماء قوم ليطفوا سورة اللهب
فقال بعضٌ : أقينٌ انت؟ قلت نعم ،   اقين شعراً وعندي معمل الكذب

فهل يتعظ اصحابنا ، في هذا الزمان الذي ضاع فيه النصح ، بما قرأوا ويقرأون لزعيم ادباء العرب انهم لن يفوزوا بشيء مما فاز به ، وما جائزتهم غير ابتسامة تنضح استهزاء وسخراً ، وان لم يصبهم في الحضرة ما اصاب البحتري حين انشد المعتصم قصيدته الميمية ، ففي غيبتهم لا يحرمون ذلك ، فليستحوا من الناس .

كان لي استاذ كنت اعد نفسي سعيداً يوم اقبل يده . ولم يكن في استاذي من عيب الا انه يريد ان يقول شعراً . فسيم احد الكهنة اسقفاً ، وعرج على مدرسة الحكمة في طريقه الى بتدين كرسي ابرشيته ، فأنشده استاذي الكبير (الشيخ سعيد الشرتوني) قصيدة من روائعه ، فلاطفه صاحب السيادة واهداه ليمونة ، فقال المعلم عبد الله البستاني يهزأ بقرنه الادبي :

عهدي بشعرك للالباب تفكهة   به اللذاذة لا تنفك مقرونه
فكيف قد بعته غبناً بفاكهة   هل باع غيرك اشعاراً بليمونه

اما اصحابنا اليوم فيبيعونه « بصفقات » ولكنها خاسرة ، وقلما يذوقون الليمون في هذا الغلاء .

كأني اسمع بأذني ، بعد هذا الاستطراد ، شيخنا الشدياق يقول لي : اسكت يا ولد ، اما جاءت نوبتي ؟

قلت عفواً ، يا شيخ ، ان الحديث شجون ، فلنتعاون عليه . اسمعوا ما يقول الشدياق في شعر المناسبات :

« ومن كان قد قرأ بعض اشعار ، وسمع من اهل العلم ، مثلاً ، ان الشعر منقبة سنية ، تصدى الى اي نظم كان ، فاذا رأى طائراً في الجو نظم فيه قصيدة ، واذا تزوج احـــد في بلده نظم فيه « تواريخ » ، واذا توفي احد قال : قد غـــاض بحر الكرم ، ودكت اركان المعالي ، وذوت رياض الفضائل ، وأفل نجم الهدى وخسف بدر المجد ، وكسفت شمس الفضـل ، ثم لا يزال يطلع في عاجلة النبي الياس حتى يصل الى الفلك الاثير ، ويعدد جميع مـا هنالك من النجوم ، وينتزع منها كفناً لمرثيه[١] . »

اما الغريب المضحك فتقرأة في « الفارياق » حين يصف لك شاعر « السري » كيف كان يقول شعراً في وصف كل حركة من حركات ممدوحه ، وكيف كان يهتف بالشعر عند قدوم كل بشير ، وما اكثر مبشريه ! لا استطيع ان انقل لك كل ما كتبه الشيخ في هذا الموضوع ، فعد الى كتابه واقرأ الباب كاملاً ، اذا شئت . اما الآن فاسمع ما قال الشاعر في خلعة خلعها السري :

خلع السريّ اليوم نعليه على — مثنٍ عليـه مبالغ في مدحه
فاستبشروا يا عصبة الشعراء من — هذا السخاء بيمنـه وبسنحه

واخيراً مشى بطن السري فجارت قريحة شاعرة ذلك التيـار فقال :

قد اسهل اليوم السريّ فكلنا — فرح ففي اسهاله التسهيـل
فاستبضعوا خزاً اليه مطرزاً — وتسابقوا ان البطيء قتيـل

وقيل ان اسهل السريّ حدثت طبعاً عواصف وزوابع فيها

١ كشف المخبا ، ص ١٦٦ .

رعود وصواعق ، وصفها الفارياق فاطلبها في مكانها . قد تركت كثيراً مما قاله فارجع الى الفارياق تقرأ شعراً ونقداً طريفا يضحك ويفيد . وان كنت شاعر مناسبات ، فوالله تتوب . قد يفعل الشدياق في هؤلاء ما لا يفعله مارون عبود الذي بح صوته (وهو أبح خلقة) من كثرة ما نادى شعراء الظل ليخرجوا الى النور ، ويروا وجه الشمس التي تلوّح وجوههم ، وتقوّي دماءهم ، فقد استحالت مصلاً وقيحاً .

انني اتضرع اليك ، ايها القارىء ، بل استرحم ، كما كنا نقول في العهد العثماني ، ان تمسك كل شاعر مناسبات باذنه ، ولا تتركه حتى ينتهي من قراءة هذا الفصل في الفارياق[1]. قل له اقرأ يا اعمى ما كتبه نقادة عصره منذ قرن ، ولا تخرج من معملك هذه البضاعة فالناس يسدّون انوفهم ولو كانت اطول من انف ابن حرب ، عندما تهف ريحتها في الاسواق .

المتهكم الساخر

نقرأ في الفارياق[2] نقداً لاذعـــا ، وتهكماً وهزءاً وسخراً بمؤلفي النحو ومعلميه ، وحـركات الاعراب ، وتمسك النحــاة بتعليلاتهم وعراقيلهم التي لا تنتهي الى ان يختم كلامه بقوله : « صرت اعتقد بخلود النفس لان مبهمات النحو خالدة . »

١ الفارياق ، ص ٣٢٥ طبعة باريس، ٢١٦ طبعة مصر .

٢ الفارياق ، جزء ١ ، ص ٥٣ و ٦٦ .

أليس هذا ما يعالجه اليوم اساتذة زماننا حاسبين انهم اخترعوا البارود ؟ وكذلك فعل بعلم البيان والبديع ، فمضى يسخر من انواع الاستعارة وظل يفعل حتى شبع ، واخيراً شبهها باشكال الدرج التي منها : القرقي ، واللولبي ، والحلزوني الخ ... ثم مال الى الصرف وقال في تحذلق علمائه : ومات الاصمعي وفي عنقه من رسم الهمزة غدة .

ثم يهزأ بتمسك علماء البيان بالحروف : فيقولون الواو هنا افصح من الفاء ، وأو افصح من أم ، وهلم جرا . ويهاجم الساجعين الذين يتلاهون عن الحقيقة باستعارة او كناية او تصور غريب ، حتى يقول في المتنطّسين من الشيوخ : «يقضون ساعة تامة في شرح جملة غير تامة . »

ثم يسخر من اساليب المرسلة في عصره فيقول : « اكثر الكتاب يتهوّسون في اهداء السلام والتحيات للمخاطب كأنهم مهدون اليه عرش بلقيس . »

انك لتجد هذا السخر منثوراً هنا وهناك في كل ما كتب . خذ منه ، مثلاً ، قوله للطبيب الذي عالجه علاجاً عنيفاً : انا صاحب جثتي أفلا تشاورني ؟ وكقوله عن الانكليزية التي دعاه زوجها الى العشاء عنده وهرب من وجهه ، ولم يعشه : تسارّ بناتها كأنما نزلت بهن نكبة البرامكة .

ولست اذكر لك شيئاً عن تهكمه ببعض فرق من الناس ، فاقرأ انت في الفارياق .

ان المتمشرق الذي قال للدكتور زكي مبارك كما روى في كتابه « النثر الفني » ان الادب العربي رواسم (كليشيهات)، مصيب

جداً ، واغلب ظني انه لم يقرأ الشدياق ليعلم ان فينا من خرج من الصيرة ... ولو عرف صاحب لسان العرب ان الدهر سيلد واحداً كالشدياق لما تجرأ على القول لنا : خذوا لغتكم من اعجمي . لقد كشف الفارياق عورة هؤلاء العجم، وفضحهم على عيون الناس، وحسبك بالجاسوس على القاموس برهانــاً . ولا اكتمك هنا ان الشدياق انتقد قاموس الفيروزابادي ليهدم « محيط المحيط » الذي اعتمد فيه البستاني على القاموس ، فأصاب عصفورين بحجر واحد .

وقصارى القول : كان المعلم جاحظياً نواسياً في فارياقه ، بطوطياً في واسطته وكشف مخباه ، خليلياً في سر لياليه ، وقد صدقت الاجيبشان غازت حين قالت : « ضع الكتبة الانكليز ، سكيت ، وامرسون ، ووردزورث، وايكلف ، وديكنز في شخصية واحدة، فيمكنك حينئذ ان تتصور عظمة هذا الرجل . ولو ولد الشدياق في اوروبا لدفن مع نخبة العظماء ولنصبت له تماثيل في اكثر مدن بلاده . »

ان احمد فارس كنز ضخم مختوم كقبره ، يمر به الناس ولا يعرفونه، وهو العارف بكل شيء، ومثال العربي المثقف الكامل في القرن التاسع عشر . ان احمد فارس كجبل لبنان في كل قرنة من قرانيه معنى خاص ، وفي كل واد من اوديتـــه صورة جديدة ، فعليك به كله ، فهو للقديم متجر ، وللجديد مكسب .

الكاتب الاجتماعي

هذا ابن بيت قديم نكبته السياسة ، كما قلنا ، ولكنها تأصلت فيه فجاء سياسياً أباً عن جد . والسياسيون المنكوبون في كل عصر يصبحون افقر البرية متى انتزعت منهم املاكهم كما حل ببيت الفارياق ، فقد استصفى المير املاك جدّه حتى لم يدع له بيتاً .

وورث فارس عن ابيه ، الذي مات في دمشق ، شهيد ثورة سياسية ، مكتبة ثمينة . فصار نسّاخاً له وللناس . ولم تربح تجارته تلك فصار كاتباً لبعير بيعر (امير حيدر) صاحب التاريخ الذي طبعته حكومتنا الجليلة . فنسخ له (كما ترجم) سفاسفه التي حدثنا عنها في فارياقه . وقد حدثنا عن غفلة اميره هذا وعن اشياء اخرى لا محل لذكرها هنا فارجع اليها بنفسك ، فليس عليّ ان ازقّك كالفرخ . اما الآن فاسمع شيئاً من سفاسف « بعير بيعر » ، قال الشدياق : « ودونك مثلاً مما كان يكتبه الفارياق في اساطير بعير بيعر : في هذا اليوم وهو الحادي عشر من اذار سنة ١٨١٠ قصّ فلان بن فلانة بنت فلانة ذنب حصانه الاشهب بعد ان كان طويلاً يكنس الارض . وفي ذلك اليوم عينه ركبه فكبا به الخ ... اليوم نُظِرتْ سفينــــة في البحر ماخرة ، فظن انها بارجة قدمت من احد مراسي فرنسا لتحرير اهل البلاد ، لكن عند التحقيق علم انها انما كانت زورقاً مشحوناً ببراميل فارغة وكان سبب قدومها للاستقاء من عين كذا[١] . »

١ الفارياق ، ج ١ ، ص ٣٩ .

وبعد ما قاسى الشدياق ما قاسى في وطنه ، كان اعتقال اخيه اسعد ، ففر من بلاده لئلا يفجع بنفسه ، فنجا واخذ يطوف في الدنيا . وظل يشقى ويسعد حتى مات اخيراً شبعان من كل شيء . فغير عجيب اذن ان لمحت في ما صنّفه وكتبه دروساً عميقة لاخلاق الناس .

قد عالج مواضيع كثيرة من شؤون البشر معالجة النطاسي الاخلاقي . ولو كان غير عربي لدرّسته المدارس كما يدرّسون لابروير ، ولعول الناس على ارائه فيها كما عولوا عليه في سياسة الشرق .

ان فصوله ، التي اذاعتها جوائبه تحت عنوان « جمل ادبية » وهي عديدة تبتدىء غالباً بـ « من الناس » ، تنم عن عالم بسيكولوجي يحلل خوالج النفوس ، ويصورها بقلم غني جداً ، معتمداً في الغالب على عينه التي كانت تسبر الاعماق النفسانية ، فيدرك الكثير مما يمر به سواه ولا يرى فيه شيئاً .

وها نحن ننقل لك منها « جملة » واحدة لضيق المقام ، لعل فيها بعض الغنى عن كتبه النادرة الوجود :

من الناس

من الناس من يبالغ في مدح وطنه ، ويحن اليه حنينه الى سكنه ، فيصف مروجه ورياضه ، وبروجه وحياضه ، ووهاده ، وجباله ، وتلاعه وتلاله ، وربوعه ودياره ، ونباته واشجاره ، وبقوله وثماره ، ودوحه ، واطياره ، وطيب هوائه ، ولذ مائه ، يزعم ان فصوله كلها كالربيع حسناً ، وان جميع اقطاره تتدفق بركة ويمناً ، وان شهراً فيه خير من الف عام في غيره ، وان كل بلد مستمد من خيره ومحتاج الى ميره ، ثم يزفر زفير الهائم

الجيران ، ويصرخ صراخ الولهان ، ألا ان حب الوطن من الايمان .

هي البلاد التي تغزلت بها الشعراء ، بل قد ذكرت ايضاً في بعض الكتب المنزلة ، في عدة مواضع مفصلة ، فقيل انها معدن الخير والكرم ، ومثوى الصالحين من الامم ، ومنها كان مبدا الصنائع والعلوم في كل مجهول ومعلوم .

فاذا قلت له كيف جارك الادنى لعله كان لك عوناً وخدنا ؟ قال : وبلي ! انه شر جار ، وهو على البلاد عار وشنار .

– فكيف اهل الحارة طرا ؟ قال : وبلي ! انهم كانوا كلهم علي شراً ، ولم اجد منهم الا ضرا .

– فكيف اهل البلد اجمعين ؟ قال : وبلي ! وما منهم امين ولا معين ، فما كأنهم خلقوا من ماء وطين .

– فكيف حال الامام ؟ قال : وبلي ! انه من الطغام اللئام .

– فكيف شأن المطران ؟ قال : وبلي ! انه ذو هذر وهذيان .

– فكيف الحاخام ؟ قال : وبلي ! انه يحرم الحلال ويحلل الحرام .

– فكيف اهل الرستاق ؟ قال : وبلي ! اني قد اختبرتهم جميعاً فلم اجد لاحد منهم من خلاق ، وان هم الا جهال اغبياء ، وينقادون لمن يأمرهم من الاغنياء ، فانهم عبيد الدرهم والدينار ، ولا يبالون الا بملء بطونهم ولو من الخنشار .

– فكيف اهل المدن والامصار ؟ قال : وبلي ! انهم اولو غبن وغش واخفار ، ما تعامل منهم من احد الا ويمنيك بالكمد والنكد والخسار .

– فكيف اهل الجبال ؟ عسى انهم ممن صفت طويتهم وطاب منهم البال ، فتلك خلة قد اختصوا بها في جميع الازمان .

قال : ويلك ! ومن اين لهم الصفاء ، وقد فطروا على الشراسة والجفاء ، فابتعدوا عن الاداب ، فكادوا ان يحصوا مع الذئاب . فان احدهم ليقتل اخاه على خبزة يسد بها جوعه ، ويسلب صديقه في اكلة ويحرمه هجوعه . هذه حالة سكان البلاد ، الحاضر منهم والباد ، فلا تكثرن من السؤال ، ولا يخطرن ببالك غير هذه الحال . فان قلت له : ولكن كيف اشتملت بلادكم على تلك المحاسن ، واهلها على هذه المساوي الشوائن ؟ قال : ان اهلها الاولين كانوا من الخيرين ، فحرثوها وزرعوها ، وعمروها وامرعوها . ثم فسد الزمان فجاءت خلفاؤهم فاسدة ، لكن بقيت تلك المحاسن فيها سائدة .

– ولكن ما معنى فسد الزمان وهو لم يكن صالحاً قط منذ خلق الانسان ، والتواريخ على ذلك شاهدة ، ونصوصها عليه متساندة متعاضدة ؟ ثم كيف فسدت الخلفاء ،

وانت بقيت من بينهم صالحاً ، ترى كل من سواك طالحاً ؟ ولو كنت من الصالحين ، لما رأيت في غيرك خلقاً يشين ، فانما ينظر في عيوب الناس من كان اسوأ منهم حالا :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

كذا قال الشاعر الحكيم ، فما انت في طعنك على جنسك الا مليم ، وان امرءاً يحسب جميع اهل بلاده دونه ، لجدير بان يشيموا فتونه ، ويذيعوا جنونه ، ويتجنبوا محضره ، ويتنكبوا منظره [١] .

بين التجديد والتقليد

الفن لفظة جوفاء يستتر وراءها كل صفيق الفكر . اما العبقريّ فيخلق فنه ، وعلى الذرية ان تضع المقاييس . فشكسبير وراسين كانا قبل فرويد وعلمه . وهكذا فعل نابغتنا العظيم ، ولكنه لم يجرؤ على الطفرة ، فوضع كما يقول الفلاح اللبناني : رِجْلاً في الفلاحة ورجلاً في البور . فرأيناه تارة يسجع ، وطوراً يدع السجع هازئاً . ثم يعود الى الرجل الخشبية ، وكأنه يريد ان يكون له ما كان لاهل زمانه . فكتب اربع مقامات في الفارياق ، ولكنها في اغراض غير اغراضهم ، فطمست روح المعلم معالم التقليد . ولا عجب فهو ممن يصنعون القالب على الرجل ، لا الرجل على القالب .

وبينا نحن نقرأ ازدراءه القديم اذا بنا نراه ينهج نهجهم في عناوين كتبه : الواسطة في احوال مالطة ، كشف المخبا عن فنون اوروبا ، سر الليال في القلب والابدال ، السند الراوي في الصرف الفرنساوي ، الباكورة الشهية في نحو اللغة الانكليزية ، واخيراً غنية

١ كنز الرغائب ، جزء ١ ، ص ٢٢٦ — ٢٢٨ .

الطالب ومنية الراغب (على وزن بحث المطالب) .

كل هذا يدلني على ان عقلنا مهما كبر وتجرد من قيود الماضي فلا بد ان يظل عالقاً بشيء ولا يتفلّت بسهولة . والخوف من الغد يزيد هذه الامور تمكيناً .

واذا تساءلنا هل الشدياق عالم او فيلسوف او مؤرخ ، رأيناه كل شيء من هذا وليس بشيء منه . فهو لا تعنيه إلا اخلاق البشر من حيث الاجتماع فقط . اما استنباطه فمن الواقع . المرئيات نواة ادبه تلقى في ارض اسلوبه المغلال فتعطي كالحبة التي ضربها يسوع مثلاً . وقد تكون الفكرة مبتذلة ، فيجلوها المعلم كجنان النواسي ، فتفضح العروس وتفتن النظارة .

كان الشيخ غير مطمئن الى ما كان ينفتح في وجهه من طرق معبدة في الاساليب والمواضيع ، فتراه يصب عليها جام غضبه البارد ، فيضحكك منها كما فعل بشاعر السريّ الذي كان شعره سجلاً لحركات سيده البيتيـة . فان عطس او تنفس او نفّس عن زق جسده المحشوّ اكلاً وشرباً ، رفع الشاعر عقيرته مادحاً داعياً .

كتب الشدياق سيرة حياته بيده ، فكتبها على هواه ، وحمل فيهـا على اعدائه حملات غواشم ، فثأر لنفسه ولاخيه ، فكأنّ الدهر ابتلاه إلا ليخرج لنا من رأسه وقلبه وكل حواسه كتاباً خالداً .

ولم يقف الشيخ عند هذا الحد من الجديد ، فدفعه القدر ايضـاً في طريق اخرى من طرق الادب الحيّ ، فكان ابا « المقالة » في الادب العربي . اقتضت جريدته « الجوائب » هذا النوع من الادب الذي لم يكن للعرب به سابق عهد ، فاخذ الشدياق يحبّر « المقالات » لجريدته الاسبوعية . ثم تهافت على هذا اللون جميع محرري الصحف

كأسحق والحداد. فانتشر في ادبنا هذا النوع فيما بعد. وظل ادب «المقالة» سائداً حتى ساعتنا هذه.

لا تظنن اننا ندعي للشدياق غير ما عنده، فمعاذ الله ان ننسب اليه امراً لا يدّعيه هو، بل يدلنا على «المقالع» التي اقتطع منها الحجارة لهيكله الجبار، حين قال في عدد ٢٥ من الجوائب:

ويلي على هذي الجوائب … جاءت عليّ من النوائب
اودعتها من كل ما … شاق الاديب من الغرائب
ولها سهرت ليالي … اعتكرت باحلاك المصائب
وجلوتها بكراً على … الخطباء جلّت عن شوائب
لكنها من سوء حظي … لم تفز منهم بخاطب
فتباعدوا عنها تباعد … من يخاف من المعاطب

ما بال من يهوى العجائب … لا يرى فيها العجائب
عربية سبكاً، ولكن … تبرها تبر الاجانب
ما شمّ منها عجمة … أنف المراغم والمراقب
مع صون معنى الاصل … عما لا يلائم او يناسب
وبذاك من جهد القريحة … ما تشيب به الذوائب

هذا هو «فارياقنا» المجدد في كل ما كتب حتى «اللغة»، كما سترى.

فاذا قرأت جميع ما كتبه الشدياق قراءة مفكر متأمل، رأيت ان اسلوبه البسيط آية في السهولة. وهذا ما تراه في الفارياق وكشف المخبا والواسطة. ثم ترى في «الفارياق» جميع الاساليب الكتابية حتى المقامة، ولكنها من طراز آخر، كما قلنا.

فالشيخ هازل دائماً وابداً . وكأنه رأى ان يترك «آية» في نثر الصنعة ، فكتب مقالة من نوع الترصيع دفعه اليها تعصبه للغة العربية . فاسمع ، اذا شئت ، نموذجاً من تلك المقالة ، قال :

«اني كثيراً ما فكرت في فن البديع الذي هو من بعض الادلة على فضل اللغة العربية على سائر اللغات ، فأحببت ، هذه المرة ، ان انشيء مقالة برمتها من نوع الترصيع ، ومثاله في الكتاب العزيز : إنّ الينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم . فها انا ادعو جميع من على وجه الارض من الافرنج لمعارضة هذه المقالة ، وهي :

« من الناس من تخلج فكره من فنون الاقتراح خوالج ، وتلعج صدره من شجون الاجتراح لواعج ، وترعجه المآرب الى اقصى المرامي ، وتزعجه المطالب الى اعصى الموامي ، وتستفزّه وتستهويه ، وتستبزّه وتستغويه ، لكنه يفتح لها صبره ، ويشرح صدره ، ويجتنب بوارح الغصص ، ويرتقب لها الفرص ، ويتحين انتجاعها ، ويتبين انتفاعها ، ويخبر مشروعها ، ويسبر موضوعها ، فلا يبغيها الا حذراً ، ولا يأتيها إلا ظفراً ، ويرى ان الانتظار احسن معين على تحصيل الامل ، والاصطبار ايمن قرين لتسهيل العمل ، ورب عجل اهب الاجل ، ولا يخلو ابتسار عن انهيار ، ولا تحلو اوطار مع اخطار ، ولا يعلو منار في مغار ، واذا دانت نيّه ، او هانت ثنيّه ، او حانت أمنيّه ، لمن غادر التبصر ، وبادر التهوّر ، فطال طلباً ، ونال ارباً ، فانما يكون من قلّ النوادر ، ولا يهون لكل مخاطر[1] .

١ منتخبات الجوائب ، جزء ١ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

هذا هو شيخنا المترجح بين القديم والجديد ، يخاف على ادبه المحدث ان يتراجع امام القديم . ولهذا لم يترك خطة اسلوبية إلا ركبها ليظهر للملأ انه مستطيع ، ولكنه يريد الجديد في كل مقام .

الشدياق الرحالة

الهجرة داءٌ لبنانيّ زَمِنٌ ، سرت جراثيمه في دم القوم منذ دهور . فأهون شيء على اللبناني اقتحام البحر والقاء نفسه بين اذرع امواجه . داعب البحر صغيراً فاستخف به كبيراً . عرفه في فجر حضارته الاولى فما هابه حين اندثرت امجاده ، وانزوى بين صخوره . لم تعفّ الايام على آثار الاساطير ، فظلت قائمة في عقله الخفي كأنها الطلول الدارسة ، فكانت تحثّه دائماً وابداً على الرحلة والاغتراب .

اساطير لم تمّحِ من عقل اللبناني وان ظن انه انعتق منها وتحرر بتركه وثنيّته الاولى . فهو لم ينس ، وان اعتكف على عبادة جديدة ، واديان حديثة . انه يصلّي في اماكن كانت السيادة فيها لآلهة تتناحر وتتصارع في آفاق وساحات خلقها خيالهم الرحيب ، بل قل خيال جامح لا يكبح بلجام العقل . فهذا الاله الشاب ادونيس ، شيخ المهاجرين ، كان يقضي اربعة اشهر عند الزهرة السفلى ، واربعة اشهر عند الزهرة العليا . وهذه عشتروت تهاجر ايضاً . وهذا قدموس وهركيل ، وهذه ديده يهاجرون ايضاً .

نعم ، إنّ هذه الا اساطير الاولين ، ولكن كم للاساطير من اثر بليغ في عقل الذرية ! لقد ظلت هذه الاساطير تعمل عملها في

العقلية اللبنانية حتى استهانت بالمخاطر ، فرأت اهون شيء عليها هجرة الوطن .

اما اللبناني المقيم فظل في اطوار تاريخه كلها متمرداً ، يعنيه من اولياء الامر ما قد لا يعني غيره ، فتستفزه اقلّ مظلمة ، فيبلّ يده بقائم سيفه وطبنجته . فبينا تراه فلاحاً او مكارياً ، اذا به يتحول عند المساء سياسياً متطرفاً ، يروز الساعة الحاضرة ومشاكلها ، فيتحول في الصباح محارباً لا يثنيه عن مرامه وهواه جور او اضطهاد ... قد يحرق الظالم بيته ، وهو يعلم انه يفتدى بكلمة حسنة ، الا انه لا يقولها . عنيد ، مصرّ ، لا يثنيه الجور مهما طغى وتجبّر .

وهذا شيخنا الشدياق نموذج فحّ للبناني المتمرد . هو ابن بيت لم تكن تثبت دعائمه حتى تتقوّض . فها هم جدوده يغادرون جبّة بشري ليحلوا في صرود كسروان (عشقوت) . ثم لا يطمئنون هنيهة حتى تقضّ السياسة مضاجعهم ، وتجليهم الى حدث بيروت (حارة البطم) ، ولا تمر بضع سنوات حتى يحرق بيتهم الجديد . ثم يموت ابو الشدياق في الشام مشرداً كما مر ، ولا يطمئن الايتام حتى تمدّ نكبة « اسعد » قرنيها . فيخاف اخوه فارس ان يلاقي ما لاقاه اسعد ، فينفض جناحيه ، فاذا به في مصر المحروسة ، وقد أمن جانب الطغيان .

ولوى الصقر رأسه ينظر الى قوادمه وخوافيه ، فرأى جناحاً تام الريش فحلّق ، في جو طموحه ، فاذا به في « مالطة » يملي ويكتب ، ويعلّم ويصحّح . ويطير طيرة اخرى ، فاذا به في لندرة . ثم طار الى باريس ، ومنها قطع الى تونس حيث استقر

حيناً . ولما تألّق نجمه طمعت به الاستانة . وهناك فوق روابي اسطمبول ، جثم النسر على اعلى قمم مجده ، محدقاً الى العالم بعين حادة .

اختبر الدنيا في تجواله ، وكان معلماً ومتعلماً في حلّه وترحاله ، فما استقر حتى شرع يصدر احكامه القاطعة ، منذ قرن ، على ارقى الامم والشعوب . درس اخلاقهم في كتبه ، وقعد يلقي عليهم دروساً سنيّة في جريدته ، فأصغت الدنيا الى ما يقول ، ودان له المجد في ميداني الادب والسياسة .

ان الاديب الكبير هو من يجد قلمه مرعى في أقحل الامكنة واجدبها ، فسيان عنده الصحارى والواحات والغوط والارض والموات . وها هو شيخنا يكتب « الواسطة في معرفة احوال مالطة » فيجيد ، ثم يكتب عن لندرة وباريس . فكان في كل موضوع يلجه قلمه واثقاً من نفسه ، شديد الوطأة على المكان والزمان والسكان .

لقد أوتي عينان لاقطتان ، ومخيّلة خالقة ، وقريحة سيّالة ، ورغبة آكلة ، ولغة لم يفلت من بين مخالبه إلا القليل من مفرداتها ، فحفظها كالماء الجاري ، فتدفقت من شق قلمه ، فأنعشت النفوس وغذت الالباب والاذهان .

هوذا النسر اللبناني يحلق في اجواء الفكر ، فلا تعرقل خطته غيوم لندره . يسير الى غرضه كأنه السهم فلا يخطىء الهدف . ثقف الاغتراب شيخنا ، وألهمته الغربة ما لا يخطر ببال ، فانجلت لنا خواطره . ايقظت مخالطة الناس من كل جنس ملكة النقد الهاجعة بين جوانحه ، فاذا كلماته حراب حادة ، لا يحابي ولا يصانع .

وصف ما رأى وما سمع وما أحس . ولم يكن كغيره في هذه الرحلات راوية اخبار ، ومحدثاً عن الغرائب والعجائب ، بل كان عقلاً جباراً يناقش في كل غرض ، ويبحث كل مطلب ، مبدياً رأيه غير وجلٍ ولا هيّاب ، سيان عنده الامير وسائق الحمير ، فلكل منهما لذعة من ذلك الزنبور .

قال المتمشرق الفرنسي هنري بيريس في دراسة لنهضة الادب العربي الحديثة :

« نشر فارس الشدياق ثلاثة كتب ضمنها رحلاتـــه في الشرق الادنى واوروبا، وهي : الواسطة ، وكشف المخبأ ، والساق على الساق فيما هو الفارياق . اما الكتابان الاولان اللذان دوّن فيهما مشاهداته عن مالطة وفرنسا وانكلترا فهما تحقيقان نزيهان جديران بالتفاتنا . وهما ، مع كتاب رفاعة الطهطاوي « تخليص الابريز » ، الكتب الاولى التي نجد فيها ملاحظات شرقي عـلى الحضارة الاوروبية . واذا اتفق لنا ان قرأنا باهتمام كتاب احمد فارس عن مالطة حيث نجد بعض صفاتنا في تنظيم عرض الملاحظات ، فـــان كتابه عن انكلترة وفرنسا يختلف كل الاختلاف عن ذاك من هذه الناحية . فالملاحظات فيه مبعثرة هنا وهناك في غير ترتيب ولا نظـــام ، والحديث فيه يتصل ويتوالى ، ولا يقف عند فقرة جديدة بحيث لا يتاح لك ان تتنفس الصعداء ، فتفهم ما تطالع[١] . »

قلت : اما الشدياق في « كشف المخبا » فعنوان كتابه يدل على ما فيه . فلو كتب كتاب الغرب مئة عام اخرى مقبحين

١ المكشوف ، عدد ٤٢٦ و٤٢٧ ، ص ٢١ ، ترجمة الشيخ فؤاد حبيش صاحب الجريدة .

ومشنعين ، لما ثاروا لانفسهم ، ولكن الشدياق لم يفعل كبعض هؤلاء الذين ينظرون الى معايبنا فقط ، بل تناول الحسنات والسيئات ووضعها في كفتي الميزان .

واليك نتفة مما كتبه في ذلك الكتاب عن اخلاق الانكليز وعاداتهم وما عندهم من تشاؤم وتفاؤل ، قال :

من خصائص الانكليز حب الوطن والمباهاة بما عنده والاذعان للقوانين . واول خلة يراها الغريب فيهم هي عدم اكتراثهم له ونفورهم منه . لا يعني احد منهم بشأن جاره ولا يهمه امر غيره . فكل ذي حرفة يقتصر على الاشتغال بحرفته مدة حياته ولا يتطالل الى معرفة شيء غيرها . واذا استراح الرجل منهم ساعة ، قضاها بذكر ما عمل ، وما سوف يعمل . ويمكن ان يقال ان بهذه الخصلة استتب عز دولة الانكليز ، وعظمت شوكتها لان الرعية لا تعترض ذوي الامر والنهي في تدبيرهم ، ولا تتطاول الى معرفة ما تقتضيه اهل شوراهم . فلذلك قلما يحدث عندهم شغب او فتنة ، بخلاف اهل فرنسا ، فان كلا منهم يتطفل على اولياء الامر فيهم .

ومن طبعهم انهم لا يتزاورون، ولا يسهر بعضهم عند بعض . وربما بقي الرجل سنين ولا يعرف جاره . وغاية محاورتهم في الطريق ان يقول احدهم : طيب بطرس ، فيقول الاخر : طيب يوحنا . واذا اجتمع المتعارفان منهم وتساءلا فلا بد وان يبتدىء احدهما اولا بوصف الهواء وصحوه او برده ، ثم يخبره بما عرض له من وجع في كتفه او ثالول في رجله او اختلاج في عينيه. ومتى اجتمعوا للمنادمة وذلك لا يكون الا في القرى الجامعة ملأوا كوباً كبيراً من الجعة وجعل كل منهم يكرع منه كرعة ويدخن في قصبة من الطين ، ثم يبصق فيملأون المكان بصاقاً وقذراً . وفي خلال كل محاورة يجددون وصف الهواء وذكر البرد . ولا يكاد احدهم يضحك ضحكاً طبيعياً ، وانما هو عبارة عن قهقهة ثم يعقبها الكتم والعبوس ، فما كأن الضحك منهم الا قوة من القوى فهم يكتمونه ما امكن مخافة ان يخرج معه تلك القوة .

ان الانكليز يتطيرون من المرأة الحولاء ما لم تبادر بالكلام ، ومن السفر يوم الجمعة ، وان يكون المدعو الى عيد الميلاد رابع عشر شخصاً ، وان يعارض سكينان وقت الغداء ، وان يمشي احد تحت السلالم ، وان تبقى اغصان عيد الميلاد في البيت بعد عيد كندلماس ، والا فان ابليس نفسه يأتي ويأخذها . واذا رمى بنعلين باليتين خلف من خرج من المنزل لمصلحة يرومها كان ذلك فألا بتوفيقه ونجاحه ، وهذا تستعمله خصوصاً علية

الناس في بعض البلاد ولا سيما عند الاعراس . واذا قص الانسان شعر رأسه مدة نمو القمر نما وجثل .

ويتطيرون ايضاً من رؤية الهلال من شباك او زجاج ونحوه ، فاذا رايته في الفضاء فاقلب ما في جيبك من الفلوس وتمن خيراً في الشهر القابل تنله . وان يضع احد ملحاً في صحفة غيره ، وكذا لو قلب الملح على المائدة. واصل ذلك ان بعض المصورين الطليانيين صور العشاء الاخير ويهوذا مبدداً للملح . واذا انقلبت الكرسي برجل عزب حان كان دليلا على انه لا يتزوج في تلك السنة ، وهو غريب. فانهم شبهوا المرأة بالكرسي وهو عين ما عنته العرب بقولهم : قعيدة الرجل امرأته .

واذا تأجج لهيب النار وسمع له حس استدل بذلك على نزاع ونقار يقع بين اهل البيت. واذا طارت جمرة وسمعت لها صوتاً دل ذلك على قبضك دراهم . ورؤية نحو عسكر منقسم الى اجزاء في قدح دليل على سفر طويل ومشاق . ووقوع سكين على الارض دليل على قدوم غريب . واذا عزم الانسان على سفر واكل نصف بصلة وترك الباقي كان دليلا على عدم توفيقه . وحك العين اليمنى دليل على البكاء ، واليسرى على سرور غير متوقع ومعه ضحك . واذا اختلجت الشفة العليا واحكت كان ذلك علامة على قبلة ، او الذقن فعلى لحم طري ، او النحر فعلى اتخاذ منديل ، او الاذن اليسرى فعلى مدح يثني عليك به أحد وبعكس ذلك الاذن اليمنى ، او الانف فعلى شيء يغيظك ، او الكف اليمنى فعلى قبض دراهم ،او اخمص الرجل فعلى مخاطبتك رجلا اجنبياً ،او الكوع فعلى رقودك في غير فراشك.

ووضع مفتاح البيت على مائدة ونحوها مؤذن بالشؤم ،فالاولى ان يعلق في مسمار او وتد . واذا ما احد مات وتيبست اعضاؤه حتى لم يمكن ليها كان الموت مفرداً ، والا فلا بد من ان يأتي على آخر . ونباح الكلب بما يشبه العواء تحت الشباك دليل على الموت . وكذا اذا حاولت هرة ان تدخل من الشباك او دبت الخنافس على الموقد ، او وقفت الساعة بحيث تكون نظيفة الالات . واذا عزم احد على ادارة مصلحة وهبت الريح في غد يومه من الشمال ، فانه يفوز وينجح . واذا كسب ديناراً كسباً هيناً بصق عليه ووضعه في كيسه . وكذا يبصق عليه اذا كان اول دينار مكسوب صبيحة يومه . واذا اهدى محب الى محبوبه سكيناً او مقصاً فلا يلبثان ان يفترقا ، فلا يقبل ذلك منه الا ان يضعه على مائدة ونحوها ، او ان يعطيه في مقابلة الهدية فلساً . ووضع المنفخ على كرسي او مائدة مورث للنزاع . وازدهار النار دليل على قدوم صاحب المنزل مسروراً . وعثار انسان مرتق في الدرج يدل على الزواج ، والاكثار من الضحك يعقبه البكاء ، وصرف دينار بدراهم من دون قبض قطعة من الذهب دليل على انفاق الدراهم عبثاً. وسقوط مشاطة شعر النساء في الماء يورث تساقط الشعر، بخلاف

ما لو وقعت في النار . والنظر في المرآة ليلا مكروه الا عند الاضطرار . وابتلال ثياب المرأة وهي تغسل تطير بان زوجها يصير سكيراً . والشامة في العضد تيمن وبركة ، واذا احمر وجه الانسان كان علامة ان احد محبيه يذكره .

وتأويلهم للاحلام قريب من تأويلنا ، فالحلم بكلب دليل على صديق ، وبحية دليل على قهر عدو ، وبامرأة سيئة دليل على شر ومصيبة ، وقس على ذلك . تملأ البنات افواههن ماء ومعه شيء من حب الحمص ويمتنعن من الضحك لئلا يخرج الماء .

الزواج عندهم في شهر ايار شؤم . واذا اراد احد ان يفتح دكاناً او يتعاطى مصلحة مهمة فلا يبدأ به يوم الجمعة بل يوم الخميس او السبت . وفي السنة الكبيسة تلبس النساء ثوباً احمر تحت القفطان . وكلما اكثروا من اصناف الحلواء في رأس السنة زاد استبشارهم بخيرها وبركتها . وفي عيد الميلاد يصنعون نوعاً مخصوصاً من الحلواء يسمونه كرسمس بودن ويبقون منه شواية في الصوان تبركاً بها ، واذا مضى عليهم هذا العيد من دون اكل هذه الحلواء اوجسوا النغص والقلة سنتهم كلها . واذا كانوا غائبين عن بلادهم بعثوا الى اهلهم يستهدون منها لماظة ،فيبعثون لهم في كتاب بمثل قلامة الظفر .

وفي ليلة ذاك العيد يوقدون شموعاً كثيرة وناراً متأججة، ويزينون الغرف بالاغصان، ويظهرون الفرح والابتهاج . واذا مشت امرأة من تحت الاغصان حق للرجال ان يقبلوها . وفي اليوم التاسع والعشرين من ايلول ، ويسمونه ميكلمس، اي عيد ميكال، يأكلون الوز . وفي السادس من كانون الثاني يصنعون كعكاً مخصوصاً يسمونه كعك اليوم الثاني عشر .

ومن اوهامهم الاعتقاد بظهور روح الميت عند قبره . ويوجد في لندرة موضع اسمه هاتن كاردن فيه عين ماء يزعمون انه يجري منها دم كل يوم عند نصف الليل . ومن ذلك اعتقادهم بانه متى احتضر شخص حضر في منزله روح يسمونه رصد الميت . فيسمع له قرع على الباب او الحائط ، او صوت نحو صوت جر السلاسل ، او طنين الجلاجل ، فاذا سمع منه ذلك ثلاث مرات كان الموت بعدها لا محالة ١.

١ كشف المخبا ، ص ١٢٨ فصاعداً ، ترجمها المؤلف عن جريدة اخبار العالم ، عدد ٦٧٤ .

الصحفي السياسي

قال عن نفسه :

لقد طفت في الدنيا على غير طائل فلما بدا عجزي أنبتُ « جوائبي »
فيا ليت شعري ، والنوائب جمة ، أيخفق كل من منيب ونائب

اما نحن فنرى بيت السهروردي ، مع بعض تغيير وتحريف ، اكثر مطابقة لحاله :

كأنما هو في حلّ ومرتحل موكّل « ببيان العرب » يزرعه

وبهذه المناسبة نقول : لأمرٍ ما اصيب شيخنا بالطاعون ، وذهبت تلك الدملة كأنها بثرة من بثور الصبا . ولامر مثل ذاك « اصابته الهيضة وهي الداء المسمى في مصر بالهواء الاصفر ، فبقي ثلاثة ايام لا يعي ولا يعقل من الدنيا شيئاً ولا يقدر على النطق . سوى انه سمعه خادمه مرة يهذي ويقول : كلية موجبة كبرى ، فظن انه يستعظم مصيبته فيقول : انها كبرى . فلما مضت ثلاثون يوماً انتشر في البلد وعمّ بلاؤه ، والعياذ بالله ، فكان يموت به كل يوم الوف . ووقتئذ عرف الفارياق انه كان المقدم في هذه البلية وغيره كان التالي ، كما تقول المناطقة[1] . »

ان فارس الشدياق ابن بيت لبناني عريق ، عالج ذووه السياسة في الدنيا والدين فعركتهم عرك الرحى بثفالها . مات جده وابوه واخوه شهداء حرية الفكر والميل . وهو احد متشردي هذا البيت ، قضى حياته مجاهداً لم يدع قطراً في الشرق والغرب الا حلته ركابه ، وكتب عنه بعين لاقطة لا يفوتها شيء كأنها عدسة المصور .

١ الفارياق، جزء ١ ، ص ٣١٣ .

ففي « الواسطة ، وكشف المخبا ، والفارياق » صورٌ شتى لاحوال الشرق والغرب . فما كبرنا جهاد هذا المتمغرب الذي كان اعلاناً للدماغ اللبناني بلا ثمن . ولئن افلح وصار حجة السياسة الشرقية للاوربيين فلأن الوراثة جعلت منه سياسياً عظيماً يحسن تعليل الامور بعقله الثاقب . وليست سياسة العالم باصعب من سياسة لبنان المختلفة بضاعته الطائفية كمخازن الف صنف وصنف .

واصدق دليل على تمسك الفارياق باذيال السياسة رسائله الثلاث التي نشرنا رواسمها في عدد « المكشوف » الخاص بالشدياق ، فأقرأها تعلم ان كل المتاعب لم تشغل الاستاذ عن استطلاع سياسة وطن مات وفي قلبه حنين اليه ، وان لم يقل في ذلك شعراً . وما شرده عن وطنه وكتبه الفارياق الا تلك النكبة ، فطوحت به في الافاق يطوي وينشر ما عن له تنفيساً لكربته ، فجابت « جوائبه » الارض ، وكانت مدرسة ليلية نهارية للناطقين بالضاد ، فصحت بها لغة عصره الفاسدة ، وقامت حرب البيان على ساقها ، وكان جل فرسانها لبنانيين .

ومن الانين المتصاعد من منتخبات الجوائب يظهر لنا اعجابه بصحيفته وتألمه من حاله :

على سطح ذي الدنيا اراني نقطة اخط خطوطاً لا تسمن لي ضلعا
وقد اعجب النقاد جمع جوائبي ولكنني للنقد لم استطع جمعا

وما بلغت الجوائب عمر الجنين — اي تسعة اشهر — حتى كادت تمضي لسبيلها طرحاً . عجز الشدياق عن اصدارها ، فاعلن افلاسه في العدد السادس والثلاثين ، منذراً باقفال تلك المدرسة العظمى ، فقال والضمير في اقلّت يعود الى الدنيا :

اقلّت ذي « الجوائب » قدر حمل الجنين واسقطته في الترائب
ومن يك قرنه الافلاس دهراً فكيف يطيعه عاصي المطالب
لقد تربت يدي عن نيل طرس اخط به عن الخطط الغرائب
بكيت وليس يجديني بكاء وارخت انقضى درس الجوائب

فهب لنجدته الصدر الاعظم فؤاد باشا ، فلم ينقض درس الجوائب ، وعاشت حتى شبت واكتهلت وقال شيخنا : لله درها.. . فكان ذلك من حسن حظ الادب العربي فجددت شبابه .

لم تكن الجوائب اول صحيفة عربية ، ولكنها كانت ، بلا جدال ، اعظم الصحف العربية . كانت في عاصمة السلطنة وصاحبها امير القلم في زمانه ، يصول في ميدان السياسة ويجول بعد ما عجنته الايام وقدمته للجيل خبزاً طريفاً ، فاقبل على التهامه لما فيه من ادام وزكاء طعم .

وليس هذا زعمي وحدي ، بل يؤيدني فيه ما قرأته في مجلة المقتبس (السنة الرابعة) من نص محاضرة ألقيت في باريس على اعضاء جمعية الاخاء المصرية . المحاضرة بدون توقيع . ولهذا ظننت ان كاتبها هو صاحب المجلة الاستاذ محمد كرد علي . ومما قال المحاضر في حديثه عن نهضة اللغة العربية في القرن التاسع عشر :

« ولم تحرم الاستانة من نزول عالم العربية فيها ، اتخذها مباءة علمه ومثابة درسه وبحثه ، اعني به احمد فارس الشدياق الذي اقترح على صديقي سيد افندي كامل ، من رجال الجامعة المصرية ، ان اتوسع في الكلام عليه .»

وبعد ان ترجم وعدد كتبه الجليلة واثنى عليها ، قال :

« وانك لتدهش من قدرته على التعبير (الضمير يعود الى الفارياق)

ورشاقته في التصوير، ومتانته في التحرير والتعبير، فكأن اللغة (التي كان من جملة محفوظات احمد فارس فيها قاموس الفيروز أبادي الذي الف كتاباً مهمّاً في نقده سماه « الجاسوس على القاموس ») كانت نصب عينيه يأخذ منها كل ساعة ما يشاء، ويستحضر في دقيقة ما يصعب الاتيان به في ساعة، وينتقي ما شاء بيانه وتبيانه . »

« هبط احمد فارس مدينة الاستانة بعد ان خبر حال اوروبا خبرة زائدة، وانشأ جريدة الجوائب التي طار ذكرها في الافاق. ورزق الحظوة بعلمه، فكان ملوك الاطراف يهادونه ويمنحونه المنائح . وممن كان يساعده خديوي مصر، وباي تونس، وملك باهوبال في الهند، حسن صديق خان .

« ولقد كانت جريدة الجوائب مثال الانشاء العربي البحت، سارت جميع صحفنا التي أسست بعدها على نسقها . وقلّ ان نشأت لنا جريدة في صحتها وديباجتها العربية ... واحمد فارس، لو انصفنا، هو واضع اساس الصحافة العربية، وباعث روح الحياة في آدابنا بما خلفه من آثاره . »

قلت لك انه سياسي فلم اجد ادل على ذلك من قوله نفسه . اذاً الغاية من هذا الكتاب ان تعرف الشدياق لا مارون عبود . فقد تكون مللت شقشقتي . اما انا فآليت ان اظل احشوك حتى تنفزر . فاسمع ولو شذرة مما يقوله الشدياق في احوال السياسة :

« الاصل في السياسة ان تكون الدولة عارفة باحوال رعيتها، فتعاقب منهم اهل الشرور المفسدين، وتكافي اهل الخير المحسنين . فالركن الاول عملت به جميع الدول، اولاً لتأديب المسيء من

حيث هو مسيء ، وثانياً لتسلم هي من شرهم وهو الباعث الاقوى .

« والركن الثاني بقي غير معمول به الا ما ندر ، فان الدولة متى عرفت ان احداً من رعيتها اخترع شيئاً نافعاً لها او للمملكة ، او مهلكاً لعدوها ، فربما عينت له وظيفة ينالها ، او اكرمته برتبة او نيشان . ومن فروع هذا الركن ان تكون الدولة باحثة عمن لهم مزايا طبيعية ، وملكات غريزية ، فتربيهم في مكاتبها الى ان ينبغوا في ملكاتهم .

« والاصل في وظائف الدولة ان تكون عامة يشترك فيها كل من كان جديراً بها من رعاياها . الا انه كثيراً ما يقع ان خدمة الدولة المتضلعين بامورها يقصرون هذه المنافع على ذويهم والمنتسبين اليهم ، فانهم يرشحون اولادهم لها ، فتصير هذه المنافع موروثة لهم . وهذه الطريقة شائعة عند جميع الدول ، وهي من وجه عدلٌ ، ومن وجه ظلمٌ . فوجه كونها عدلاً ان وظائف الدولة لا ينبغي تخويلها الا لمن كان مستحقاً لها ، ووجه كونها ظلماً قصرها على اشخاص معلومين . فاذا حصل تدارك لفرع الركن الثاني ، اعني تربية من لهم مزايا خلقية ، حصل التساوي في احراز تلك المنافع .

« وبهذا الاعتبار نستدل على ان رجال الدولة لا يهمهم هذا . ولذلك كان مهملاً عند جميع الدول . فان دول اوروبا ، مع بلوغها في السياسة والادارة اقصى درجة من النظام ، لم تلتفت الى الاطلاع على هذه الحقيقة . وفي الجملة فانه لا يمكن لدولة من الدول ان تصل الى حد الكمال ، وليس كمالها الا امراً نسبياً ، فما دامت اشباحنا تتغذى بالاغذية الكثيفة ، ونفوسنا تتقلب في الاهواء

المتغايرة ، والانحاء المتباينة ، وفي كل يوم يعرض عليهـا احوال متعارضة ، واطوار متناقضة ، فالكمال منا بعيد .

« ومما يجب فعله على الدولة ان تتعرف ما عند غيرها من الامور النافعة لتنهجها في بلادها ، كما يجب على رعيتها ان يتفحصوا ما عند رعايا الدول الاخرى من الصنائع والحرف ليتعلموها منهم . ومع ان الدول الاسلامية في عهد الامويين والعباسيين بلغت غاية العز والفخر ، لم يهمها ان تعرف مـا كان عند دولة الصين من اسباب الترقي والتمدن . وهذا ابن بطوطة ، الذي جال في مشارق الارض ومغاربها ، روى لنـا كثيراً عن شعوذة الهند ، وصعود سحرتها الى الجو ، وعن امور خسيسة رآها في الصين ، ولم يرو لنا ان اهل الصين كانوا يعرفون صنعة طبع الكتاب ، وعمل البارود وغيره[1] . »

الشدياق اللغوي

كثيراً مـا كنت اعزم على نفض يدي من احمد فـارس وكتبه ، لوعورة مسالكها ، ولكنني اعود فاتشدد واقول :

حرام ان تظل الامة العربية ، في عز نهضتهـا ، غـافلة من نابغتها ، فلا تستفيد من علمه ، وما فتح الله به عليه .

حقاً انك متعب يا شدياق ! فلو وضعنا معاجم اللغة كلها في كفة وسر الليال في كفة ، لشالت في الميزان . فكلمة البحر تكاد

١ كنز الرغائب ، جزء ١ ، ص ١٠١-١٠٣ .

لا تفي صفة لاحمد فارس اللغوي . وهنا لا غير يصح ان يقال : هل ركبت البحر ؟ لا في كتاب سيبويه .

يهجس الشدياق باللغة في كل موقف ، فبينا هو يفتح عاماً من اعوام الجوائب يستطرد الى البحث في اللغة ، وبينا هو يكتب في موضوع سياسي يستطرد الى اللغة ، وبينا هو يكتب كتابه الخالد « الفارياق » اذا به يستوقفك امام نهر من الالفاظ ، يلي بعضها بعضاً كمياه النهر المتدفقة .

يقول لك الشدياق في مقدمة فارياقه : انه « بناه على اللغة ، وعلى خصائص فيها ، منها ان كل حرف يختص بمعنى من المعاني ، وهو سر من اسرار اللغة العربية التي قل من تنبه لها . وقد وضعت لهذا كتاباً مخصوصاً سميته « منتهى العجب في لغة العرب » . فمن خصائص حرف الحاء السعة والانبساط ، ومن خصائص حرف الدال اللين والنعومة والغضاضة ، ومن خصائص حرف الميم القطع والاستئصال والكسر ، ومن خصائص حرف الهاء الحمق والغفلة والرث اي قلة الفطنة . ومن هذا الغريب ايضاً كون بعض الصيغ يختص بمعنى من المعاني[1] . »

واذا فتحنا مقدمة سر الليال وجدناه يقول ، بعد ان فصل اساليب العرب وبيّن عجز غيرهم عن الاتيان بمثل فنونهم واساليبهم وانماط كلامهم شعراً نثراً : « فاحمد الله على انها لغتي التي نشأت عليها وحبوت اليها ، وفيها لذ لي تعبي وطاب لي نصبي ودأبي . ثم احمده ، عز وجل ، على ان آتاني نصيباً من غيرها ، وان قل ، حتى صح لي

١ الفارياق ، جزء ١ ، ص ١ – ٢ .

ان اقول بتفضيلها عن يقين في النفس ، لا عن تخمين وحدس ، فهي التي زينت كثيراً من لغات الافرنج وبيضت وجوه الزنوج . »

وبعد ان يقدم الادلة على القلب والابدال الذي اثرت به اللغة العربية يقول : « وسيأتي مزيد بيان هذا ، وستراها كلها مندرجة في هذا الكتاب ، بما يقضي بالعجب العجاب ، ويعجب المتأمل فيه غاية الاعجاب . فانه (اي كتابه) كشف مستور المباني التي لم يمد لاظهارها احد قبلي باعه ، واوضح من مشكلات المعاني ما خفي عن جمهور ارباب هذه الصناعة ، ومروّجي هذه البضاعة . وان كنت اقلهم علماً ، ودونهم فهماً ، فانما هو سر كشفه الباري ، سبحانه وتعالى ، في بعض الليالي الشديدة ، والنفس قانطة من الفرج ومتمنية اللحاق بمن درج . ولذلك سميت المؤلف « سر الليال في القلب والابدال » ، وكان الاولى ان يسمى باسرار اللغة او اسرار الكلام . ولكن هكذا جرت التسمية فلم اعدل عنها ، لاعتقاد انها جرت على الوجه الذي جرى عليه الكتاب ، ولان الناس يؤثرون علم سر الليل ... على سر اللغة[1] . »

ولما كان صاحب البيت ادرى بالذي فيه ، فلندع الامام يحدثنا عن كتابه الذي لم يعمل مثله في لسان العرب ، قال :

من فوائد سر الليال اذا اتخذت الفعل المضاعف اصلا ، وفرعت عليه جميع الافعال ، وجدت بينه وبينها تناسباً وتجانساً ، بحيث تتأمل في حقيقة الاصل وتدرك معناه . مثال ذلك : لفظة فت ، فان معناه الدق والكسر بالاصبع ، ولازمه التفتح ، لان كل ما انكسر انفتح . ثم تقول : فتا ، كمنع ، كسر واطفا . وما فتا مثلثة اي ما زال ، وحقيقة معناه ما انكسر وما انقطع . ثم فتح ضد اغلق

[1] سر الليال ، ص ٢ .

وهو ظاهر . ثم الفتح ، اصل معناه : انكسر . تقول فتر الحر كما تقول انكسر الحر . ثم الفتش ، وهو طلب عن بحث ، كذا تعريف صاحب القاموس له . وحقيقة معناه : طلب فتحه وكشفه ، وهو اكثر ظهوراً في فتشت الثوب بالتخفيف والتشديد ، ثم فترصه بمعنى قطعه ؛ ومثله فرصه . ولا يخفى ان القطع والكسر من مورد واحد . ثم فتغه ، كمنعه ، وطئه حتى ينشدخ ، وهو مبني على الكسر والتليين . ثم فتقه شقه ، وهو جامع لمعنى الكسر والفتح . ثم الفتك ان يأتي الرجل صاحبه وهو غافل حتى يشد عليه فيقتله ، وهو غير منقطع عن معنى الكسر ، ولكنه خصص بهيئة معلومة . ثم فتله اي لواه ، ثم فتن الذهب والفضة اذابها للاختبار ، هذا اصل المعنى ، وهو مبني على التكسير والتفتيح . واصل الفتنة الخبر ، بمعنى المحنة ، ثم اطلقت على اختلاف الناس في الاراء ، وعلى الضلال والاضلال والجنون والاثم والكفر والفضيحة والعذاب وغير ذلك ، وكله لا يخلو عن المناسبة .

ثم الفتى الشاب ، والفتا الشباب ، وحقيقة معناه تفتح الصبي في سنه ، والفتوى بضم الفاء وفتحها ما افتى به الفقيه ، وحقيقة معناه ما فتحه وكشفه ، ويؤيد ذلك ان الفتح جاء بمعنى الحكم بين الخصمين ، وفاتحه بمعنى قاضاه ١ .

ففي ما ذكر يدلنا الشيخ على خاصة جديدة من خواص الحرف غير تلك التي رأيناها في مقدمة الفارياق . وملخص ذلك ان معنى الفعل المضاعف مثل : فت ، اصل المعنى في ، وفتح ، وفتخ ، وكل ما جاء من افعال تبتديء بالفاء والتاء . وقد كان الشيخ يكتب ، كلما اقتضت الحال ، فصولاً في اللغة ، وهو ، كما قلنا لك في ما سبق من فصول ، شديد الانصباب على ما ينقض عليه ، واذا مضى في تأييد رأي من آرائه لا ينثني او تلين له مقاليد البحث . وها هو يأخذ برأي جديد يعزه ببراهينه ، مستنداً الى « سر الليال » :

وقد ذكرت في احدى الجوائب ان اللغة العربية اصل للغة السريانية والعبرانية ،

١ مختارات الجوائب ، جزء ١ ، ص ١٩٧ – ١٩٨ .

واوردت الدليل على ذلك من وجود علامات الاعراب في العربية ، ثم قلت : فمن لم يقتنع بهذا الدليل رجعته الى « سر الليال » ، والمراد بذلك ان هذا الكتاب موضوع لتبيين مشتقات الالفاظ ، ونسق الافعال بعضها ببعض بايضاح معانيها . وبهذه الطريقة تندفع دعوى من يدعي ان بعض هذه الالفاظ مأخوذ من اللغات الاعجمية . مثال ذلك لفظ الكنز . زعم العلامة الخفاجي في شفاء الغليل انه معرب : كنج ، وقال الثعالبي في فقه اللغة : فصل في ذكر اسماء قائمة في لغة العرب والفرس على لفظ واحد ثم ذكر منها الكنز . فكأنه يزعم ان ذلك على سبيل التوافق .

نقول في الجواب : بناء على ترتيب سر الليال ان كنه كنأ وكنونا بمعنى ستره ، ومثله جنه ، ثم كنبه في جرابه كنزه ، والكانب : الممتلىء شبعاً ، ثم كنت في خلقه قوي ، ثم كنت تقبض ، ثم كند النعمة كفرها ، وحقيقة معناه سترها . ومثلها في المآخذ غمط النعمة فانه وارد من « غم » بمعنى ستر ايضاً . ثم كنز الشيء في الوعاء خباه ، ويقرب منه جنز . ثم كنس الظبي دخل في كناسه ، فلم ينقطع عن الستر ، والكنيسة متعبد اليهود او النصارى ، وحقيقة معناها مكان يستتر فيه الخ...

الى ان يقول :

فانت ترى ان معنى الستر والجمع دائر في جميع هذه الالفاظ ، فاذا ادعى فارسي ان الكنز معرب كنج ، او سرياني ان الكنيسة معرب كنشي بمعني جماعة ، قلنا لهما : بل انتم قوم لثغ لم تحسنوا النطق بالفاظنا فبدلتموها وحرفتموها .

وقس على ذلك ما اذا كانت اللفظة جامدة ولكن تقدمها الفاظ مشتقة جاءت على وتيرة واحدة فانا نحكم بموافقة معناها لها . مثال ذلك : لفظة الشمس فانها تظهر في اول الامر انها لفظة جامدة ، فاذا قابلتها بالشم والشمخ والشمر والشمز وغير ذلك مما يدل على الارتفاع ، حسياً كان او معنوياً ، حكمنا للشمس بهذا المعنى . وبهذه الطريقة يبطل تمحل الذين يحاولون نسبة القصور الى اللغة العربية ، فتراهم ابداً حائمين حول لغات الاعاجم ويقولون : ان الفاظ العرب مأخوذة منها من دون دليل ولا برهان ، وما ذلك لحصول بعض المشابهة بين العربية وغيرها ، كان الاولى لهم ان يقولوا في الاقل ان ذلك وقع على سبيل التوارد ، لا ان يجزموا بكونها معربة .

نعم اني لا انكر ان يكون قد دخل في لغة العرب بعض الفاظ من لغة العجم وهي اسماء لاشياء لم تكن معروفة عند العرب كلفظة الاستبرق ، مثلاً ، الا ان ما كان بخلاف ذلك لا ينبغي ان يحمل عليه ، فلا يصح ان يقال ان اللجام معرب ، لان

العرب عرفت الخيل وما يلزم لها قبل جميع الامم . ومن هذا القبيل الكنز والخوان ونحوهما مما ذكر في شفاء الغليل ، وكليات ابي البقاء . ومما مر من تناسق الالفاظ في العربية تعلم ان هذه المزية مخصوصة بها .

والمزية الثانية اشتقاق عدة الفاظ من اصل واحد كقولك من كتب : كتاب ومكتب ومكتب (بفتح الميم وكسرها) وكاتب واستكتب فهذه المزية لا توجد في لغات العجم مطردة ، وقس على ذلك سائر المحاسن الغريزية التي اختصت بها هذه اللغة الاصيلة دون جميع اللغات . ومع هذا فان الناس هنا يرغبون عنها الى اللغات المشوهة بالتلفيق والترقيع والتجديع والتقطيع ١ .

اني لاقرّ بعجزي عن مجاراة الشيخ في ميدانه هذا ، فما رأينا قبله لغويـــاً بحث اللغة فردّ ألفاظهـا الى اصول قليلة اشتبكت فروعها فصارت ادغالاً مخوفة ، ولا من كشف عن خصائص الحرف فدلنا على حكمة الواضع . فالشدياق عالم قارح ، رأسه كمخازن الترانزيت التي تتكدس فيها البضائع ، او كأهراء فرعون يوم اقام يوسف يعقوب قهرمـاناً له ، فهو مستودع الجرايات في هذه المجاعة . اغار على جاسوسه وسر لياليه كثيرون . ففي عدل بنيامين الف كأس يوسفية ، تخبرنا ان الذين بحثوا اللغة والقواميس بعده عيال عليه كما كانوا على الجاحظ قبله . انهم ينهبون ولا يستحون ، ويسرقون ثم ينسون انهم سرقوا الرجل فيدعون معرفة ما سبق اليه ، غير منوهين بذكر رجل جاهد ثمانين حولاً ، ولم يسأم ... فما فهمه الشدياق من اسرار اللغة لم يخطر ببال احد . ولهذا اعجب بسر لياليه اشد الاعجاب حتى أفرط في الثناء عليه وعقد الفصول معلناً فائدته لاولي الالباب ، فكان كالكريم حين يخشى ان لا تأكل من الوان مأدبته كلها ، فيتولى بنفسه امر تشويقك وترغيبك .

١ منتخبات الجوائب ، جزء ١ ، ص ١٨٧ – ١٨٩ .

احمد المتمغرب

عجب الناس لهؤلاء المتمشرقين الذين درسوا ادبنا وكتبوا بلغتنا، حتى تمنى الاستاذ الجليل ابراهيم المنذر، في مقال قدم به كتاب «المستشرقون» للاستاذ العقيقي، ان يكون عندنا متمغربون. يا للعجب العجاب !! أما وجد المنذر فينا متمغرباً؟ ألا يراهم في بيته حوله وحواليه؟ اننا احوج الى التمشرق. فجبران متمغرب، وغانم وخيرالله مثله، والريحاني كذلك، والقرم وفصيلته مثلهم، والباني والسمعاني والحاقلاني ونوفل والتولاوي والفغالي متمغربون. فما اكثر الغربيين فينا واقل الشرقيين!

قد تمغربنا يا شيخنا الكريم، وكتبنا بلغة القوم كما كتب نوابغهم. أليس ابناؤنا متمغربين ايضاً؟ اما هؤلاء المتمشرقون فآثارهم امامك، وان كنت لم ترها فارجع الى الفارياق وكشف المخبا، فعند احمد الخبر اليقين.

اما ان كنت تبغي متمغرباً بالمعنى الاتمّ، فها هو امامك. هو هذا الجهبذ. لم اجد لفظة اصلح منها لانعته بها، فكأنها وضعت لتقال فيه. هو النائم في الحازمية نومة الابد بعد ما ملأ الدنيا نصف قرن. هذا الذي تمغرب وثأر للشرق من كتّاب الغرب، واكتشف من عيوب المغرب اكثر مما اكتشفوا عندنا. ولكنه كان اعدل منهم فذكر ما لهم وما عليهم، بينا هم لا يرون عندنا الا المخازي والمعايب. قد زيف بضاعة المتمشرقين المزجاة، فاقرأ تعلم اي مقدار من العلم بلغتنا عند هؤلاء الذين نمشي خلفهم ثم لا نسأل الى اين ...

ما رأي شيخنا الابراهيم بمتمشرق قرأ «حِبلَ بينهما» «جَبَلٌ بينهما» وذلك في قول الشاعر الاندلسي :

يارب امٍّ وطفلٍ حِيلَ بينهما   كما تفرّقُ ارواح وأبـدان

ثم شرحه شرحاً وافياً ، فصرف ساعات تامة في شرح جملة غير تامة ، كما قال الشدياق .

اقرأ في الفارياق تلك الوعظة الشهيرة التي القاها احد هؤلاء المتمشرقين في كنائسنا ، ولا ترمِ شيخنا بالغلو . فوالله وبالله وتالله ، قد سمعت باذني الثنتين افظع منها[1] . فهذا هو المتمغرب الكامل الثقافة . عرف زهيراً كما عرف شكسبير وملتون ولامرتين وفرجيل ، فحدثنا عن ادب الغرب وخص بالذكر منه الشعر ناعياً عليه رموزه وغموضه . انه لم يترك شاردة ولا واردة . واذاع بالطبع كتباً عربية نفيسة كما اذاع المتمشرقون . وحسبه انه نشرها سالمة من فاحش الخطأ الذي لا يدركه اولئك .

واني لاعجب من المتمشرق كراتشكوفسكي الروسي الذي عدّ شدياقنا من غير البلاد العربية . فلو قرأ الشدياق كلمته تلك لنهض من قبره ومشى اليه حاملاً احدى الاسطوانتين يعاتبه بها عتاباً بشّارياً ، واسمعه ما اسمعه سواه من اهل زمانه ... فالرجل يأبى ان ينسب لغير بلاده ولو اعطيته ملء الارض ذهباً . وحسبنا دليلاً على تعصّبه لجبله انه طاف اوروبا بزيّه الشرقي ، وكم استغربوه ولم يبال . وكم هرب من غوغائهم في شوارع عواصمهم . فيا اخي الشيخ ابراهيم ، ان شئت عملاً يذكر فخض في عباب «سر لياليه» ،

[1] اقرأ الوعظة المذكورة في الفارياق ، جزء ١ ، ص ١٧٢-١٧٣ .

وهات حدّث الناس ، ولا بأس عليك ان قلت : فيا لك من ليل تمطّى بصلبه ...

اما الآن فالكلام للشدياق في كشف المخبا يصف لنا المتمشرقين ، قال قدّس الله سرّه :

ان من يعرف منهم ، مثلا ، بعض كلمات من اللغة العربية ، ومثلها من الفارسية او التركية ، فاذا الف كتاباً بلغته ادرج فيه كل شيء يعرفه من غيرها ، ليوهم الناس انه لغوي . وما عليه ان يكتب تلك الالفاظ على حقها او يخطيء فيها . وفي عنوان كتابه تعلق عليه جلاجل من الالقاب الطنانة فيكتب له انه من اعضاء جمعية كذا ، وملخص كتاب كذا ، ومحرر نبذة كذا ، وخطيب مثابة كذا وهلم جرا . ولو عصرت كتابه كله لما بلت منه صدى مسألة ، وذلك لانهم لا يأخذون اللغات عن اهلها . فمها يخطر ببالهم في تأويلها يقذفوا به جزافاً من دون تحرج وينسبوا اليها ما ليس منها . انظر الى ريشردصون الذي الف كتاب لغة يشتمل على لغته ، وعلى لغتي العرب والفرس ، فاقسم بالله انه لم يكن يدري من لغتنا نصف ما ادريه انا من لغته ، لا بل سولت له نفسه ايضاً ان يترجم العربي فخلط فيه ولفق ما شاء . فمثل للاضافة بقوله : نصراً عقبه ، وفسرها بانها مثنى مضاف الى العقبة .

واورد حكاية من كتاب الف ليلة وليلة عن ذلك الاحمق الذي قدر في باله ان يتزوج بنت الوزير ، فلما بلغ الى قوله : ولا اخلي روحي الا في موضعها ، ترجها بقوله : لا اعطي الحرية لنفسي ، اي لزوجتي ، الا في حجرتها .

وقوله ايضاً : ولا ازال كذلك حتى تتم جلوتها . صحف جلوتها بجلدتها فقال : ولا اكف حتى يتم ذلها . وعند قوله : حتى يقول جميع من حضر ، كتب في الحاشية : حظر وحضرة بمنزلة السمو في الانكليزية ، وقس على ذلك .

واذا ترجم احدهم كتاباً رقعه بما عنّ له وسبكه في قالب لغته . فقد قرأت كثيراً مما ترجم من كلامنا الى كلامهم ، فاذا هو مسبوك في قوالب افكارهم مما لم يخطر ببال المؤلف قط . وقرأت ترجمة منشور صدر من الملك في الحض على الجهاد ، من جملته : ليس لعباد النبي من خلاص في هذه الدنيا ولا في الآخرة الا بجهاد الكفار . فانظر ان كان المسلمون يقولون ان النبي معبود .

وما رايت احداً تحرج من هذا التلفيق والافتراء والترقيع غير مستر « صال » الذي ترجم القرآن ، ومستر « لان » الذي ترجم حكايات الف ليلة وليلة ، ومستر برسطون

الذي ترجم خمساً وعشرين مقامة من مقامات الحريري .

اما الاول فقد ذكر فلتير انه مكث بين العرب سنين عديدة واخذ عنهم علم العربية حتى تهيأ له ترجمة القرآن . ولست من ذلك على ثقة اذ الظاهر من مقدمته لترجمة انه لم يخالط العرب ، وكيفما كان فهو من المحققين . واما الثاني فانه لبث في مصر وعاشر علماءها وادباءها . واما الثالث فانه كان قد سار الى الديار الشامية واستصحب بعض اهاليها . وما عدا هؤلاء الثلاثة فكما قال عقيل بن عاقمة لعمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه :

خذا بطن هرشى ، او قفاها ، فانه كلا جانبي هرشى لهن طريق

فان احدهم لا يبالي ان يؤدي معنى الترجمة بأي اسلوب خطر له . فلو قرأ سباً في كلامنا ، مثلا ، بان قال بعض السبابين لآخر : يحرق دينه ، ترجمه بان دينه ساطع متلهب من حرارة العبادة والغيرة ، بحيث انه يحرق جميع ما عداه من الاديان ، اي يغلب عليها ، فهو الدين الحقيقي القاهر كما ورد : ان الله نار آكلة ١ ...

الشدياق والحرية

الشدياق وان كان اقطاعي الاب والجد ، فهو اول ثائر على الاقطاعية التي اذاقته واذاقت بيته الامرّين . فر من لبنان خوفاً على حريته ، وقد قال لجلسائه حين عاد الى لبنان خلسة عام ١٨٣٧ :

« ان رأس الفقير ليس بأضيق ولا اصغر من رأس الامير ، وان يكن هذا اكبر عمامة منه واغلظ قذالاً ... ارفعوا فرق المذاهب من بينكم ، فذلك ادعى لكم الى الحظ والسرور . اعلموا ، هداكم الله ، ان فرق الآراء في الاديان لا يمنع من الالفة والمخالة ٢ . »

واذا انتقلنا الى ساحات الحرية الاخرى رأينا الشدياق جوّالاً

١ كشف المخبا ، ص ١٢٠ – ١٢١ .
٢ الفارياق ، طبع باريس ، ص ٤٦٣ .

سبّاقاً في جميع ميادينهـــا ، فهو ينتصر حتى للعبيد ، ويحمل على الاتجار بالرقيق حملات شعواء . ولهذا نرى هـذا الشدياق سابقـــاً معاصريه مراحل .

اما المرأة التي نبتهج اليوم باننا من انصارها وندعو لانصافها ، فقد انصفها الشدياق منذ قرن . واذا قلنـا ان الشدياق كان نصير المرأة فكأننا لم نقل شيئاً ، لان الشدياق احب المرأة حباً جماً ، وهو يصرح انه بنى كتابه الفارياق على اثنتين : اللغة والمرأة . فلا عجب ، اذن ، ان هب لنصرتها ، محاولاً انقاذهـــا من غطرسة الرجل الذي استبد بها مرة واحدة .

كان بودّي انـ انقل هنا فصلاً من اروع فصوله ابتكاراً ، شق فيه طريقاً فنية جديدة سلكها من جاء بعده . كتبه حول حرية المرأة ، وفيه تظهر ، الى جانب جمال هذا الفصل الفني ، آراء المؤلف في نصفنا الثاني – كما يعبرون . ان المجال هنـــا ضيق ، فستقرأه ، ان شـــاء الله ، مع فصول كثيرة غيره من روائع الشدياق ، في سلسلة « صفحات خالدة » التي تصدرها دار المكشوف العامرة .

وجاهة الشدياق ونفوذه

كان الشدياق كما قال عمر عن نفسه : أخا سفر ، جوّاب ارض ، ولكننا لم نشعر قط بحنينه الى وطنه في كل ما كتب ونظم ، فكأنه قطع السرة بينه وبين بلاده .. اما اذا عدنا الى رسائله الخاصة التي نشرناها في عدد «المكشوف» الخاص ، فنرى حنيناً الى دار المنشأ والمربى في رسالته الاولى التي بعث بها من مالطة عام ١٨٤٠ ، جواباً الى اخيه طنوس . فهو يقول فيها :

وحصل لي بورودها من السرور ما لا يكاد يتحمله متحمل ، واكد لي صفو العيش في المستأنف ايضاً . غير اني كنت ارجو عند فض ختامها كثيراً من التعاريف لما انه قد مضت علينا سنون دون مراسلة ما ، واذا بها قد اتحفتني بسطرين فقط ، غير انه عم الصيد جوف الفرا ، وذاك لاني احرزت منها ما كنت ابغي خاصة وهو وجودكم سالمين . فاما اجمالكم في الاخبار عن صحة جميع الاهل فانه وان سر فلا يقوم مقام التفصيل ولا سيما مع اهمية المقام ، فقد والله ابيت الليل قلقاً للاطلاع على سلامة والدتنا العزيزة ، وقد استخبرت عن سلامتها من اخي غالب غير مرة فخبرني عنها إخباراً مجملا . فكيف بالاقتناع والقلب في التياع ، والدمع في تهماع ، ومن اين السلو ، والبين في غلو ، والوجد في نمو ، فيالله :

اما تغلط الايام فيّ بأن أرى حبيباً بداني او عدواً مباعدا

هذا وقد حدث بعدنا وقائع شتى ، وهرمت فتيان وخلقت اخلاق ، وربما استنسرت البغثان وتصقرت الغربان ، والعين غير شاهدة ، والخواطر غير جاحدة .

وبعد عدة اسئلة يخبره انه ارسل شيئاً من الدراهم تحت يد الخواجه طمسون الانكليزي المقيم في بيروت ، خدمة لوالدته العزيزة . والمبلغ المذكور عشرون ريالاً فرنساوياً . ثم يخبره عن

احواله بالتفصيل ، ثم يسأل :

وهل الامراء الشهابيون في حالهم القديم ، وهل الحدث والحارة ايضاً لم تزالا كفيراً صغيراً ، وهل صارتا امصاراً ؟ وهل الخواجا يوسف مخايل غب رجوعه من مصر صار قاضياً او مفتياً ؟ وهل انكسار ابرهيم ياغي لما يجبر . وهل بينكم وبين المعلم ناصيف اليازجي اتصال في شيء ، فان كان فأبلغوه منا السلام .

والذي ينبغي ان نعلم من احوال البلاد احوال اولاد عمومتنا جميعاً كل على حدته . وقد كنا سمعنا ان ابن عمنا انطون وجيه في الدولة البشيرية، وان جفالا مستخدم عند الامير بمقام كريم... وهل بينكم وبين عيلة بحري بك معرفة ،وهل المعلم بطرس كرامه في وجاهة الموما اليه . اما من حادث يقتضي التعريف ؟

ثم يخبره اشياء عن مالطة واحوالها ، الى ان يسأل :

وهل اخوالنا في كسروان سالمون ، وهل ابن خالنا بولس (البطرك بولس مسعد) رجع من رومية وصار اكليروسياً ؟ وهل اهل بعبدا لم يزالوا اهل جدال ومماراة ، واهل الحدث اهل هلع ومداراة ؟ وهل من خبر عن عينيو وبيغزلي ؟

وكل هذا التعريف عنه ينفي من وحشتنا في هذه الغربة ، وينقص من كيد الدهر لنا ، فاما لو كنا في اطرافكم لما كان فيه كبير مزية .

الى ان يقول اخيراً :

وارجو ان تطالعوا رسالتي هذه قبل رد جوابها ، ولا تؤاخذوني باطالة المقال فان الوجد يوجبه الخ[١] ...

ثم كان الانتقال الى لندرة وباريس فتونس فالاستانة . والقت حرب الايام اوزارها فحسم الصلح مـــا اشتهته الاعادي ، فصار احمد فارس افندي ذلك الرجل الذي يشار اليه بالبنان . وعلى عزه وجاهه ومجده لم يتنكر لقومه ، فكان قصره في الاستـــانة العليّـــة بيت العرب اجمعين يهرعون اليه مستجيرين ، فيجير على الصدور العظام ، وحيناً على جلالة مولانا السلطـــان عبدالحميد ،

١ تجد هذه الرسالة كاملة ، خطاً وطبعاً ، في المكشوف ، السنة الرابعة ، العدد ١٧٠ ، ص ١٠ ، بتاريخ ١٧ تشرين الاول ١٩٣٨ .

ويكون له ما يريد .

فعندما ثار يوسف بك كرم في لبنان انتصرت له جوائب الشدياق فكسرت شوكة خصومه عند الخاقان ، فعدّ ثائراً على داود باشا الارمني لا على الدولة العليّة[١] .

حدثني صديقي الاديب الاستاذ واصف البارودي مفتش التربية الوطنية ، قال :

حدثني عمّي الشيخ محمد ابرهيم الحسيني قال : كنا عند احمد فارس فاذا بولده سليم يدخل علينا حاملاً ظرفاً مذهباً ويقول لابيه : هذا الوسام المجيدي المرصّع قد انعم به عليك جلالة مولانا السلطان .

فهز احمد رأسه وقال : مولانا السلطان ، ايده الله ، يحسبنا تلاميذ مدارس فيشجعنا بالنياشين . ضعه هناك .

وبقيت اتردد على قصره الذي كان قبلة العرب الطارئين على عاصمة السلطان ، وكانت جميع حاجاتهم مقضية . وقد قلت في ذلك هذين البيتين :

قالوا يزورك احمد وتزوره   قلت الفضائل لا تفارق منزله
ان زارني فبفضله ، او زرته   فلفضله ، والفضل في الحالين له

ناهيك بأني مدين له بحياتي ، فلولا احمد فارس كنت في الابدية منذ زمان . دفعني طيش الشباب ونخوته ، فرددت على فتوى صدرت عن مشيخة الاسلام ، فدرى احمد فارس بما بيّتوه لي ، فسفرني من اسطمبول قبل ان يقبضوا عليّ . ثم تدارك امري .

لقد انقطع عهد الحنين كما رأيت ، ولماذا يحنّ احمد فارس بعد ،

١ تاريخ الدبس ، الجامع المفصل ، ص ٥٣١ .

ما دامت دنيا العرب في داره ، والسلطان يريده ويخشاه في وقت معاً . كانت يده لا تطاله ، لانه حاصل على الرعوية الانكليزية ، كما مر في سيرة حياته . يعلم السلطان ان احمد فارس يؤيده ، ولكن هواه مع خديو مصر . وهذا يتضح من صـــدور الارادة السنية بارجاع احمد فارس من مصر الى الاستانة ، ولم يسمح له بالذهاب الى لبنان .

اما ميل احمد الى الخديو فيظهر جلياً من جوابه الى ضاهر الشدياق . كتب ضاهر هذا الى عمه احمد يسأله ان يوصي المتصرّف الجديد به (رستم باشا) ، فأجابه برسالة يعنينا منها هنا هذه الاسطر :

« اما طلبكم ان اسعى لكم بطريقة عند متصرّف لبنان الجديد فلا مانع منه . غير اني يا ولدنا ليس لي تعلق بهذه الدولة اصلاً لاني لست في خدمتها ، واكبر اعداي هو ناظر الخارجية . فاذا كان هذا المتصرف من حزبه وعرف ان في خدمة الحكومة بعضاً من اقاربي طردهم لا محالة . »

هذا ما كتبه بالقلمين العربي والكرشوني كما نرى في هـــذا الروسم . وفي ذيل هذه الرسالة عبارة اخرى كتبت بالقلم الكرشوني ايضاً ، هذا نصها :

«سبب كون ناظر الخارجية عدوّاً لي كونه عدوّ افندينا الخديو[1] .»

١ تقرأ الرسالة كاملة في العدد السابق ذكره من «المكشوف» ، ص ١١ .

ثم انقضى عهد متصرفية رستم باشا وجاء بعده واصا باشا . وكان عهده عهد رشوة وبرطيل ، فضج لبنان من تصرّف صهره كوبليان الذي لم يكن يقضي امراً ، ولو طفيفاً ، الا بثمن غال . فنهض حزب لمقاومته ، فاتصلوا بقصر الشدياق في الاستانة . وكان احد رجال هذه الحملة على واصا باشا احد افراد بيت الشدياق ، وهو يوسف بك الشدياق . فاخذت حكومة واصا باشا تترصده حتى وقع في الفخ ، واوقف في طريقه الى مركز عمله ببيروت ، في محل رعد وهاني التجاري . فعثروا معه على اوراق نأخذ وصفها وتفاصيل ما حدث عن مذكرات المرحوم جرجس بك صفا الخطّية ، الموجودة نسخة عنها في حوزة الشيخ فؤاد حبيش . واليك ما جاء فيها حرفياً :

وكانت هذه الاوراق حاوية كما يأتي ملخصها :

جرائد مصرية حاوية نشر فضائح واصه باشا وصهره قوبليان الارمني و... وحاشيتهم واتباعهم ، واشاعة معايبهم ، وتحارير من سليم افندي الشدياق ابن عمه كتبها وارسلها الى يوسف بيك جواباً على تحارير كان ارسلها يوسف بيك الى ابن عمه سليم . يقول في التحرير : اني رأيت انه يهمكم امر لبنان وشكل ادارته ، وقد تداولت مع سيدي الوالد. والذي يجب ان تعرفوه انه ليس لكم مساعد او وسيلة الا الجرائد وتحريك الصحافة ، وان تكتبوا فيها كل ما تطلبونه من الاصلاح او غيره . ويلزم ان تعرفوا ان الذي رفع شأن الشعوب وقلب التيجان واسقط الحكومات انما هو اهل السياسة ، وهم الذين هذبوا واصلحوا وغيروا احوال الامم ، ولم تبق طريقة السيف والرمح في هذه الايام ذات تأثير ، فان استقلال السرب واليونان والجبل الاسود والبانيا انما فعلته السياسة . فاذا شئتم ان يكون لكم صوت ولبلادكم نصيب فعليكم ان تلتجوا للجرائد السياسية وهي عليها في هذه الايام المدار الخ...

وهكذا كان يوسف بيك كالارض العطشانة اتاها وابل المطر ...

ومما وجد من الاوراق مع يوسف بيك مكتوب من سليم فارس الشدياق يقول له فيه كيف يجب ان يكون انتخاب مجلس الادارة في لبنان ... وان يعطى لمجلس الادارة

صلاحية اوسع مما هي في الحالة الحاضرة ، وان يكون له حق المداخلة بامور الادارة ومراقبة سيرها وغير ذلك ، مما اثار غضب المتصرف ورجاله ، فامر باعتقال يوسف بيك في اعماق السجن المعد للقتلة ، ووضع في غرفة مسدودة النوافذ ، وكان يضيق عليه ويراد اهلاكه لانه في نظرهم خيانته هي بحق مولانا السلطان ، وبقي كذلك .

وحبس بالمعاملة ذاتها الشيخ فيليب الخازن لانه تعرض لمثل هذه الامور ، وكتب في الجرائد يندد بالحكومة اللبنانية ، وانها ترتشي . ولم يجسر احد ان يتكلم كلمة رجاء في تخفيف عقوبة يوسف بيك حتى ان الخواجات رعد وهاني لم يجسر واحد منهم ان يزوره في سجنه ويتداخل بشأنه . والرجل الوحيد الذي سعى بجد ونشاط هو المرحوم نجا الشدياق ابن عمه ، فانه مع انه كان على عداء مع يوسف بيك فانه ما فتىء يكاتب سليم فارس ابن عمه حتى استصدر ارادة سنية تلغرافية باطلاقه ، فوصل التلغراف من الاستانة الى المتصرف نحو الساعة ١١ ليلا ، وفي الدقيقة نفسها امر الباشا باخلاء سبيل يوسف بيك ، وبان يؤخذ منه ورقة ممضاة منه عن دقيقة اخلاء سبيله . وقد اغتاظ واصه جداً من كبحه ، واخراج يوسف بيك من السجن بارادة سنية رغم انف الباشا واتباعه ١ .

هذا هو الشدياق ناسخ اوراق بعير بيعر ، ثم العطّار صاحب ذلك الحمار ، ثم صاحب الخان ، ثم الذي كان ينجّي من القضاء المبرم والموت المحتّم . ومع هذا الجاه العريض ما انفك عن مسامرة الكتاب الذي كان يرى فيه الحليف الاوفى والمجد الخالد .

١ مذكرات جرجس بك صفا من ص ٢٨٨ و٢٨٩ و٢٩٠ و٢٩١ (والاصل محفوظ عند احد انجاله المحامي الاستاذ فيليب) .

نقد ذلك الزمان

نقد ذلك الزمان

هذا فصل كان يستحق كتاباً ليدل على ما افادت النهضة من تناطح اولئك الفحول (الاحدب والشدياق والاسير واليازجي والبستاني) عند حوض اللغة ، فما الحيلة ونحن لا نستطيع ان نكبر هذا الكتاب « ليملأ العين » ، كما تمنى الشدياق على حليفه الشيخ يوسف الاسير في رسالة كتبها الى ابن عمه ضاهر الشدياق حول موضوعنا هذا .

ولست اتجرأ على الوعد بكتاب ثان لئلا يظل نائماً الى ان يُبعث الشدياق ويُنفخ في البوق ... فالكتاب في لبنان مقطوع الظهر لا نصير له ولا ظهير ، ولا سيما اذا كتب عن رجل كالشدياق وكان كاتبه مارون عبود . فلو كان الكتاب يضرب في السياسة بسهم لفاق سهمه سهمي فاطمة امريء القيس ... ولكن الكتاب لا يواجه السياسة الرخيصة لا من قريب ولا من بعيد . وأنكى ما يكون من احوال « الكتاب » اننا نراه سلاح رجال الدولة في معرض الفخار باشعاع الفكر اللبناني ، ثم لا يعطف عليه احد منهم .

كلنا نعلم ان الادب لا يطعم خبزاً ، ومع ذلك لا ننثني عنه ، فكأننا نحاول ملكاً او نموت فنعذرا ...

واذا قلت لي : كيف طبع « شدياقك » كتبه الضخمة ؟ اجبتك :

كان وراءه سلاطين وملوك ووزراء وامراء وتجار . وليس هذا بزعم ، فمقدمات كتبه الجليلة تنطق بحمد اولئك الذين شدّوا إزره . ثم لا تنس انه كان الصحافي العربي الاول في زمانه ... فقد اكل من جريدته ، واخلده تاريخ الادب بكتبه .

وبعد ، فما لنا ولهذا الحديث . لنعد الى موضوعنا . حدثناك فيما مضى عن « ثلاث جبهات » في الادب ، والآن نقول لك : ان الجبهات الثلاث اصبحت اثنتين . فكما في الحرب كذلك في الادب . اتحد اليازجي والبستاني فصارا جبهة واحدة تناضل ضد الشدياق ، فانضم الى جبهة الشدياق عالمان كبيران هما الشيخان ابراهيم الاحدب ويوسف الاسير . فشمرت الحرب الادبية عن ساقها فكانت عواناً ، ولكنها عادت على النهضة الحديثة بالخير والبركة .

هذا ابراهيم اليازجي ينتقد كتب الشدياق أخذاً بثأر ابيه ، وهذا الشدياق يرد عليه في كتاب عنوانه « سلوان الشجي في الرد على ابراهيم اليازجي » . الكتاب منسوب الى كاتب اسمه مخائيل عبد السيد . وليس مخائيل هذا بطلاً وهمياً كالحارث ابن همام او هي ابن بي ، بل هو شخص كان حياً يرزق ، وقد انشأ جريدة في مصر . بيد ان هذا الكتاب لا يصح ان ينسب اليه لان ريح الشدياق فيه كما سترى .

اريناك ، فيما مضى ، شيئاً من نقدهم لكتب النحو . وكأن الشدياق رأى جفاف هذا النقد فلم يعجبه ذلك ، كما تلمح من رسالته الى ضاهر ابن عمه ، لحناً او كلالة لست ادري . وقد نشرنا روسم هذه الرسالة في عدد « المكشوف » الخاص بالشدياق ، وذللناك عليه . فهذه الرسالة تفضح سرّاً من اسرار هذه الحرب

الادبية .

قال الشدياق بعد المقدمة : « حظيت بمكتوبكم المؤرخ في ٢٣ شباط ، وفهمت ما تضمنه . اما قولكم اني اشرت الى جناب الشيخ يوسف الاسير بترك انتقاد « جوف الفرا » الخ ... فلا يخطر ببالي اني فعلت ذلك . وانما فهمت من فحوى كلامه ان الكتاب اشرف على التمام ، وانه بعد ذلك يبتديء بالبيان وهو من قبيل التوكيد لما قرره في « ارشاد الورى » . فرأيت ان كلامه الاول حجة لا يحتاج الى التوكيد ، فكتبت اليه : ان الذين يدركون دقائق النحو قليلون بالنسبة الى الذين يرتاحون للغة والادب ، ولا سيما ان اغلاط ناصيف في ديوانه ومقاماته اكثر واشهر ، فاذا شاء هذا فاني أراه الاولى .

« هذا ما خطر ببالي اني كتبته ، وما كان لي ان اتطاول عليه واقول له : افعل هذا ، ولا تفعل ذاك . ويا حبذا لو استمر في « ارشاد الورى » حتى يأتي كتاباً يملأ العين حجمه ، فاني اظن ان كل ما ارسله منه لا يبلغ اكثر من ستين صفحة مطبوعة ، مع ان « سلوان الشجي » يزيد على المئة . وحاصل الكلام انه ما على المحسن من سبيل ، وان المراد اظهار الحق لا غير . فليختر ما يراه صواباً . وان شاء الله بطاهر نفسه وخلوص نيته نكبح المعاندين ونهدي الضالين . »

ويظهر من هذه الرسالة ان ضاهر الشدياق قد شارك في هذه المعركة لان احمد يقول له فيما بعد :

« وقد شكرتك على ابطال « فصل الخطاب » (كتاب نحو لليازجي) وعلى كل ما ابديتم من الغيرة في اظهار الحق اذ ليس

لي ارب سواه . ومـا كان لي ان انسى انكم كنتم الوسيلة في اعـادة المودّة بيني وبين الشيخ يوسف ، فانا لا انسى المعروف، وانما الذي يؤخرني عن المكافأة انحراف الحال الخ ... »

فهذه الرسالة تدلنـــا على ان الشدياق يؤثر النقـد في « اللغة والادب » . وهذا ما قام به ابراهيم اليازجي ، واذاعته « مجلة الجنان » للبستاني . فرد الشدياق عليهما معـــاً في كتابه « سلوان الشجي »، فابتدأ ، بعد المقدمة ، بقوله :

« كيف لا والحسد اكبر العيوب ودعـامة الذنوب ... وهو لعمري صفة صاحب الجنان وحبيبه وخليله ابراهيم اليازجي الميّان ، هما اللذان حسدا صـاحب الجوائب على مـا ناله من شهرة الفضل والبراعة في هذا الزمان ، فتناديا عليه ونشرا ذمه في الجنـــان ، وتماديا في تخطئته بالزور والبهتان .

« اما ترجمة صاحب الجنان فهو ابو الحسد الذي قاده الغرور بحبل من مسد ، وتناءى به الافتراء الى ابعد امد :

اذا لم تصن عرضاً ولم تخش خالقاً وتستحي مخلوقاً فما شئت فاصنع

. . . .

« ولقد عرف كل واحد ان صاحب الجنـان هو من فاسدي الذهن والتصورات ، وقليلي المعلومات ، تدل عليه اقواله وكتابته وعبارته ، فانك تجدها في غاية الركاكة والتعقيد الذي ينفر منه كل ذي ذوق سليم ، وطبع مستقيم ... فحيثما وُجِدَت عبـارة غير مسبوكة في قالب العربية ، قيل انها عبارة جنانية وركاكة بستانية . ولذا قال بعض الادباء : اذا لم تبطل هذه الالفاظ الجنانية الانثوية تفسد اللغة العربية . »

ثم يحمل على « محيط المحيط » فيندد به ما شاء ، ثم يعود الى ابراهيم اليازجي ، فيقول :

« اما ترجمة ابراهيم اليازجي فهو صاحب السفاهة الكبرى والقذف والافترا ، لم تكد عبارة له تخلو من التعقيد ، والتطاول والتنديد . وقد بلغني ممن يوثق بكلامه انه اراد ان يحصل على شهرة بتخطئة صاحب الجوائب ، فحصل ما اراد ، وان كان على طريق الفساد ، لاننا قبل وقاحته هذه لم يكن لنا علم بوجوده بين الاحياء ... » الى ان يقول : « واعتراضاته كلها مبنية على السفسطة البستانية ... واغرب ما في الامر انه خطأه (اي خطأ الشدياق) في اشياء كثيرة استعملها ابوه الذي ادعى له العصمة ... فكان عليه اولاً ان يصلح عبارة ابيه ، ثم يتخطّى لتخطئة من سواه .

« اما قوله (اي قول اليازجي) ولقد كنت احسب ان تمادي الايام قد حان له ان يهذب من اخلاقه (اي اخلاق الشدياق) ، ويمكن عنده اسباب العلم والدماثة والصبر على المكروه ، فاكثر مما ارى من نفسه هذه المرة . فاذا دمه لم يزل على حرارته المعهودة ، ايام كانت تلك النار تقرى بفحم الشباب .

« اقول : هذه سفاهة بستانية سوقية ومهاترة جنانية زقاقية .. وجوابها الاخير :

يا ليت لي من جلد وجهك رقعةً فأقدّ منها حافراً للاشهب

« وصاحب الجوائب هو الغشمشم الذي يحطم جماعات المتأنثين ..

« اما قوله : انه ألم بابي المرحوم وخطّأه عبثاً ، فأقول اولاً ان الالمام هنا ليس له معنى ، فان الناس يلمون بالاحياء لا

الاموات . »

وبعد ان ينتقد اخطاء عديدة في مجمع البحرين ، ينتقل الى الرد على كلمة المطل وغيرها فيطوف الشدياق على جميع علماء اللغة وعلى كل من كتب حرفاً في الصرف . ويقع خلاف بينهم على صحة السجع ، والفاصلة فيه ، حتى اهتموا للسناد ، ثم للمسافة بين الجمل ، فيعيب الشدياق بذلك ناصيف فيقول بعد سرد فقر كثيرة : وبين هذه الفقر فسحة تشبه شدق ابن اليازجي اذا تشدق وتلمظ وتمطق ، وتقعر وتلهوق ، وتنطع وتعمق ، وتمدح وتفيهق ، وبالباطل تعلق ، والى الاراذل تملق[1].

ارأيت ان ريح الشدياق فيه كما قلت لك ، فهذه المترادفات من بضاعته التي تملأ كتابه « الفارياق » .

ثم ينتقل الى عبارات اخرى يسردها ليقول في نعتها : « وبين هذه الفقر فسحة تكاد تكون وساداً لقفا ابن اليازجي . » ثم يمضي في عيب عبارات اخرى ليقول : « وهنا ايضاً فسحة بين الفقر اوسع من عين ابن اليازجي ، حين يفتحها للنظر في عيوب الناس . وقس على ذلك سائر التقليد مع كونه مبنياً على السجع . »

ثم يأتي على ذكر قول ناصيف اليازجي في مدح الشدياق :

انا الوادي اذا ناديت لبّى   صداه فكان منك لك النداء
خلعت عليّ فضلاً ادّعيه   وحسبي ان مثلك لي جلاء

فيجيب بقوله : وكيف لا يفعل ذلك صاحب الجوائب وهو بارع في اللغات الافرنجية[2] . وينتقل الى البستاني ليقول : لفّق قاموساً

١ سلوان الشجي ، ص ٢١ .
٢ سلوان الشجي ، ص ٣٠ .

سماه « محيط المحيط » ، مع انه « انتن من بحيرة لوط . »

فيرد اليازجي ويقول في سر الليال :

« ولقد خطر لي ما لو خطر له لما باشر تأليف هذا الكتاب ولا تجشم لاجله عناء السهر ، وكدّ القريحة في غير شيء[١] . »

ثم يقول اليازجي في مكان آخر : ان صاحبنا اصبح شديد النسيان ، وقاتل الله الكبر[٢] .

وتنتقل جبهة الحرب الى جريدة الجوائب فيرد صاحب سلوان الشجي : « اما اعتراضه على قول محرر الجوائب » « لا بد وان يكون » فان كان ذلك عن جهل ، زاده الله جهلاً ، وان كان مكابرة سلط الله عليه من يكابره ويكاربه ، وان كان لعدم وجود الكتب العربية عنده اتحفناه ببعضها ليرى منها طغيانه وعجرفته .

« قال ابو البقاء في الكليات ، وقال ابن السيرافي : الواو تجيء بمعنى من ، ومنه قولهم : ولا بد وان يكون . وعلى ذلك جرت عبارة العلماء قديماً وحديثاً . قال صاحب المثل السائر في ص ٢٩٥ : وان كل ما يعدهم به لا بد وان يصيبهم . وقال في ص ٣٠٠ : لا بد وان يقع في زمن من الازمان .

« فما تقول يا ابراهام في هذا ؟ وما اعتذارك عن التشدق به ؟ »

ويمضي الشدياق في الاحتجاج على كل جواز اخذه عليه اليازجي فاذا به كثير الادلة ... ثم ينتقل الى الرد على عبارة اخرى فيقول :

« اما اعتراضه (اي اليازجي) على قوله : وانهم وان يكونوا

١ سلوان الشجي ، ص ٤٤ .

٢ سلوان الشجي ، ص ٧٧ .

سيئي الادب على الطعام فهم متأدبون » ، اذ يجب هنـــا اسقاط الفاء . وقوله : « وهمـا وان اظهرا له الخضوع ، ففي قلوبهما منـه حزازات » ، وقوله : « فاني وان كنت بشراً مثلك لكني وكيل . »

« فالجواب عليه : قال ابو البقاء ... قال الزمخشري ... وظل يقول وقال فلان ، وقال فلان حتى انتهى الى قوم الامام علي :

« واني وان اصبحت بالموت موقناً   فلي امـل دون اليقين طويل . »

« ثم قال اليازجي : ومن زياداته المخلة (اي زيادة مؤلف كتاب الساق على الساق) قوله : « تنبه الغافلين ان وراءها لقولاً شديداً . »

« فكان الجواب : ان هذه العبارة صحيحة بدليل مـا جاء في المغني ، وهو قوله : اللام الزائدة وهي الداخلة في خبر المبتدأ في نحو قوله :

« أمّ الحليس لَعجوزٌ شهربه   ترضى من اللحم بعظم الرقبه

« واعترض اليازجي على ورود الفاء مع لم في جواب اذا ، في قول مؤلف كتاب الساق على الساق :

« فاذا رضيت فكل سخط هين   واذا وصلت فلم ابال بهاجر

« فكان الرد : اذا كان الفعل ماضياً لفظاً ومعنى وجب اقترانه بالفاء نحو : ان كان قميصه قد من دبر فكذبت . »

وبعد احتدام الخلاف حول الفاء قامت القيامة حول الواو ، فقال صاحب سلوان الشجي : ومن افحش ما هذي بـــه وتشدق انكاره الواو في قول صاحب الجوائب : « ما من شاعر قال شعراً إلا واخذ عليه . »

ثم انبرى يبرر وجود هذه الواو فقال : قال ابو البقـــاء في

الكليات : وقد تزاد الواو بعد الا لتأكيد الحكم المطلوب اثباته ، اذا كان في محل الرد والانكار كما في قوله : ما من احد الا وله طمع او حسد .

وظل يستشهد ويستشهد باقوال المتقدمين والمتأخرين حتى بلغ زهيراً الذي قال :

نعم امرأ هرم لم تعر نائبة　　　الا وكان لمرتاع بها وزرا

فالحديث الشريف :

ما بعث الله نبياً الا وأمته بعض قومه . ما في الجنة من شجرة إلا وساقها من ذهب .

هذا هو النقد اللغوي الذي تمناه الشدياق على الشيخ الاسير ، فكان هو له في « سلوان الشجي » .

اما النقد الادبي الذي دعا اليه الشدياق في رسالته الآنفة الذكر فقد قام به الشيخ يوسف ، ونقد قصيدة الشيخ ناصيف اليازجي المشهورة :

للموت يولد منا كل مولود　　　يا ايها الام ربي الطفل للدود

تذكر جيداً اننا قلنا لك ، فيما سبق ، ان الشيخ الاسير سمّاها « الدودية » ووعدناك بنموذج من هذا النقد ، فاقرأ قبل الابتداء بذلك كيف قدم لها الشدياق ، بعد ان بين فضل الاسير في نقد ارجوزة الشيخ ناصيف :

« حسن ان نورد بعده ما يدل على فضله وسبقه في الفنون الادبية ، وان يكون ما تقدم من ابياته في الارجوزة شاهداً

بذلك ، ومفحماً للمماحك ، فدونك نبذة من نقده للقصيدة التي سماها « الدودية » وهي من نظم مؤلف جوف الفرا[١] . »

الدودية

قال الشيخ الاسير بعد مقدمة قصيرة :

ولقد هاجني لذلك التأليف ، ما سمعته امس من شعر ناصيف ، وهو المرثيـــة التي مطلعها المصرع ، اشنع ما قبل وابشع ما يسمع ، وهو قوله :

لا تبك ميتاً ولا تفرح بمولود   فالميت للدود والمولود للدود

وقد سحبها على هذا المسحب ، من شعر راسهـــا الى عجب الذنب ، ويا للعجب ولضيعة الادب ، وما هي الا ذنوب ذنوب ، ولكنها عيبة عيوب ، لان اصل مطلعها عجز بيت من مقطوعة قديمة وهو :

ان دام هذا ولم تحدث له غِيرِ   لم نبك ميتاً ولم نفرح بمولود

وقبله :

هذا الزمان الذي كنا نحاذره   في قول كعب وفي قول ابن مسعود

فقد سرقه وبدل موضوعه المطبوع في المقطوعة ، فانظر لموقعه كيف ساقه صاحبه في طريق الخبر ، وعلقه على فساد الزمان ، واسنده لنفسه ومن هو مثله في الاحزان ، فقد مهد له بما جعله مقولاً مقبولاً في مقعد صدق. وكذلك قول الحريري : يخلي بين ودوده ودوده ، ويخلو بمزماره وعوده ، وانظر لموقعه في قول ناصيف كيف جعله مطلقاً ، بعد ان نقله للنهي المستقبـــح عند اولي النهى ، لانه غير مستطاع فهو غير مطاع . ثم قرنه بعجز تمجه الاسماع ، وتنفر عنه الطباع ، وجعله علة للصدر وحصر الميت والمولود في الدود . ومن ذا الذي لا يفرح بمولوده الا مـــا ندر ، ولا يبكي على ميته الا ان يكون قلبه اقسى من الحجر .

وتقدير بيت ناصيف وتقريره: يا كل انسان، لا تبك ميتاً ولو كان قريبك او حبيبك، اي لا ترثه ولا تدمع عليه ، بصوت او بلا صوت ، لان كل ميت ، ومن الجملة ميتك ،

١ ارشاد الورى ، ص ٨١ ، طبع الاستانة، سنة ١٢٩٠هـ .

انما وجد لان يأكله الدود . ولا تسر بمولود ، ولو كان ابناً لك ، لان كل مولود ، ومن الجملة ابنك ، قد وجـد لاجل ان يأكله الدود . ولا شك ان المولود هو الجسم المنطوي على النفس الناطقة وهي لا تكون طعمة للدود ، ولو قدرنا لان يأكل جسمه الدود ، فليس كل جسم يأكله الدود . فان قيل اراد غير الاجسام المستثناة كجسم المسيح عليه السلام ، ونحوه من الاجسام ، قلنا : المراد لا يدفع الايراد .

وقد اظهر ناصيف في مقام الاضمار حيث لم يعد الميت والمولود مضمرين ، بل اعادهما مظهرين ، و كذلك الدود ، اما للتلذذ ... واما لزيادة التقرير ، وانما قدرنا خطابه عمومياً ، واصل الخطاب ان يكون لمعين بدليل قوله بعده :

وكل ما فوق وجه الارض تنظره   يطوى على عدم في ثوب موجود

وقد تبع في هذا مذهب السفسطائية القائلين : ان الاشياء معدومة في زي موجود . وهو باطل وعن البرهان عاطل ، ولا ريب ان النفوس الناطقة داخلة في كلامه لانه اطلق النظر فيعم العقلي . و كونها تعدم مذهب غير مرض عند اولي الالباب ، ولا يخالف ذلك ما ورد في الكتاب العزيز وهو قوله تعالى : كل شيء هالك الا وجهه ، لان الهلاك الموت .

وقال ناصيف :

بئس الحياة حياة لا رجاء لها   ما بين تصويب انفاس وتصعيد

اقول اين هذا من قول القائل :

نعم الحياة حياة ذي الدنيا لمن   يخشى الاله ويرتجي منه النعم

وما الفرق بينهما الا الفرق بين شاكر النعمة العظمى وكافرهـا ، لانه لا شك ان معطي الحياة هو الله تعالى ، وقد امتن بها علينا . فاذا قال الانسان لربه : ان الحياة التي مننت بها علينا هي مذمومة فما يكون معنى ذلك الا الكفر والكفران ، وعاقبة ذلك العقاب والخسران ، والعياذ بالله تعالى . وحاصل معنى بيت ناصيف ان الحياة الدنيا مذمومة فيكون العدم خير منها ، فبيته مبني على الباطل ومطوي على الرأي العاطل .

وقال :

لا تستقر بهـا عين على سنة   الا على خوف نوم غير محدود

فيه : ان النوم غير المحدود هو الذي لا نهاية له ، لان كل ما له نهاية فهو محدود . ومراده بالنوم الموت كما هو ظاهر ، ويتضمن ذلك انكار البعث ، والعياذ بالله تعالى ، قال :

مـا اجهل المرء في الدنيـا واغفله   ولا نحـاشي سليمان بن داود

اقول : في ذلك تهور عظيم يدريه كل ذي عقل سليم . وقد اراد التعميم حيث قال بنون

العظمة : ولا نحاشي سليمان مع ما اوتي من الحكمة ، وفصل الخطاب . فكم في هذا من إساءة ادب عند اولي الالباب ، وكيف يقال لمن علمه الله ، ما اجهله . نعم علم الخلق قليل بالنسبة لعلم الله تعالى ، ولكن لا يقول ما اجهل الانبياء الاغبياء .

هان المعاد فما نفس به شغلت   عن ربة العود او عن رنة العود

على ان قوله عن ربة العود او عن رنة العود مسروق من قول الشاعر :

ألم اقل لك ان القـــوم بغيتهم   في ربة العود او في رنة العود

ثم قال :

يا اعين الغيد تسبينا لواحظهـــا   قفي انظري كيف تمسي اعين الغيد
يبدو الهلال ويأتي العيد في رهج   ماذا الهلال وماذا بهجة العيد

قوله : في رهج، غلط قبيح. قال صاحب القاموس : الرهج الغبار، والسحاب بلا ماء ، والشغب ، وناصيف اراد به الابتهاج . اخذه من قولة العامة : لهذا العيد رهجة اي بهجة. ولا غرو فانه كان عامياً ينقل كلام العامة . وذلك كقوله في القصيدة التي بعدها : ففارت ضحكاً عليها المنون ، وكقوله : مضى يجمع الافضال وهي عبيـــده . وكقوله : سالت ذوائبها ولاح جبينها ، وكقوله : ان اللئيم مولع بخصاله ، وكقوله : ولرب امرد عاقل في صغره ، وهي على وزن عنب . وقوله : قفي انظري اي قفي لتنظري كيف تصيرين بعد الموت ، فاظهر في مقام الاضمار ، وليس في محله ، لانه يوهم انها تقف لتنظر خلافها. ويحتمل انه اراد : انظري اعين غيد مثلك ، فاخطـــأ ، لان المعرفة اذا اعيدت كانت عين الاولى .

قال التهامي يعزي نفسه بابنه :

جاورت اعدائي وجاور ربه   شتان بين جواره وجواري

فانظر لهذا ولما قاله ناصيف يعزي به صاحبه ايهما احسن ، بل ما هو القبيح منها وما هو الحسن ؟

وفي الحديث : من تعزى بعزاء الجاهلية فاعضضوه بهن ابيه ، ولا تكنوا .

قال ناصيف :

اذا فجعت بمفقود صبرت له   اني سأترك مفجوعـــاً بمفقود
يا من له منه اهل لاجزعت على   اهل وهل لك ركن غير مهدود
لسنا نعزيك اجلالا وتكرمة   فانت ادرى ببرهان وتقليد

اقول: «الفجع» ان يوجع الانسان بشيء يكرم عليه فيعدمه ، و«المفقود» المعدوم،

و«الاهل» الزوجة والاقارب ، والمستحق ، و«الجزع» ضد الصبر ، و«الركن» الجانب الاقوى والامر العظيم ، وما يتقوى به من جند وغيره ، والدليل القـــاطع اليقيني ، و« التقليد » العمل بقول الغير من دون اطلاع على دليله . ومـا ارى البيت الاول الا مسروقاً من قول الشاعر :

فلا تكتحل عيناك يوماً بعبرة على ذاهب منها فانك ذاهب

فاما صدر البيت الاخير فمسروق من قصيدة ابن زيدون في خليلته ولادة ، ومنها :

لسنا نسميك اجلالا وتكرمة فقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا

أليس هذا سرقة قبيحة جداً حيث بدل التسمية بالتعزية، ونقل خطاب المؤنث للمذكر، وقد علل ابن زيدون ترك التسمية اي ذكر العلم باغناء الوصف عنه لتفردها به ، وناصيف علل ترك التعزية بكون قريب المفقود ادرى الناس بالبرهـــان والتقليد . فهل من كان كذلك تترك تعزيته ? بل الواقع ان تعزية الناس تكثر لمن له او لميته خطر ، فان قيل اراد انه لكثرة درايته بالبرهان والتقليد لا يلزم له تعزية اذ لا توجعه ولا تحزنه المصيبة بحبيب ولا قريب ، قلنا ليس هو باعظم من الانبياء الذين حزنوا وبكوا وتعزوا ، وان التعزية سنة قديمة متفق على استحسانها من المساوي ومن الاعلى ومن الادنى . علـى ان قوله : وهل لك ركن غير مهدود ، ومن اشنع الخطاب وابشع ما يقال عند المصاب، فانه بمعنى : ان كل اركانك مهدودة . ولا بد ان هل للاستفهام الانكاري بمعنى النفي، وركن نكرة في سياق النفي فتعم ، فمن يرضى بهذا الخطاب ولا يحثو في فم قائله التراب ! وكذلك قوله : لا جزعت على اهل ، فيكون المفهوم بل جزعوا عليك لانك تموت قبل كلهم .

فهذه القصيدة «الدودية» ، ومع ما فيها من السرقة والعوج والتعقيد اللفظي والمعنوي، غير معزية ولا مسلية ، ولا جارية على مذهب الراثين . لا يقال انه ضمن فيها شطر بيت ابن زيدون لانا نقول ، كما قلنا في شطرها الاول ، انه غير فيه وبدل ، وانما كان يظن ان احداً لا يطلع على ما اطلع ، ولا يظلع حيث ظلع ، وكان يجـالس من يقول له : آه آه يا عالم العلماء ، ما افصح كلامك، واحسن نغمتك . لقد احييت العلوم بفضلك الصيب، حتى لم يذكر معك الحريري وابو الطيب . فيهتز وينسج من هذه الاشعار ويحوكها على نيرين ، فتخرج صفيقة تملأ العين ، ويمشي الحال على هذا المنوال .

وكلامنا هذا على هذه المرثية « الدودية » مناوشة لا مناقشة ، وسيأتي ان شاء الله تعالى وزن سائر اشعاره بميزان الحرير حتى تتميز القضة من الفضـــة ، ويكون ذلك كالشجا في حلق من يفضل اسافل الخلق ويخص افاضلهم بالهجاء ، ويزول الاشكال ويتضح

الحال . قال :

والصبر كالصدر رحباً عند صاحبه ... فان صبرك مثل البيد في البيد

اقول : كان صوابه ان يقال :

والصبر عندك مثل الصدر متسع ... فان ذلك مثل البحر في البيد

لان قوله عند صاحبه مبهم ، وقوله : مثل البيد في البيد فاسد ، لان الشيء لا يكون ظرفاً لمثله ، كما هو معلوم بداهة . وقال :

لله اية عين غير باكية ... ترى ، واي فؤاد غير مفؤود

ان كان لا بد مما قد بليت به ... هان البلى بين موعود ومفقود

اصل البيت الاول :

يا ويحه اي عين غير باكية ... له ، واي فؤاد غير مفؤود

فسرقه وافسده بحذف الضمير ووضع ترى الذي هو حشو ، وبحذف يا ويحه ، الذي معناه الترحم ، ووضع لفظة الجلالة المراد به التعجب ، لانه اذا كان كريماً عند كل الناس لا يتعجب من بكائهم عليه ، وتألم افئدتهم لفقده ، بخلاف ما اذا كان غير ذلك . وبحذف الضمير يجهل من يبكي عليه ويتألم له . ولا يقال ، ان بكاهم وتألم فؤادهم حسبة لله تعالى ، لانه فاسد لفظاً ومعنى ، كما لا يخفى . والبيت الثاني مسلوخ من قول الآخر :

واذا كان آخر العمر موتاً ... فسواء طويله والقصير

ومثله قول الخيمي :

اذا كان موت المرء افناء عمره ... ففي موته من يوم يولد يشرع

فسرق المعنى وافسده بألفاظه ، لان معنى بيته وتقديره : على فرض انه لا بد من الموت الذي قد بليت به ، او من فقد الحبيب الذي منيت به اي امتحنت به ، يكون الفناء بين شيء موعود وشيء مفقود هيناً ، وهو فاسد بخلاف البيت المسروق ، فانه قال اذا كان لا بد من ذلك فسواء موعوده ومفقوده ، او لا فرق لان من طال عمره في طاعة الله ونفع الناس ليس كمن قصر عمره . وحق « البلا » ان يكتب بالالف واصله المد . اما البلى بالكسر مقصوراً ، فمصدر بلي الثوب يبلى ، اي خلق .

وقال ناصيف وهو آخر الدودية :

حاشاك من خطة للقوم باطلة ... منها الاسى لفوات غير مردود

فالحلم في القلب مثل السور في بلد ... والعلم في العقل مثل الطوق في الجيد

اقول : قوله « للقوم » مبهم لانه لا يعلم من هم القوم الا بقرينة خفية

بانهم المنكرون البعث . وقوله « لفوات » صوابه لفائت ، ومنه قولهم : رد الفائت صعب . واما الفوات فعرض سيال لا يوصف بكونه مردوداً او غير مردود ، كما هو ظاهر . وقوله « مثل السور في بلد » صوابه للبلد ، لان السور لا يكون في البلد ، بل حوله . فلو قال : والحلم للقلب مثل السور للبلد ، والعلم للعقل مثل الطوق للجيد ، لاصاب . على انه لا مناسبة بين الاخير وما قبله مع خلوه عن براعة مقطع وغيرها . وكل كلامه يدل على عدم كماله .

فاذا قال المطبلون : قد رضينا به ، قلنا : لا تفضلوه على الكاملين فتظلموهم ، فتكونوا من المعتدين فيجب حينئذ كشف الغبار ، ليظهر الفارس من راكب الحمار ، ومن اتبع الحق اسلم ، والله تعالى اعلم ١ .

ويتبع الشيخ الاسير هذا النقد بامثلة من رثاء شعراء العرب والمولدين كمتمم ابن نويرة وابن خفاجه والتهامي ، ثم يقول :

فاذا تأملت ذلك رأيت فيه حكمة وبلاغة وتسلية ورجاء ... مما يستفيد منه القارىء ويفهمه بلا تعقيد ، ولكن ما الذي يستفيده من « دودية » ناصيف غير الاستهانة بنفسه وبالانبياء وظن السوء بكل الناس ، ويتعلم الغلط من الرهج ونحوه ، والسرقة من الشعر ، وتبديل كلام الناس ... وربما جره ما ذكره ناصيف لسوء الاعتقاد ويتعلم قلة الشكر لمن انعم علينا من فضله بنعم لا تحصى ... كما قال تعالى : وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها . فالحمد لله على نعمه ، والصلاة والسلام على اشرف امه ٢ .

هذا هو النقد الادبي الذي دعا اليه الشدياق صديقه الشيخ يوسف الاسير في رسالته الى ضاهر الشدياق كما قرأت ، نقلنا منه اشياء وتركنا اشياء ، ولا غاية لنا الا الدلالة على فضل اولئك الجهابذة ، وتعريف الادباء المعاصرين ان نهضتهم هذه لم يقل لها كوني فكانت ، بل اقتضت تعباً وجداً وكداً وسهر ليال من اسلافنا الافاضل المجتهدين ، فكم قلبوا صفحات تلك الكتب الحريفية الاوراق حتى تركوا لنا ربيع العقل والقلب . فعلينا ان نجاهد جهادهم ذاك لنظل

١ ارشاد الورى ، ص ٨١ - ٩١ .
٢ ارشاد الورى ، ص ٩٣ .

نهضتنا في تقدم مستمر ، فالوقوف معناه التأخر فالانحلال .

لقد افادت الاقطار العربية جمعاء من تلك المناظرة وذلك النقد . والذي يدهش له المتأمل هو هذه الوثبة العظمى ، فمن أقصى دركات الركاكة والرطانة ، ومن ذلك اللحن وفقر الدم اللغوي الى اسمى درجات البلاغة والفصاحة . من لغة عامية منحطة — كما اريناك سابقاً — الى الصراع حول « الواو » اذا كان يجب اسقاطها او لا .

الله اكبر ! من جهل النحو والاعراب الى انتقاد فصحاء الاعراب ، الى انتقاد القاموس وتاج العروس .

قد يكون ، ولست اشك في ذلك ، نقد الشيخ الاسير ، بعد ابن الاثير ، هو الاول من نوعه . فليرحم الله تلك النفوس التي شقّت لنا الطريق بعد امّحاء معالمها . لقد عملت ما عليها ، فأحيت اللغة والادب .

ومن ينكر فضل البستاني الذي اغنى المكتبة العربية بكتبه العلمية الحديثة . ومن يجحد فضل اليازجي ؟ أما مضى الشدياق لسبيله وبقي هو حارساً لحصن الفصاحة يرشد الكتّاب الى مواطن الخطأ فيتّقون الزلل ؟ طوى الزمان ألوية ابطال تلك الحملة وانقشع غبار معاركهم فلاح لنا صبح بسّام ، وتركوا لنا ميراثاً خالداً . فمن يقرأ نقد الاحدب والاسير والشرتوني واليازجي والبستاني ، وكل من سدد قلماً في هذه الحومة الادبية ، يظن انه يعيش في البصرة والكوفة ، ويشهد مناظرة سيبويه والكسائي وغيرهما .

ومن يقرأ كتب البستاني يحسب انه في عصر المأمون لا في القرن التاسع عشر . وجماع الكلام ان منافستهم تلك كانت

كثيرة الخير والبركات على لغة الضاد التي كانت تحتضر ، فمنّ الله عليها بالشفاء على ايدي هؤلاء الاباء الصالحين .

فلا يحسبنّ احد انني اتعصّب لصاحبي الشدياق اذا قلت ان محله من نهضتنا محل القطب من الرحى . فهذا هو واقع الحال . فهو الفنان الاول ، وصاحب اول اثر ادبي خالد . اما الذي في كتابه من احماض ، وان تجاوزت الحد ، فهو في نظري لا يضير الفن . وهل ضرّ فن لافونتين ، والف ليلة وليلة ، وكتب الجاحظ ، ما في تلك الكتب من مجون ؟

وان قيل : ولماذا تنبش القبور ، وتنشر لنا ما مضى وفات ؟ فأجيب هبني من علماء الآثار ، فاذا نبش لنا اثريّ تمثالاً عارياً ، ألا نضعه في المتحف لانه مكشوف العورة ؟ هب اصحابنا هؤلاء كجرير والاخطل والفرزدق ، أفلا نقرأ تهاجيهم ؟ ان هذا واجب ، وأكاد اقول انه مقدّس . فعلى الابن ان يقرّ بفضل من شاد له البيت الذي يأوي اليه . فاذا رمّمه ، او فتح فيه نوافذ وشبابيك على الطراز الحديث ، فليس يعني ذلك ان ينسى من وطّد اسسه ورفع اعمدته .

سدّد الله خطوات شبابنا ، وهداهم سبيل الرشاد ، وشحذ عزائمهم ليخلقوا كما خلق اولئك ، ويحق لنا ان نقول :

نبني كما كانت اوائلنا   تبني ونفعل « فوق » ما فعلوا

ما قيل فيه

اقوال معاصريه في كتابه « سر الليال »

قال عبدالله باشا فكري : فلما اعوز الظفر بكتاب على ذلك الاسلوب ، وكادت تعجز الليالي والحبالى عن انتاج هذا المطلوب ، وفّق الله لوذعي الفنون الادبية وألمعيّها ، وأبا عبيدة اللغة العربية وأصمعيّها ، احمد فارس ميدان البيان لا يجارى في مضمار ، فخر هذا العصر على سوالف الاعصار ، آية الله في فصاحة القول وبلاغته ، وغاية الغايات في صناعة البيان وصياغته .

وقال عبد الرحمن افندي النحاس نقيب اشراف بيروت : كشف اسرار اللغة ومزاياها ، واستخرج خفايا الخبايا من زواياها .

وردوا مناهل من «جوائب» احمد　　　فهو الذي تهدي الورى آياته

وقال الشيخ احمد الرزقاني في الوقائع المصرية :

يا فارساً ما جال في مضماره　　　متقدم الا وثمّ يؤخّر

لو لم تكن سر العلوم لما اتى　　　«سر الليالي» عن مقامك يسفر

فلنشكرنّك بعد «والبنا» الذي　　　عن وصفه باع المدائح يقصر

وقال محمد امين افندي الجندي مفتي الشام وعضو شورى الدولة : المؤلف مخترع نظامه وتهذيبه ، ونسيج وحده في امر

تأليفه وترتيبه ، فهو البحر الزاخر ، وكم ترك الاول للآخر .

وقال حسين باشا وزير معارف تونس : اما بعد ، فقد تشرف ودودك يا احمد الخلال ، وفارس ميدان الكلام والكمال ، بمطالعة تأليفك الاغرّ « سر الليال » ، الذي لم تسمح قريحة بمثاله ، ولا نسج لغويّ ، فيما علمت ، على منواله . ولم ادر بعد التأمل فيه باي ثناء جميل اثني عليك أ.. أ.. أ.. ام باستكشافك لما خفي من مصالح الامة ، مشيراً الى ما ينبغي ان تكون عليه سياسة ملكها ، ومناضلتك عنها دون اضدادها ، والطاعنين في محاسن لغتها وشريعتها من حسادها . من لي بمدح من فاق أقرانه ، وحبس « ايامه » على ايضاح اصول السياسة ، وتهذيب فروع واجبات الرئاسة ، و « لياليه » على بيان اسرار اللغة ومبانيها . فقد أريتنا بهذا التأليف الجليل والدستور العديم المثيل ، ما يحقق لنا ان وراء المحيط محيطاً آخر ، فهنيئاً لك السر الذي اطلعك الله عليه الخ ...

وقال الشيخ ابرهيم الاحدب : كشف لنا المخبا عن اسرار لغة العرب ، وابان منهج السلوك في معرفة فنون الادب . خبا نور « المصباح » عند اشراق نوره ، واصبح « فقه اللغة » غير فقيه بظهوره .. ما زال يحامي عن العرب ويناضل ، ويجر اليهم رفع راية الشرف فوق هام المجرة باعظم عامل .

وقال الخوري فرنسيس الشمالي (المطران جرمانوس الماروني الشاعر الشهير) :

اتى سرّ الليالي باللآلي وغيري قال بالسحر الحلال
وان صال الجدال على أصول فان قضاءه حسم الجدال
حوى «قلباً» تملّك كل قلب و « ابدالاً » به سعة المجال

وقال عبد الهادي نجا الابياري : لكن لم يأت احد منهم بما يروق مجتلاه ومجتناه ، ويوصل به ما تقطع بين لفظه ومعناه ، حتى تنبه لذلك فارس ميدان البراعة ، ومالك زمام القرطاس واليراعة ، الفذ الذي عقمت عن توأمه فتاة الزمان .. بما الفه من كتابه السحر الحلال ، المسمى بسر الليال ، ولاسيما بالطريقة التي ابتدعها ، والشريعة التي شرعها ، فقلدها نضاراً في جيد لغة العرب ، وخلدها نعمة سابغة على جميع اهل الادب ، فهو منّة من الله ملأت الصدور انشراحاً .. انه لهدي ورحمة للناس وبشرى لاولي الالباب ، اخرج الناس من ظلمات العيّ والغيّ ، والحق مشايخ الادب باولاد الحيّ .

وقال اباظه باشا :

متى تطلب الاداب احمد فارس ذكاء اتيناها باحمد فارس
فسر الليالي فيض بحر أمدّه نهاه فما يأتي بغير النفائس
شؤون افادتها حنادس ظلمة ولكن بها ابيّضت وجوه المدارس

ولما وقفت على عجيب اختراعه سجدت لله شكراً حيث قيّض مثل هذا الهمام لهذا التصنيف .. فقلت اللهم انه لم ينقط الفلك عرائس « الامالي » بمثل هذه اللآلي التي ازدرت « بالقاموس والصحاح » ، وجرّت ذيل الارب ، فعلا مقامها على « المقامات » واميط عن وجوه « الجمهرة » شتيت وجوه الدلالات والافادات . ولعمري لو شامها « ابن الاثير » لم يبتدىء بالنهاية ، ولعد « نهايته » بالاضافة اليها بداية . ولو برزت مخبآتها لشارح القاموس ، لما وضع « التاج » على رأس « العروس » .

وقال الشيخ مصطفى العدوي الازهري : بينا الناس متشوقة

في كل عصر لرؤية الاعاجيب اذ لاحت عليهم انوار سنية .

أطلعت في سمائنا كوكب الكشف فاغشت ابصارنا بالضياء

ثم قال في قصيدة :

اذ لغات العرب طرا قبله «قلبها» خاو من «الابدال» خال

وقال العلامة عبد الله بهاء الدين : افشى خبراً طالما حدثنا به الرواة ، ولولا ذلك الفاضل لما وقف على هذا السر المصون انسان ، ولبقي الى يوم النشر مطوياً في خزائن الكتمان .

وقال الخوري ارسانيوس الفاخوري الماروني الشاعر :

يا احمد الاخلاق انك فارس فيما له بالعلم انت تمارس
الفضل زيّان وانت حويته ولفرقة الاداب انت السائس
اعرابه سرّ « الليال » موضّحٌ في سؤدد الاعراب انه جالس
قد أيقظ الاذهان صوت يراعه من نوم جهل والعيون نواعس

وقال الشيخ يوسف النبهاني :

اتى بعدها « سر الليال » منقّحا فأصبح سراً في الممالك ساريا
اتانا كما شاء اللبيب مهذّبا فقال « ايا قاموس » مالك هاذيا !
وفاضت على كل الورى حسناته فصار بها البحر المحيط مساويا
أمولاي ، اني عائذ بك لائذ واسأل تكراراً جواب سؤاليا

وقال الوزير محمد بيرم الشهير :

واحمدْ لاحمد فارس من قد اتى من نصحه الاسلام انفع سائس

وقال الفقيه الاشهر الشيخ يوسف الاسير :

فاحمد فارس بحر لديه الجواري المنشئات كفلك نوح
« جوائبه » تجوب الارض طرا فتوعي كل فائدة وتوحي

وقال الشيخ عبدالله فيضي الموصلي :

فلقد حويت مــن الفنون عجائبا   لله درك فـــارس الشدياق

وقال محمود صفوت في الوقائع المصرية :

يا احمـــداً وافى بمعجز احمـد   وابى علاه ان يكون لنـا العلا
من ذا يجاري فارساً من بعد ما   قد أوقف الشعرا وقال لهم : هلا

وقال احمد وهبي المصري :

امام حوى علم الكتابين ، وانثنى   يجر فخاراً وهو سلمانُ فارسِ

وقال احمد عزت الفاروقي :

روضـة اصبح عند الوزرا   وخديمـــاً لامـير المؤمنين

وقال السيد ابراهيم فصيح الحيدري عضو مجلس المعارف : عذب الموارد ، ورّاد الشوارد ، شرّاد المعاند ، منطيقٌ بلا هذر .

وقال المطران يوسف الدبس : عاون في ترجمة الاسفار المقدسة (التوراة) وتنقيحها وضبطهـا ، فكانت احسن الترجمات من حيث اللغة العربية الخ ...

اقوال مؤرخي الادب

جرجي زيدان في « مشاهير الشرق » : امتاز باتقان النظم والنثر ، وأجاد في كليهما فاذا نظم او نثر فعل ذلك عن سعة وارتياح ، كأنه وعى ألفـاظ اللغة في صدره واخذ عليها عهداً ان تأتيه صاغرة متى احتاج اليها ... فترى كتاباته طليّة طبيعية ليس فيها شيء من التكلف او التقعّر ، على كونها فصيحة بليغة ، والسبب في ذلك حدّة ذهنه ، وقوة ذاكرته ، وسعة اطلاعه ، وكثرة محفوظه ، وحرية قلمه . وكان يطلق لقلمه العنان غير محاذر ، وأظنه السبب فيما تراه ببعض

مؤلفاته من المجون الذي تنفر منه طباعنا وتمجه اذواقنا .

ومن خصائص كتابة الشيخ احمد فارس السلاسة وارتباط المعاني بعضها ببعض ، واتساقهـا مع التوسع في التعبير وتتبّع الموضوع الى جزئياته ، ومراعاة الموضوع الاصلي والعود اليه . ترى ذلك في كشف المخبا ... حتى يخال لك انه خرج عن الموضوع ، ثم لا تشعر الا وقد عاد بك اليه بغير تكلف . كل ذلك بغاية السلاسة والطلاوة مع البلاغة . وترى في مؤلفاته كثيراً من الالفاظ العربية عبّر بها عن معانٍ حديثة افرنجية لم تكن عند العرب ، وهي في الغالب تدل على حسن اختياره .

ومن الادلة على اقتداره في التعبير انه مغالٍ ، فاذا مدح بلغ بممدوحه عنان السماء ، واذا هجا انزل مهجوه الى دركات الجحيم . ومن ميزة كتاباته ايضاً : عدم مراعاة خطة الكتّاب قبله ، وهو اعتماد على النفس ، واستقلال في الرأي .

كأني بالعلاّمة زيدان ، رحمه الله ، أراد بالتعبير الاخير وصف تجديد الشدياق وفنه .

وقال في مكان آخر : كان (اي الشيخ ابراهيم اليازجي) يبالغ في تنقيح ما يكتبه ، ويتأنّق في اتقانه خوفاً من الانتقاد . ولعله تنبّه لذلك على الخصوص منذ اخذ في الدفاع عن والده لما انتقده الشيخ احمد فارس الشدياق ، وشدّد النكير عليه ، وكان الشيخ ابراهيم في ابان شبابه فأجاد في الدفاع ، وتعوّد الحذر من الخطأ بالمراجعة والتنقيح من ذلك الحين ...

وقال جبران في « دمعة وابتسامة » : قال بلسان مصر تخاطب لبنان في مقال عنوانه « اللقاء » : اتحفتني « بالفارس » فغلب

ضعف قومي ، وحبوتني « بالاديب » فانضهم ، و« بالنجيب » فاتملهم .

وقال جبر ضومط في « فلسفة اللغة العربية وتطورها » : وجد المرحوم فارس الشدياق فوجد كتاب الواسطة ، وكتاب كشف المخبا ، وسائر كتاباته الادبية البالغة مبالغها من الطلاوة والحسن .

وقال البروفسور جب : اما في سوريا فكان تأثير المرسلين عظيماً ، وخصوصاً في تلك المدارس التي اسسوها فانبتت الروح الغربية ، خصوصاً بين نصارى لبنان . وكان احمد الشدياق اشهر رجال هذا العصر . تعلم علومه الاولى في لبنان ، ثم رحل الى مصر وتأثر كثيراً بثقافتها حتى صار محرر « اوفيسيال غزت » (يريد الوقائع المصرية) . ثم رحل الى عواصم اوروبا المختلفة وبقي ردحاً من الزمن . وفي العقد الخامس من عمره اسلم وهو في خدمة باي تونس ، ثم توجه الى القسطنطينية وبقي فيها الى آخر العمر ، فكان منه ، وهو زعيم المدرسة الحديثة ، احد الابطال العظام المدافعين عن الاسلام .

الفات نظر : نلفت نظر الاستاذ العلامة جب الى ان اللغات الاجنبية كانت تعلم في مدارس لبنان قبل ان اسس المرسلون مدارسهم التي لا نجحد ما اسدت الى لبنان من حيث نشر العلم والثقافة . ونذكره ان الشدياق تلميذ احدى هذه المدارس وهي « عين ورقة » الشهيرة التي انجبت البستاني وغيره من نوابغ لبنان .

وقال الزيات في « تاريخ الادب العربي » : وانشأ جريدة الجوائب واودع فيها من فنون النثر وعيون الشعر وضروب السياسة ما رواه لسان الحمد ، وتناقلته برد الشرق والغرب . كان في سياسة الشرق مرجعاً وحجة ، فسعى اليه المجد والثراء ، وخطب وده الامراء والعظماء . وورد الشدياق مصر وقد تنفس به العمر وخدد

وجهه الكبر ، فأحسن المصريون واميرهم لقاءه ووفادته .

كان الشدياق متضلعاً من فنون الادب ، متصرفاً في فنون الانشاء ، من هزل ومجون ووعظ وادب وسياسة ، حافظاً لمفردات اللسان ، بصيراً بمذاهب البيان ، يجيد النظم والنثر . وكان اسلوبه منسجم التراكيب ، متساوي المعنى ، موفور الازدواج ، شديد الاطناب ، كثير الاستطراد ، ظاهر المبالغة . اما شعره فادنى رتبة من نثره ، واقل جودة ، واضعف ابتكاراً . فهو في نثره مجدد ، وفي النظم مقلد ، وفي كليهما بالنسبة الى اهل عصره سابق مجيد .

وقد يؤخذ على المؤلف جرأته على الادب ، وتطرفه في المجون ، واستعماله من الالفاظ ما لا يصدر منه عن مثله ، ولا يليق بفضله .

وقال الاب العنداري : وكان الشدياق ، على ما امتاز به من ثقافة وذكاء ، طافح الكتابة بالمجون والخلاعة ، متقلباً بارائه ، يتظاهر بالدين مع من يريد التحبب اليه ، فكان بروتستانياً مع البروتستان ، ومسلماً مع المسلمين . وكتب في الاسفار والمجتمع الانساني « الواسطة في احوال مالطة » خلط فيه اموراً كثيرة تعامى عنها حباً بالحط من كرامة الدين . اما « كشف المخبا » فأهم ما فيه اسمه الرنان . وقد ترجم عن اللغة الانكليزية « شرح طبائع الحيوان » بعبارة سلسة مما يجعل كتابه اول كتاب مترجم على اسلوب عربي فصيح .

وقال الاخ ساروفيم فيكتور في « تاريخ الآداب العربية » :

كان فارس الشدياق وحيد زمانه ونابغة عصره في علوم اللغة والآداب ، والكتابة والشعر ، وكان مع رجاحة عقله وحصافة رأيه واهي العقيدة مذبذباً في الدين ، عاشر الاميركان فجنح الى البروتستانية ، ونزل تونس فأسلم وسمي احمد ، وهذه خلة ذميمة

في كل انسان فكيف بمن منّ عليه الخالق، سبحـــانه وتعالى، بالمواهب الغزيرة، والمدارك السامية .

وجاء في «المفصل» (وضعته لجنة من شيوخ علماء مصر لوزارة المعارف) : كان الشدياق متبحراً في اللغة العربية متمكناً من فنونها، واقفاً على اسرارها ودقائقها، وقد أوتي مع هذا بياناً سهلاً تلين له وجوه المقاصد وترهف له الآذان، ويهفو اليه مستصعب الاذهان . وله كذلك شعر مشرق الديباجة، رصين البناء .

له مؤلفات جمة من اهمها «الفارياق» أجراه على اسلوب فكاهي بديع لم يسبق اليه في العربية، لولا اسفافه احياناً الى ألوان من المجون لا تحمد من مثله . ولقد تعمّد ان يبذل فيه ما شاء الله من فنون المترادفات اللغوية في الاغراض المختلفة ما يدل على سعة علمه بدقائق العربية .

وقال جرجي كنعان في «الآداب العربية وتاريخهـــا» : اول مـــا يظهر من اخلاق الشدياق هو نزوعه الى الحرية وفك القيود القديمة، مع المحافظة على ما هو ضروري منهـا . كان فكهاً يأسر السامع بحلاوة حديثه . ومع ما نال من سمو المقـــام وعلو الرفعة ظل وديعاً لطيفاً . وكان عندمـا يقتنع بصلاحية امر يحمل على خصومه حملة شعواء . كان واسع الاطلاع جـداً، يحفظ كل اللغة العربية تقريباً . لذلك سهل عليه الانشاء نثراً ونظماً . كان فناناً مبدعاً في الانشاء، ولذلك كان يملك على قارئيه القلوب، فأصبح قبلة الانظار في الانشاء والتأليف مدة نصف قرن .

وقالت جريدة «القاهرة الحرة» في العدد ٥٢٣ : وقـــد خدم افكار رجـــال الدولة العليّة في سائر كتاباته السياسية،

ولم يبخل بآرائه السديدة عند كل ملمّة كانت تحدث في الولايات المحروسة ، فكان في جميع المعضلات يصف الدواء للداء غير خاش في الحق لومة ، او متلبّس بمظاهر الخداع والمخاتلة . وكانت جرائد باريس الخطيرة وصحف لندرة الشهيرة تأتي بذكره كثيراً في اغلب اقوالها عن سياسة الشرق مستندة في آرائها عليه ، مقدّرة اياه حق قدره ، وكانت منزلته عند كتّاب الصحف في اوروبا سامية جداً .

وجاء في « دائرة المعارف » للبستاني : نهج في كتابته نهجاً جديداً جمع فيه بين متانة العبارة ورقة الانشاء ، فلم يخالف الاقدمين ولم تثقل عبارته على ابناء العصر . وكان في اللغة بحراً زاخراً لا يكاد يغيب شيء عنه من مفرداتها ، وشتيت موادها . وهو مع ذلك جيد الانتقاد ، متوقد الذهن ، حسن التصرف بوصف مشهوداته ومسموعاته . وقد خاض في السياسة بحراً لم يبلغ ساحله اكثر كتاب الشرق . واتخذ من اللغة اوضاعاً عبّر بها عن مصطلحات الافرنج ، فكانت « جوائبه » مثلاً تحدّاه اكثر الكتاب .

ولولا افاضته في فاحش المجون ، وتصلبه في تعزيز الوجهة التي يوجه اليها قلمه ، لقلنا انه الامام الذي يرجع اليه ، والمثال الذي لا يعول الا عليه .

وكتبت جريدة « البورص اجيبسيان » الافرنسية بتاريخ ٢٦ تموز ١٩٣٧ ، تحت عنوان « فارس الشدياق اديب الشرق الادنى الكبير » ، ما يلي :

ما بين سنة ١٨٠٢ و١٨٨٧ نشأ رجلان ان اختلفا موطناً

ولغة فقد اتفقا في الاتجاه والمثل الاعلى . من المفيد جداً ان نعلم ان هذين الرجلين اللذين لم يتعارفا ابداً قـد جريا لغاية واحدة طول حياتهما . فهذان الرجلان هما المعلمان المطلقان للغتهما ، قد تصرفا بها كما شاءا بسهولة عجيبة . اسخطهما محيطهما فعاشا يهجوان شعراً ونثراً المتسلطين في عصرهما مقبحين الاساءة والجور .

هاجم فكتور هيغو الهيئة الاجتماعية من الجهة المدنية فهجا العظماء ونابليون فأرسله الى المنفى . اما الشدياق فانتقد في معظم كتبه رجال الدين الذين تتألم منهم بلاده ، وهم الذين سببوا موت اخيه اسعد الشاعر المعروف في الثانية والثلاثين لانه بشّر بالمذهب البروتستاني . ثم انتهى امر الشدياق الى اعتناق الدين الاسلامي .

اما هيغو فأقامت له فرنسا التماثيل وتغنّت بذكراه . امـا الشدياق فلم تذكره شعوب الشرق الادنى الا هـذه السنـة ، اي بعد مرور خمسين عاماً على وفاته ، اذ شعروا انهم لم يفعلوا شيئاً حتى الآن لنقّادتهم الاكبر ، وسيد فقهـاء لغتهم في القرن الثامن والتاسع عشر . ادركوا ان منشيء اشهر جريدة عربية (الجوائب) امسى منسياً ، وان مؤسس الصحافة العربيـة لم يعرفه الشعب في احتفال وطني .

ففي تشرين اول ستقام ببيروت اعظم حفلة عرفتها تلك البلاد ، يترأسها فخامة رئيس الجمهورية اللبنـانية ، وتمثل فيهـا امم الشرق الادنى لتكريم ذكر لبناني كان اجرأ واعظم نقّـادة ، بل اعظم علماء القرنين الثامن عشر والتـاسع عشر ، وسيخـلدون ذكراه بتمثال يرفعونه له في بيروت سنة ١٩٣٨ .

فنتمنى للنابغة العظيم الذي دافع طويلاً عن مصر وخديويها في

جريدته الشهيرة ان تكون حفلة ذكراه لائقة بمقامه السامي .

قلتُ : ...

حكاية اليوبيل

صرخة في واد

عندما ارسلنا الصرخة تلو الصرخة لم نحسب انها جميعاً ستذهب في واد . فما اصدرنا بضع مقالات ، في نهاية عام ١٩٣٦ ، نذكر فيها العالم العربي باديب النهضة الحديثة وواضع حجر الزاوية في بنيانها العلاّمة الاكبر احمد فارس الشدياق ، حتى اهاب بنا صوت من بيروت : ان انزل العاصمة ، فهبطنا اليها شاكرين للاستاذ محمد جميل بيهم دعوته التي شربنا فيها الشاي والقهوة ، واكلنا من الحلوى اقراصاً مختلفة .

كنا اربعين ، ولكن غير الاربعين الخالدين ، فانتخبنا منا اثني عشر رسولاً ... حملناهم الدعوة للشدياق وارسلناهم كالخراف ... كانت همتنا عظيمة يوم بدأنا وتلك عادتنا ، نار هشيم ثم تنطفي . فما ذاعت الدعوة حتى انبعثت الهمم ، واتانا من القاهرة نبأ الدكتور فيليب الشدياق (ابن عم المرحوم) يتبرع بمئة جنيه مصري لعمل تمثال للفقيد . فقلنا يا بارك الله ، اول الغيث ديمة مدرار ! ولكن المثل كذب وما صحّ هذه الخطرة . وتوالت جلسات اللجنة المختارة حتى خطر ببالها ان تقرع باب الحكومة ، فمئة فيليب شجعتها ... اما كرم الحكومة فكان حاتمياً ... واليك ما كتبته جريدة « صوت الاحرار » الخطيرة على اثر تلك المقابلة تحت هذا العنوان الضخم . قل يا بارك الله :

الجمهورية اللبنانية تقدر نوابغها
مهرجان الشدياق سيكون برعاية الحكومة
وزير التربية الوطنية يعد لجنة التكريم بالمساعدة المادية والمعنوية

« اوفدت لجنة تكريم إمام اللغة العربية وحجتها في القرن التاسع عشر المأسوف عليه احمد فارس الشدياق اربعة من اعضائها هم السادة : محمد جميل بيهم رئيسها ، والشيخ يوسف زخريا ، وكرم ملحم كرم ، ويوسف يزبك ، فقابلوا فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية (الاستاذ اميل اده) ، وطلبوا اليه التلطف بقبول جعل مهرجان الشدياق تحت رعاية فخامته . وقد استقبل اللبناني الاول وفد اللجنة بالحفاوة وقال : انه شخصياً يعطف على مشروعها ويقدره حق قدره ، ولكنه يطلب الى الوفد ان يجتمع بمعالي وزير التربية الوطنية ، ويتفق معه على تقرير الامر ، عملاً بنصوص الدستور ...

«وذهب الوفد الى معالي الاستاذ حبيب ابي شهلا ، فلقي من وزير التربية الوطنية كل عطف وتشجيع وقال : انه مستعد لتسهيل مهمة اللجنة بكل ما لديه من الوسائل المادية والمعنوية . وقد تلطف فشكر اللجنة باسم الحكومة اللبنانية على اهتمامها بتكريم نابغة لبناني من نوابغ الامة العربية ، ووعد بقبول رعاية المهرجان.

«وقد بسط الوفد لمعالي الوزير منهاج اللجنة لتكريم الشدياق ، ومنه : اعادة طبع بعض مؤلفاته ، واختيار مختارات منها ، ثم اقامة تمثال له ، وترميم ضريحه في الحازمية ، وجعل مدة المهرجان اسبوعاً كاملاً يشترك فيه المتمشرقون ، ووفود الاقطار العربية ، وشعراؤها وكتابها ، وربما يفتتح المهرجان ويكون يومه الاول في بلدة

الحدث وطن الشدياق .

« ولم يفسح معالي الوزير المجال للوفد لكي يطلب معونة الحكومة لتحقيق مهمة اللجنة ، بل اعلن لزائريه ، حالاً ، انه سيخصص مبلغاً من المال تسمح به حالة موازنة المعارف يكون فاتحة الاكتتاب الذي ستجريه اللجنة لتحقيق منهاجها . ووعد بان تشترك مدرسة الصنائع والفنون مع احد مهندسي الحكومة لترميم الضريح ، فخرج الوفد من زيارته شاكراً مثنياً .

« اما اللجنة فسائرة في عملها بهمة ونشاط . وهي تجتمع كل يوم اثنين ، مساء ، في مكتب رئيسها الفاضل لتقرير شغل الاسبوع .

« اخذ الله بيدها وكافأها على عنايتها بتكريم عبقري كان مفخرة للبنان وللعرب وللشرق . »

ثم راحت وزارة ابو شهلا وجاءت بعدها وزارة ابي اللمع ، ثم سقطت هذه وجاءت وزارة ثابت ، ولكن الوزارات لم تكن تحل وتربط ، فمشت القضية على قدم وساق الى الاضمحلال ... لم تبرّ الحكومة بشيء من وعدها والسبب « طبخاتنا » السياسية ، فالقدر دائماً على النار ، والحي افضل من الميت ... فكل ما ملكت ايمان الحكومة أرصد للمعركة الانتخابية الشهيرة ، وما يوم حليمة بسر ... وهكذا ارتخت همة لجنة الشدياق ، اذ علم الاعضاء الكرام والرئيس الهمام انهم ينفخون في رماد ، ولكن الاستاذ بيهم لم ينقطع امله ، فظل يعالج هذا المسلول حتى ورد اليّ كتاب الدكتور فيليب الاخير ، فاذا بالرجل رجع عن غيه ... وابى دفع المئة جنيه وسبحان الهادي ...

وللحكاية تتمة لا بد منها : كلفنا احدنا الدكتور قسطنطين



ضريح الشدياق

المؤلف في الوسط والى يمينه صاحب دار المكشوف

عدد المكشوف الخاص

الشدياق يبعث

تحت هذا العنوان كتبت جريدة «صوت الاحرار» بتاريخ ٨ اذار ١٩٣٨ :

« منذ خمسين سنة جيء بجثمان الفقيد العلامة احمد فارس الشدياق من استنبول الى مسقط رأسه الحدث، حيث دفن في مقبرة العائلة، ثم نقل الى مقبرة خاصة في الحازمية بجوار مدافن المتصرفين .

« وحدث اخيراً انه بينما كان العمال يحفرون، لان الحكومة عدلت طريق « عاليه » رغبة في اختصار المسافـــة، وتجنب الاكواع الخطرة، عثروا على نعش من الرصاص، ففتحوه، فاذا به يضم جثمان احمد فارس الشدياق .

« الجثمان على حاله – ولشد ما كانت دهشة العمال عندما وجدوا الجثمان لا يزال على حاله، كأنّ العلامة الشدياق ميت منذ يومين فقط . فلحيته باقية، وحاجبـاه باقيان ايضاً، ولم يطرأ على شعره وعلى وجهه اي تبدل او تغير .

« وليس هذا فقط، بل ان الكفن الذي لُفّ به، وهو من الحرير المعروف « بالتفتا »، لا يزال على حاله ايضاً، كما ان ختم دائرة الصحة في استنبول ما برح موجوداً على التابوت .

« ولوحظ ان خشب التابوت في الداخل اصبح بالياً دون ان يؤثر ذلك على الجثمان .

« الاحتفاظ بالجثمان – وقد نقل التابوت الى المدفن الجديـــد ، بعد ان اقبل الناس في ضواحي الحازمية على المدفن للتفرج على جثمان مضى على دفنه خمسون عاماً دون ان تتمكن هـــذه المدة الطويلة من اعادته الى اصله ، اي الى التراب الذي خلق منه .

« فهل اتصل هذا النبأ بالحكومة ، وهل فكرت في الاحتفاظ بالجثمان لانه اثر تاريخي وادبي خطير ؟ » – انتهى .

وشاع عند العوام ان الشدياق قدّيس لان جسده لم يبلَ ، فخطر لي ان اكتب كلمة حول الموضوع ، فتخيلت انني اخطب الناس على قبر الشدياق يوم يوبيله ، فكتبتُ :

هيهِ يا ابا العباس ، يا عجيبة الدهر ، زدنا من غرائبك كما طلعت من ظلمتك آيةً لهذا الجيل .

هيهِ يا ابا العباس ، لئن نام يونان في بطن الحوت ثلاثة ايام وثلاث ليال ، فقد نمت في بطن الارض خمسين عاماً وظهرت بلحمك وعظمك ، وان لم تكلمنا حواراً فقد حدثتنا اعتباراً .

هيهِ يا ابا العباس ، أيؤاجر فيك سلطان بني عثمان ، ويدفنك الفعلة في لبنان ؟ أتحملك الغوغاء بعدما واكبك الوزراء والامراء ، وانت على رمية حجر من مدينة العلم والثقافة ؟ ان الزمان يمشي القهقرى .

لقـــد ابعدك الباحوط عن جيرة الفجل واليقطين ، وعنبر السرقين ... وعطر المكارين ... ولم يهدم « كوعاً » إلا ليبني قمة

تاريخية ، فله الشكر .

يا معلم الجيل ، واستاذ القرن ، من لنا بواحد يتمّ ما بـــه ابتدأت ، ويكشف ما كشفت من اسرار لغة العرب ؟ من يترك لنا كالفارياق اية العقل العربي ، يضعهـــا في كفة ميزان الادب العالمي ، فيفتدينا كما افتديت جيلك ؟

ان مآثرك آية الدماغ البشري ، فهبنا شيئاً من قريحتك نتم به ما شيدته الا بضعة مداميك . لقـد كنت كلمة في فم الزمان ، فأوتيت ما لم يؤت الخليل ، وادركت مـــا لم يدرك الحريري وسيبويه . لقد كنت جاحظاً آخر ، اودعت الطبيعة في هيكلك الصغير معاني لم تجتمع لالف رجل جسيم ، كامل العقل والذكاء .

اذا فاخر الغرب باعترافات نوابغه حملنا « فارياقك » بيـد لا ترتجف ، وعين مفتوحة . لقد بحث اولئك انفسهم في كتبهم ، اما انت فرأيت الدنيا كلها في نفسك . تناولها قلمك الساحر فرأيناها حيّة تسعى . فلله ادبك الحي ما اسماه ! قد حققت قول السلف : ان الانسان هو العالم الصغير .

اسمح لي ان اتلو على قبرك الفاتحة بالنيابة عن شخصك الغائب ، واذا كنت لا تزال تحن الى الألحان السريانية ومدارجها « وميامرها » فانا احسن ذلك ، انما بصوت يذكرك الآية الكريمة ...

اسمح لي ان أؤبنك بالنيابة عن العرب فهم في شغل ، وعن لبنان فهو في غمرة لا تنجلي ... طبخات حصى يعلل بها الشعب : رويداً يا بنيّ ينضج الطعام ... ولكن لا عُمَرَ ...

لقد احببتك يا شيخي العظيم ، وَوَدَدتُك مودة غير يقطينية ، فقل لي كيف تجدك في العالم الثاني ؟ أانت ناعم البال في مخدعك الجديد ،

وهل انتهى عذاب القبر بسلام ، وهل سمع منكر ونكير بعض نكاتك الطريفة ؟

أعاتبك يسوع ؟ ألامك مار مارون ؟ وكيف كانت وقفتك بين رضوان ومار بطرس صاحب المفاتيح ؟

ليتك تكتب فارياقاً آخر عن الدنيا الاخرى ، يا ابا العباس ! أكلٌ يشدّ صوب صدره في السماء ؟ وهل هناك معاهدات فيها المادة السادسة المكررة ، ام النعيم مشاع للناس كما كانت الارض منذ البدء ؟

– حنانيك يا مارون ، فقد فلقتني وقتلت الناس ، فما لك وما لي يا صاحبي[1].

سمعت خفق المعاول فوق رأسي فحسبتها القارعة ، وان ستلتف الساق بالساق والى ربك المساق ، ولكنني لم اخف فقد ثقلت موازيني .

تسألني ماذا رأيت عندكم بعد خمسين عاماً ؟ اقول اننا كنا خيراً منكم . كنا احزاباً سياسية تتنازع الحكم ، لا يقودنا القسيس ولا يسوقنا الامام . لقد بكيت عليكم ورثيت لشعب تسوقه الطائفية بعصاها ، وتقوده الى كلأ مستوبل . قل للجماعة لا ينشغل بالهم بقداستي فليس في اللحم والعظم بقوى . قد عادت الروح الى مصيفها ، والجسم الى مشتاه ...

خبروني انكم ستحتفلون بذكراي ، فلا شكر على الواجب ،

١ ستقرأ ما كتب حول الشدياق وبوبيله في كتاب عنوانه « من كل واد عصا » لان هذا الكتاب لا يتسع صدره لذلك .

ولكن هيهات ما تُعِدون ... سائلوا عن اقاربي ، فان وجدتموهم فبلغوهم سلامي . كم وددت ان اراهم قبل الالتفاف بالظلمة ثاني مرة ، ولكنهم ابطأوا ... ولن يغير الله ما بقومٍ ...

واخيراً ، لكي يصدر « العدد » لائقاً بصاحبه ، رأينا ان نزور الشدياق ، يوم ذكراه ، لنرى كيف حاله في بيته الجديد ، فنهضنا لهذه الزيارة . كفّ الشيخ فؤاد حبيش يده عن اوراقه ، وقلبه يشتهيها . قرص اذن التلفون واخذ يستعرض ارقاماً توهمنا انها تفكّ لنا طلسم الاستاذ بيهم ، ولكننا لم ندركه لننوب واياه عن الوطن الغافي ... ذكرنا فضل الاستاذ وجهاده في سبيل تكريم الشدياق . اما المادة السادسة المكرورة فما خطرت على البال .

ثم طرحنا الصوت ، تلفونياً طبعاً ، فبيروت غير ابرشيتنا عين كفاع ، فلبى المصور انطوان دقوني نداء صاحب المكشوف ، وبعد بضع دقائق كنا في الحازمية ، بانتيّون لبنان ، عند باب ضريح احمد فارس نحاول فتحه ولا نقدر .

ظننا صاحب الاذن جواسيس سياسيين فقابلنا بشنقة المهر ، وتزنبر علينا ما شاء ، وابى ان يكون الفتح المبين الا بأمر من له الامر . فوجهنا السائق الى الباحوط ، فغاب ثم آب يحمل المرسوم . فزرنا القبر بالنيابة عن الامة الكريمة زيارة رسمية ، انما بلا زفزافات بحارية ، ولا اعلام خفاقة ، فالحقوق محفوظة ... وهكذا ادّينا لادبينا العظيم حقه ، بعد ان احرنجم الناس عن تكريمه .

وافضل من افضلهم صخرة لا تخدع الناس ولا تكذب

كانت هذه الزيارة جامعة مانعة ، وافية الكم والكيف ، كما

يعبّر المناطقة . ناب الشيخ فؤاد حبيش عن الاعيان ، ومن كفؤاد حبيش الذي افتخر الفرزدق بجده ، واعتز بخؤولته على جرير قائلاً:

يا ابن المراغة ، اين خالك ؟ انني　　خالي «حبيش» ذو الفعال الافضل
خالي الذي غصب الملوك نفوسهم　　واليه كان حباء جفنة ينقل

أرأيت ما اعظم جدّ فؤاد ؟ انت احوجتنا ان نعاير السطول ، فلا تشك فيّ اذن ، ولا تحوجني ان افتح جرابي واقول لك من انا . انا نُبت عن العوامّ ، وهذا لبنانك كله . وان قلت اين رجال الدين ، اجبتك : انا كنت منهم ، ووقفني الروح القدس في نصف الطريق ليريحك من شري ...

وقد تقول واين رجال الحكومة ؟ وانا اقول : الصحافة هي السلطة الرابعة ، فاعلم ان كنت جاهلاً ، ولكن لماذا تحتج الآن بما لا بد منه فيما بعد ، الشيخ فؤاد ومارون (حاف) كنا موظفين ولم نفلح ...

أتريد صحافة ومعاهد علمية ؟ الشيخ صاحب المكشوف ، وللمكشوف دار تصدر صحفاً لا صحيفة ، وهي اي المكشوف جريدة سياسية وادبية في وقت واحد . وان لم تخن الذاكرة فجناب الشيخ ، ايده الله ، ومتع الادب بطول بقاه ، من اعضاء نقابة الصحافة ... اما المعاهد العلمية كبيرها وصغيرها لاناثها وذكورها فانا امثلها ، وامثل ايضاً « ابناء الارملة » بكل جدارة واستحقاق — غير الاستحقاق اللبناني . فقل اذن يا اخي مع ابي نواس:

ليس على الله بمستنكر　　ان يجمع العالم في اثنين

اي انا وفؤاد حبيش ، وما عليك لو انكسر البيت ، شرط ان تسكت ولا تماحك .

اذن كانت الزيارة متممة . والشدياق لا ينقصه شيء ، فهو راض كل الرضى عن بيته الجديد ، النظيف الشريف ، الحسن الموقع ، العنبريّ الهواء ، الكوثري الماء . يطل من شباكه على السكة ، ويتمتع من شميم عرار نجد ، قبل العشية وما بعدها ، برغم انف الشاعر ... لقد بات على كتف سكة الشرق والغرب ، وما عليه الا ان يكتب اسمه على باب داره بحرف ثخين ليعرف الاصحاب بيته . لقد اشتهينا المكث الطويل على صفّته ، وتمنينا لو نسمع نغمات طنبوره الشهية الشجية ، ونشرب القهوة لا المدام عـلى ذكر الحبيب ... قل سبحان من يغير ولا يتغير . فبعدما كنا نسد انوفنا ان عبرنا بذلك المكان ، صرنا نأذن للنسيم يفعل ما يشاء .

حقاً ان السيد ميشال الباحوط مدير الاشغال العامة المحترم – الحديث رسمي مرة فقط ، وبعدئذ يصير ميشال كغيره – حقاً ان هذا الرجل قد احسن الى الامة والفن ، ودولة الادب اللبنانية ، في وقت معاً . فما اعظم القدر حين يسخر الرجال لافضل الاعمال ، وما اجزل عطاياه حين يسخو على رجل مهذب كميشال الباحوط ! فرجل يبيض وجه الامة ، ورجل يصيّره كالزفت .

لقد حق لنا اليوم ان نقول في الشدياق ما يقوله النصراني في التعليم المسيحي : وانزلوه من على الصليب ووضعوه في قبر جديد.

ما انزل الباحوط الشدياق ، بل نشله من تلك الوهدة السائبة ونجاه من تلك الروائح الظربانية . فجثم « الصقر » على القمة اعلاناً مشرفاً لنبوغ لبنان . فهنيئاً لشدياقنا مقره الجديد ، فليست تروح عليه الابل والشاء ، كما خاف ابو نواس على « درته » ، حاشاها . ليقبع فيه كالصياد في داموسه ، فهو قادر بعد اليوم ان يستروح النساء

من مسافة عشرة اميال ...

ليس السامع كالرائي ، فزر يا اخي ذلك المكان تقدر احسان مدير الاشغال العامة ، فقد اصاب طريدتين برميـــة واحدة : قوّم الطريق الاعوج كمنجل عزرائيل ، ووضع سراج لبنان على منارة بعد ان كان تحت مكيال لا يرى الداخلون نوره ...

وكان اعجاب الشيخ فؤاد بضريح الشدياق عظيماً . واردنا ان تكون لنا صورة تاريخية فنبرّكنا بمسّ تابوت عهد لبنان ، غير خائفين ان نصعق ، وقلنا للدقوني هات ما عندك . فصورنا عنـــد الباب خاشعين ، وفوق القبر مطمئنين . وان رأيت في يدي قلماً فليس لاعرّفك اني غير أمّي ، بل لاني كنت انقل لجنابك ما كتب على الاسطوانة التي تراني اناطحها ، وهذا هو :

وردت مـن الرحمن بالعفو منهلا وقد فزت في إحسانه بالنفائس
واودعت في هذا الضريح وغوره وقد كنت في دنياي صدرَ المجالس
وفي سائر الاقطار جابت جوائبي بنشرٍ أشمّ الطيبَ شمّ المعاطس
وجاوزت في الدنيا ثمانينَ حجةً بها كنت أجني العلم زاكي المغارس
لذاك أرى بالعلم أحيـّـاً اذا غدا اخو الجهل ميتاً رسمه شرّ دارس
لاني به قد عشت أجني فنونـــه بأفنـان آداب زهت كالعرائس
ومولاي في دار الخلافة قد قضى عليّ فقابلت القضا غـــير عابس
وجئت لاوطاني تراني غدا بها وما انا مـــن ورد النعيم بآيس
لان هدى مولاي للرشد أرّخوا أحلّ بدار الخلد احمـــد فارس

ولد سنة ١٢١٩ ، وتوفي في ٢ محرم سنة ١٣٠٥ .

ثم عدنا من هذه الزيارة عودة ذلك الشاعر من منى . وصحت العزيمة على اخراج «مكشوف» خاص بالشدياق، حافل بالرسوم الطريفة،

والوثائق العديدة بخط المرحوم ، وقد اقتسمنا خطتينا بيننا ، فكانت كما قال الشاعر :

منك السميذ، ومني النار اضرمها   والماء مني، ومنك السمن والعسل

الكاف تعود الى الشيخ ، والياء تعود الحيّ . وكل ينفق بما عنده .

واخيراً لا بد من ختم هذا الكتاب بكلمة قلناها في فصل آخر نخاطب الشدياق : اعذرنا يا كريم ، فالتماثيل لا تقيم تماثيل ...

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢	١٥	مديراً	مدبّراً
١٤	١٦	البلاط	البلاد
١٦	٠١	مبلغ الف	مبلغ ألف ألف
١٦	٢١	يلبسون	يلهمون
٢٠	١١	اولاد يوسف	اولاد الامير يوسف
٢٣	٢١	حطط	خطّط
٢٥	١٧	وراؤه	وورواؤه
٢٥	٢١	يبني يترك	يبني ويترك
٣٤	٠٧	لام	لازم
٣٦	٢٣	الاحوال	الاصول
٣٨	٠٧	اذا	انه
٤١	٠٤	صنارة في	صنّارة تلقى في
٥٠	١٣	كانت	(تحذف)
٥٦	٠٦	بذيل	يذبل
٦٢	٠٤	لا تفرق	لا نفرق
٦٢	٠٧	تواخذنا	تؤاخذنا
٦٣	٠٧	لفئة	الى فئة

٦٣	٠٧	بافواههم ،	بافواههم .
٦٣	٠٨	تزاد (سورة الانفال)	بعد السطر السابع
٦٣	١٤	لجنبه ،	لجنبه .
٦٣	١٧	القول ،	القول .
٦٤	٠٨	للعالمين ،	للعالمين .
٦٤	١٧	يسيقني	يسقينِ
٦٤	٢٢	نفسي	نفس
٦٥	٠٤	الفاطر	فاطر
٧٠	٠٨	العرب	الغرب
٧٠	١٨	فالمتمشرق والمتمغرب	فالتمشرق والتمغرب
٧١	٢٢	حيدر التاريخ	حيدر صاحب التاريخ
٧٧	٠٢	سلسلتها	سلساها
٨٠	٠٤	المفرد	المفرد العلم
٨٠	٠٥	في المقام	في هذا المقام
٨١	٠٤	وازن	وزّان
٨٨	١٢	رأيها	رأيها
١٠٢	٠٢	على عقلي	افضل على عقلي
١٠٥	٢٣	ويغلى	ويغلي
١٠٨	١٠	كتاب	الكتاب
١٠٨	١٤	الفرياقية	الفارياقية
١١٠	١٢	مرص	مرض
١١١	٠٨	عانية	غانية
١١٦	١٧	حول	حولي

١٣١	١٥	يوءثها	يدفئها
١٣٩	١٧	شاعرة	شاعره
١٣٩	٢١	وقيل	وقبل
١٤٤	٢٠	ولذّ	ولذة
١٤٩	١٥	ويسير	ويسبر
١٤٩	١٢	وتزعجه	وترعجه
١٥٢	١١	والموات	الموات
١٥٥	٠٦	حان	(تحذف)
١٦٠	١٤	في صحنها	في صحتها
١٦٣	٠٣	يفتح	يفتتح
١٦٣	٢٠	وحبوت	وصبوت
١٦٩	١٩	لجبله	لجيله
١٩١	٠٢	اساة	اساءة

فهرس

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع نصار
في اليوم العشرين من آذار ١٩٥٠

DATE DUE



عبود ،مارون
صقر لبنان
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01039233